مدينة مرو والسلاجقة

حتى عصر سنجر

تأليف الدكتور

يحيى بن حمزة الوزنة

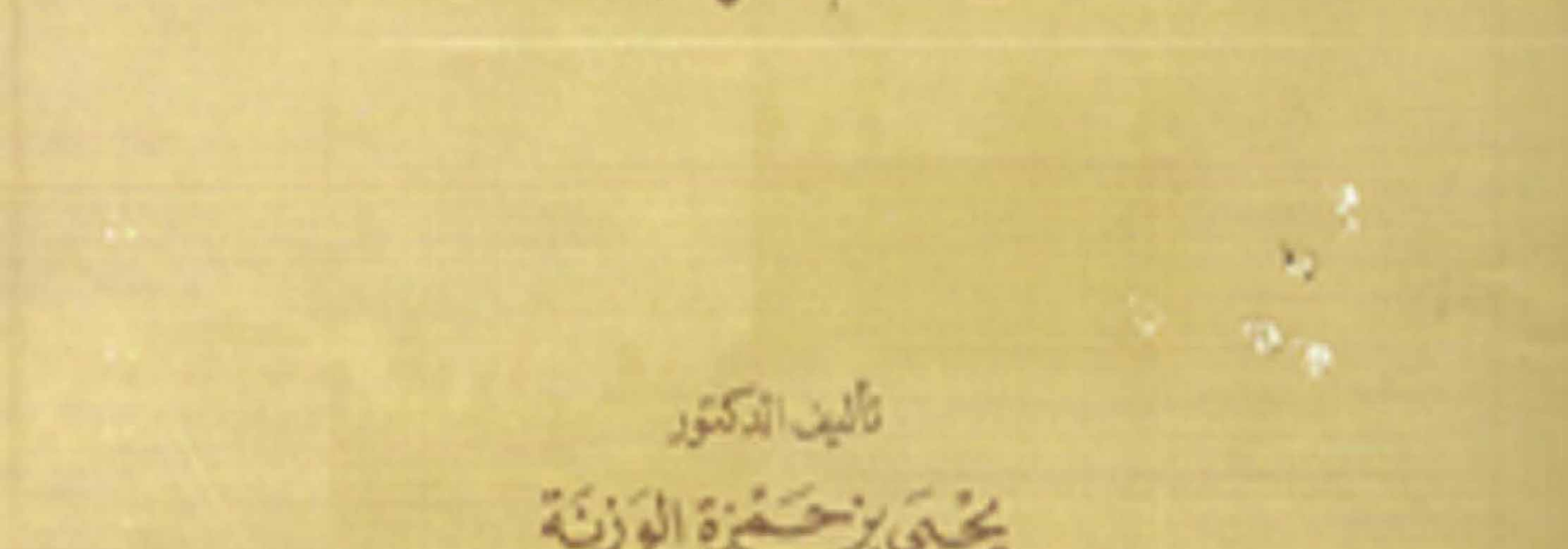

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الأولى
١٤٣٢ هـ - ٢٠٠٧
حقوق الطبع محفوظة للناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بور سعيد (القاهرة)
فاكس: ٢٥٩٣٦٧٧ هاتف: ٢٥٩٣٨٤١١ - ٢٥٩٢٢٦٢٠
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

الوزنة ، يحيى بن حمزة

مدينة مرو والسلاجقة حتى سنجر / تأليف يحيى بن حمزة الوزنة

ـ ط١ـ القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، ٢٠٠٧

٣٤٠ ص ، ٢٤ سم

تدمك : ٢ ـ ٣٣٢ ـ ٣٤١ ـ ٩٧٧

١-السلاجقة

ا ـ العنوان

ديوي: ٩٥٣.٠٧٣٩١١

رقم الإيداع : ١٠٦٢١ / ٢٠٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

تمهيد

كان السلاجقة مجموعة من قبائل الأتراك الذين عرفوا باسم (الغز)، وكانت هذه القبائل تسمى (الأوغوز)، ثم خففت هذه النسبة فصارت (الغز)، وقد بدأت هذه القبائل تهاجر من أقصى التركستان في خلال القرون الثاني والثالث والرابع الهجرية تحت ضغط ظروف قاهرة، كغلبة قبائل أكثر قوة عليها، وسيطرتها على أراضيها أو سوء الحالة الاقتصادية، خصوصًا إذا ما كثر عدد أفراد القبائل، فعجزت موارد الرزق عن كفايتهم أو حدث قحط جعل هذه الأماكن لا تصلح لاستمرار الحياة فيها، وقد يممت القبائل التركية المهاجرة وجهها شطر الغرب، وحاولت الاستقرار في إقليمي ما وراء النهر وخراسان.

وأخذ التاريخ يردد اسم السلاجقة منذ أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وكانت طوائفهم حينذاك تسكن الهضاب القريبة من بحيرة خوارزم، فتنزل بالقرب من السواحل الشرقية لبحر قزوين (أو بحر الخزر)، وفي الهضاب المحيطة بنهري سيحون وجيحون، وكانت هذه المساكن تقع بين بلاد ما وراء النهر، ومنازل طائفة من الأتراك المسلمين تسمى (القرلق).

وقد أطلق على هذه القبائل التركية اسم (السلاجقة) نسبة إلى رئيسها سلجوق بن دقاق (أو تقاق) كلمة تركية معناها (القوس الجديد)، وكان لا يعرف لها اسم خاص قبل تولي سلجوق هذا رئاستها، ويبدو أنه هو الذي جمع شملها ووحدها تحت زعامته، ثم قادها إلى تلك المنازل في عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م، فنسبت إليه وخضعت لحكم أبنائه وأحفاده من بعده.

وكانت منازل السلاجقة -في ذلك الوقت- تجاور ممتلكات السامانيين والخانيين والغزنويين، وهم من الدول الإسلامية السُّنية، فأدى جوار السلاجقة لهم إلى اعتناقهم الإسلام، وتعصبهم للمذهب السني الذي يرعاه الخليفة العباسي في بغداد، ويسر لهم اعتناقهم الإسلام فرصة التقرب من الحكام المجاورين لهم، والتدخل أحيانًا في المنازعات التي تثور بينهم.

وقد استفاد زعيمهم سلجوق من مساعدته للسامانيين فأذنوا له بالمرور في بلادهم والاستقرار بطوائف السلاجقة بالقرب من شاطئ نهر سيحون واتخاذ مدينة (جندة) قاعدة له.

ثم أخذ السلاجقة منذ أواخر القرن الرابع الهجري يجنحون إلى الاستقرار بالقرب من موارد المياه، حيث توجد الأراضي الخصبة وتكثر المراعي اللازمة لدوابهم، فيطيب العيش لهم ويحلو.

وبدأ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، والسلاجقة يستقرون في بلاد ما وراء النهر بعد أن تمت هجرتهم من إقليم تركستان، وكانت الدولة السامانية قد انهارت في عام ٣٨٩هـ/ ٩٩٨م، فتوزعت أراضيها بين الخانيين والغزنويين، وكانت منازل السلاجقة تتركز في الشتاء حول (نور) بالقرب من بخارى، وتتجمع في الصيف حول (صغد) بالقرب من سمرقند.

وكان السلاجقة عنصرًا جديدًا في تلك البلاد يختلف عن عنصر السامانيين في أنهم لم يألفوا حياة المدن والاستقرار من قبل، بل عاشوا حياة تغلب عليها سمات النداوة من ميل إلى التنقل والارتحال طلبًا للرزق، وانتجاعًا لمواطن الكلأ، فكانت جذور الحياة القبلية راسخة في أعماق نفوسهم مما أثر في دولتهم وفي حاضرهم ومستقبلهم أيما تأثير، فقد اعتمد سلاطين السلاجقة على القبائل التركية اعتمادًا كبيرًا، وكوَّنوا من أفرادها جيوشهم، وشجعوا

القبائل السلجوقية على الوفود إلى إيران وغيرها من الأقطار الإسلامية.

وكان المظهر القبلي يغلب على سلاطين السلاجقة الأولين، فكانوا غير مثقفين مما جعلهم في حاجة ماسة إلى كثير من الموظفين لاستعمالهم في المهام المختلفة، فبرزت طبقة الموظفين، وازداد نفوذ بعض أفرادها تبعًا لأهمية مناصبهم أو لصلتهم بالسلطان السلجوقي، وكان من أبرز أفراد هذه الطبقة الوزراء والحجاب، وقد استطاع هؤلاء أن يلعبوا دورًا بارزًا موجهًا في كثير من الأحداث السياسية وغير السياسية، بل إنهم استطاعوا أحيانًا أن يسيطروا على سلاطين السلاجقة، ويوجهوهم وفق إرادتهم.

كما أثرت غلبة النظام القبلي على السلاجقة في سلاطينهم فجعلتهم لا يهتمون بمظاهر الملك، فألغوا ديوان البريد، ولم يحاولوا الاستعانة بالحكماء والعلماء كثيرًا، بل غلبت عليهم الصنعة العسكرية، وساعد على ذلك وجود كثير من القبائل السلجوقية في المدن الرئيسية في إيران والعراق، وقد أدت قوة النظام القبلي إلى إثارة الفتن والقلاقل في كثير من مراحل تاريخ السلاجقة، فقد كانت القبائل تشعل نيران الفتن إذا حرم السلاطين أفرادها من المرتبات التي يؤدونها لهم، فتزيد الحالة في الدولة سوءًا واضطرابًا.

غير أن بداوة السلاجقة جعلتهم يشغفون بالمباني الفخمة والنقوش الجميلة واللوحات المزخرفة، فقد كانت مثل هذه الأشياء تبهر أنظارهم، وترضي أذواقهم وتسد ما في أنفسهم من فراغ، وقد أثر هذا في الفنون فراجت رواجًا ملحوظًا في عصرهم، فارتفعت فنون النقش والتصوير والصنعة والمعمار، فكان السلاجقة عامة يعشقون الفنون الجميلة ويرعونها، وكان سلاطينهم يحمون الفنون، ويشجعون رجالها.

كما أثرت بداوة السلاجقة في تعصبهم الشديد للإسلام بعد اعتناقهم له،

وميلهم المفرط إلى أهل السنة والجماعة بعد اتبعاهم المذهب السني، مما أثر في تصرفات السلاجقة فجعلهم يظهرون الولاء للخليفة العباسي في بغداد، ويحترمون أئمة الدين احترامًا شديدًا، ويميلون إلى المتصوفة ويجلون شيوخهم، فانتشر التصوف في عصرهم، وظفرت طوائف الصوفية باحترام الناس والحكام، فارتفع شأن رجالها، وعظم تأثيرهم في حياة الناس.

وهكذا أثرت غلبة العنصر السلجوقي وبداوة السلاجقة وغلبة النظام القبلي عليهم في كثير من مظاهر الحياة، وفي مختلف نواحي الحضارة في دولتهم، وشكلت حاضرهم ومستقبلهم، وخلَّفت آثارًا واضحة في حياة الناس في إيران والعراق وعصرهم.

فلهذا حرصتُ كل الحرص على وضع مصنف أو كتاب عن دولة السلاجقة منذ ٢٠ عامًا، وللأسف قمتُ بإدخال بعض التطورات والأحداث عليه لظهور عدد من المصنفات والمصادر والمراجع والمخطوطات، وأسال الله العون والمغفرة.

مقدمه

الدكتور يحيى بن حمزة الوزنه

مكة - المملكة العربية السعودية

١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

الفصل الأول

تأسيس وقيام مدينة مرو

قامت وأسست مدينة مرو مثلها مثل المدن الإسلامية الأخرى على مر العصور الإسلامية كالبصرة والكوفة وسرمن راي وغيرها بروايات وقصص لا ينكر احتمال حدوثها، والمصادر القديمة التاريخية والجغرافية مليئة بالعديد والعديد من الأقاويل والروايات والأحداث، بعضها تحمل الصدق، والآخر بعيد كل البعد عن الحقيقة والعقل.

فمنها أن الإسكندر الأكبر المقدوني[١] هو مؤسس هذه المدينة بعد أن تم له

---

(١) هو إسكندر بن فيليفوس المقدوني، الذي أجمع ملوك الأرض طرًّا على طاعته، ملك بعد أبيه فيليفوس، واستولى على بلاد الروم، وفتح نحو خمسين مملكة ووضع أساس سبعين مدينة وسمي بذي القرنين؛ لبلوغه قرني الشمس وهما المشرق والمغرب، وقيل: سمي بذلك لذؤابتين كانتا في رأسه، والأرجح أنه سمي بهذا الاسم لعظم سطوته واتساع ملكه وقتل خمسة وثلاثين ملكًا، ومن المدن التي بناها الإسكندرية، وذلك عند قدومه إلى مصر سنة ٣٣١قبل الميلاد، وفي سنة ٣٣٣ ق م وصل إلى بلاد العجم وتغلب على ملكها دارا، وزحف على الهند عن طريق هراة، وظفر بملكوها وملوك الصين، ثم عاد من الهند إلى العراق فمات في طريقه بشهرزور بعلة الخوانيق، وقيل: مات مسمومًا، هذا منقول عن روايات أشهر مؤرخي العرب الذين أطنبوا به كثيرًا، وبالغوا في الإخبار عنه، أما سبب موته على رواية مؤرخي العرب فهو من حمَّى أصابته في مدينة بابل سنة ٣٢٤ ق م؛ لأنه كان يلاحظ الآجام المجاورة، ويكثر من السُّكر، ويفرط في المآكل والملذات، فكانت مدة ملكه اثنتي عشرة سنة وثمانية شهور، ولم يعين له خلفًا، ولكنه قبل وفاته دفع خاتمه إلى برديكاس أحد أمراء جنده، وكانت آخر عبارة لفظها قوله لسائل من قواده: متى نعدك ممن يُبجل ويُعظم؟ لا أستحق هذا الاحترام إلا إذا أسعدتم بعدي وانتظم شملكم أحسن انتظام، وكان عمره يوم وفاته ٣٢ سنة وثمانية شهور على الأصح، وأوصى قبل مماته بأن تنقل جثته إلى هيكل المشترى=

إحراز وتحقيق الانتصارات الساحقة على الملك دارا الثالث[١] الفارسي في معركة أبسوس[٢] والتي أضعفت نفوذ الفرس ومملكتهم في العالم القديم.

ومن المعروف أن معظم أراضي هذه البقعة دائمًا[٣] تُغطى بالمياه الكثيرة؛ فلهذا أمر الإسكندر الأكبر بسحب وردم وجف المياه بكل الطرق والأساليب، ثم أعطى الأمر ببناء هذه المدينة وتعميرها وجذب عدد من الناس من مختلف الأجناس والطوائف للإقامة فيها، وبناء عدد لا بأس به من القرى والحصون والرسانيق[٤]، وعين نائبًا أو حاكمًا له لإدارة هذه المدينة مع تدعيمه بعدد من خواصه[٥] وأتباعه وحراسه وقواته حتى تسير فيها الحياة

= بواحات سيوه؛ لتدفن هناك بين الأصنام، قال ابن الأثير: دفن في تابوت من ذهب مرصع بالجوهر، وطُلي بالصبر؛ لئلا يتغير وحُمل إلى أمه بالإسكندرية، وقال أبو الفرج: وُضع في تابوت ذهب وحمل على أكتاف الملوك والأشراف إلى إسكندرية القبط ودُفِن فيها.
وتقاسم المملكة بعده بطليموس الذي ملك على مصر وجزيرة العرب وبلاد السودان، وأنطيفوس الذي ملك على بلاد الروم، وسلوفس ونيكانور الذي تولى على بابل والجزيرة والشام وأرمينية.
انظر: الثعالبي: الإعجاز والإيجاز، تحقيق وتعليق الدكتور/ محمد زينهم محمد عزب الدار الثقافية، القاهرة ٢٠٠٥م.

(١) هو دارا الأصغر بن دارا الأكبر بهمن، سماه أبوه باسمه لإعجابه به، بأرض الجزيرة بالقرب من نصيبين مدينة دارا الشهيرة، واستوزر أناساً أفسدوا قلبه فساءت سيرته وتغلب عليه الإسكندر ذو القرنين، فقُتل في المعركة التي اقتتل فيها مع الإسكندر، فقيل: قتله جنوده، وقيل: غير ذلك سنة ٣٣٣ ق م، وكانت مدة ملكه ٢٤ سنة.

(٢) ورد هذا في القاموس الجغرافي ١/ ١٠٠.

(٣) الأصفهاني: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ٢٣، مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ.

(٤) الثعالبي: غرو ملوك فارس وسيرهم، ص٤١٥، زونتبرح، باريس، ١٩٠٠م.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ص٢٣، تحقيق/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.

والروح، ويصبح شأنها شأن بغداد والبصرة والكوفة... إلخ، ثم تعرضت هذه المدينة للتدمير الشامل، والمصادر والمراجع تغفل أسباب وعوامل تدميرها.

ثم تم بناؤها مرة ثانية على يد القائد الروماني أنتيكوس[١] الأول سنة ٢٦١ ق.م الذي كفل وقته وجهده وأعطاها كل العناية والتركيز في جعلها من أجمل وأرقى المدن الرومانية.

ومع الفتح الإسلامي لبلاد ما وراء النهر على يد قتيبة بن مسلم[٢]، ومحمد ابن القاسم[٣]، اشتهرت مدينة مرو بشهرة فائقة بحكم أنها عاصمة مدينة

---

(١) ENCYCLOPEDIA OF ISLAM,VOL ,VL LEIDEN 1991, P 619.

(٢) هو قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي أبو حفص أمير فاتح، من مفاخر العرب، كان أبوه كبير القدر عند يزيد بن معاوية، ونشأ هو في الدولة المروانية فولي الريَّ في أيام عبد الملك بن مروان وخراسان في أيام ابنه الوليد، ووثب لغزو ما وراء النهر، فتوغل فيها، وافتتح كثيرًا من المدائن كخوارزم وسجستان وسمرقند، وغزا أطراف الصين وضرب عليها الجزية وأذعنت له بلاد ما وراء النهر كلها، واشتهرت فتوحاته فاستمرت ولايته ثلاث عشرة سنة، وهو عظيم المكانة مرهوب الجانب، ومات الوليد واستخلف سليمان بن عبد الملك، وكان هذا يكره قتيبة فأراد قتيبة الاستقلال بما في يده، فجاهر بنزع الطاعة واختلف عليه قادة جيشه فقتله وكيع بن حسان التميمي بفرغانة، وكان مع بطولته دمث الأخلاق، داهية طويل الروية، راوية للشعر عالمًا به، قال أحد الأعاجم بعد مقتله: يا معشر العرب قتلتم قتيبة، ووالله لو كان فينا لجعلناه في تابوت واستفتحنا به غزونا، وقال المرزباني: وأهل البصرة يفخرون به وبولده وأخباره كثيرة.
انظر المزيد في: وفيات الأعيان ١/ ٤٢٨، الكامل في التاريخ ٥/ ٤، تاريخ الطبري ٨/ ١٠٣، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥٩، ٦٦، ثمار القلوب ١٧٣، خزانة البغدادي ٣/ ٦٥٧، المرزباني ٣٣١، الكامل في اللغة ١/ ١٩٣، رغبة الآمل ٣/ ٦ ثم ٦/ ١١٨.

(٣) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي، فاتح السند ووالليها من كبار القادة ومن رجال الدهر في العصر المرواني، ويعنيه حمزة بن بيض الحنفي بقوله: قاد الجيوش لسبع عشرة حجة، كان أبوه والي البصرة للحجاج، وولى الحجاج محمدًا ثغر السند في أيام =

خراسان[١] حيث كانت مركزًا للولاة والحكام أثناء العصر الأموي وبداية العصر العباسي وبالتحديد في عصر المأمون[٢].

= الوليد بن عبد الملك، وكان ببلاد فارس على رأس جيش في طريقه إلى الري فأقام في شيراز وأرسل إليه الحجاج ستة آلاف من جند أهل الشام وخلقًا من غيرهم، فزحف إلى مكران وفتح قنزبور وأرمائيل والدبيل، واستسلم أهل البيرون وما بعدها إلى أن بلغ مهران فعبره، وقاتله داهر «ملك السند»، فقتل داهرًا «ملك السند»، وانبسطت يده في البلاد فتحًا وتنظيمًا إلى أن كان في «الملقان» وجاءته الأنباء بوفاة الحجاج، ثم الوليد بن عبد الملك وولاية سليمان ابن عبد الملك، وكان سليمان شديد النقمة على الحجاج وعماله، فلما ولي بعد موت الحجاج عمد إلى أقربائه وكتابه وعماله فنكبهم وعزل محمد بن القاسم، وأمر بحمله من السند مقيدًا، فحُمِل إلى واسط وعُذِّب بها، فقال شعرًا يعاتب بني مروان، فأمر سليمان بإطلاقه فأطلق ثم قتله معاوية بن يزيد ابن المهلب، وقال ابن حزم: قتل نفسه في عذاب يزيد بن المهلب، وكان مولده سنة ٦٢هـ/ ٦٨١م، ومات سنة ٩٨هـ/ ٧١٧م.

انظر المزيد في: فتوح البلدان ٤٤١-٤٤٦، جمهرة أنساب العرب ٢٥٦، المرزباني ٤١٢.

(١) بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق أزاذوار قصبة جوين وبيهق، وآخر حدودها مما يلي الهند وطخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، وليس ذلك منها إنما هو أطراف حدودها، وتشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو وهي كانت قصبتها، وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس وما يتخلل ذلك من المدن التى دون نهر جيحون.

انظر المزيد في: معجم البلدان ٢/ ٣٥٠-٣٥٤، دار صادر، بيروت بدون تاريخ.

(٢) هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، أبو العباس سابع الخلفاء من بني العباس في العراق وأحد أعاظم الملوك في سيرته وعلمه وسعة ملكه، نفذ أمره من إفريقية إلى أقصى خراسان وما وراء النهر والسند وعرفه المؤرخ ابن دحية بالإمام «العالم المحدث النحوي اللغوي» ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة ١٩٨ هـ، فتمم ما بدأ به جده المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة وأتحف ملوك الروم بالهدايا سائلاً أن يصلوه بما لديهم من كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه بعدد كبير من كتب أفلاطون وأرسطاطاليس وأبقراط وجالينوس وإقليدس وبطليموس وغيرهم، فاختار لها مهرة =

ثم تدريجيًّا قلَّت أهمية وقيمة مدينة مرو عندما تقلد عبد الله بن طاهر[١] ولاية خراسان فنقلت العاصمة نيسابور.

= التراجمة فترجمت وحض الناس على قراءتها فقامت دولة الحكمة في أيامه وقرب العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والأنساب وأطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الجدل والفلاسفة لولا المحنة بخلق القرآن في السنة الأخيرة من حياته، وكان فصيحًا مفوهًا واسع العلم محبًّا للعفو، ولد سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦م، ومات سنة ٢١٨ هـ/ ٨٣٣ م.

انظر المزيد في: تاريخ بغداد١٠/ ١٨٣، مروج الذهب ٢/ ٢٤٧ -٢٦٩، النبراس ٤٦-٦٣، الكامل ٦/ ١٤٤، تاريخ الطبري ١٠/ ٢٩٣، تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٧٢، تاريخ الخميس ٢/ ٣٣٤، البدء والتاريخ ٦/ ١١٢.

(١) هو عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق الخزاعي بالولاء أبو العباس أمير خراسان، ومن أشهر الولاة في العصر العباسي، أصله من «باذغيس» بخراسان، وكان جده الأعلى «زريق» من موالي طلحة بن عبد الله المعروف بطلحة الطلحات، وولي عبد الله بن طاهر إمرة الشام مدة ونقل إلى مصر سنة ٢١١ هـ فأقام سنة، ونقل إلى الدينور، ثم ولاه المأمون خراسان وظهرت كفاءته فكانت له طبرستان وكرمان وخراسان والري والسواد وما يتصل بتلك الأطراف، واستمر إلى أن توفي بنيسابور وقيل بمرو، وللمؤرخين إعجاب بأعماله وثناء عليه، قال ابن الأثير: كان عبد الله من أكثر الناس بذلًا للمال مع علم ومعرفة وتجربة، وللشعراء فيه مراثٍ كثيرة، وقال ابن خلكان: كان عبد الله سيدًا نبيلًا عالي الهمة شهمًا، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه.

وقال الذهبي في دول الإسلام: كان عبد الله من كبار الملوك، وقال الشابشتي: كان المأمون تبناه ورباه، وكان مولده ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م، ومات ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤م.

انظر المزيد في: المحبر ٣٧٦، الكامل في التاريخ ٧/ ٥، تاريخ الطبري ١١/ ١٣، وفيات الأعيان ١/ ٢٦٠، تاريخ بغداد ٩/ ٤٨٣، الولاة والقضاة ١٨٠، الديارات ٨٦-٩١، هبة الأيام للبديعي ١٢٦-١٣٩، التاج ٨/ ٢.

ثم علا صيت مدينة مرو مرة أخرى في عهد السلاجقة[١] وارتفع علو شأنها وبالتحديد والأخص في عهد السلطان سنجر[٢] الذي جعلها عاصمة لدولته ومملكته.

وإذا نظرنا لموقع[٣] مدينة مرو الآن فهي تعرف بجمهورية تركمانستان التي كانت جزءًا بسيطًا من أجزاء الاتحاد السوفيتي[٤] «سابقًا» من ناحية الجنوب إيران، ومن الجنوب الشرقي أفغانستان، ومن الشمال قازاخستان ومن الشمال الشرقي أوزبكستان، ومن الغرب بحر قزوين وعاصمتها أشخاباد وتسمى أيضًا عشق أباد[٥]، وقد قام الاتحاد السوفيتي بالاستيلاء بالقوة على مدينة مرو، ثم أجبر إيران على عقد اتفاقية بالتنازل عنها للاتحاد السوفيتي عام ١٣٠٠ هـ/ ١٨٨٢م[٦].

ومن المعروف أن مدينة مرو كانت تقع على نهر المرغاب[٧]، الذي يقع في

---

(١) لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٥ ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مطبعة بغداد ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م، رينيه غروسيه: جنكيزخان: ٨و٣.
ترجمة خالد أسعد عيسى، دمشق ١٩٨٢م، عطا ملك الجويني: تاريخ جهانكشاي ١/ ١٥١، ترجمة محمد التنوخي، دمشق ١٩٨١م.

(٢) لسترانج: المرجع السابق ٤٤٥.

(٣) لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٥، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد- بغداد، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

(٤) عطا ملك الجويني: تاريخ جهانكشاي ١/ ١٥١-١٥٢. ترجمة محمد التنوخي. دمشق ١٩٨١م.

(٥) رينيه غروسيه: جنكيزخان ٣٠٨، ترجمة خالد أسعد عيسى دمشق، ١٩٨٢م.

(٦) GNOLIFY INTERNATIONAL ENCYCLOPEDIA VOL.13U .S.A 1998. P.313

(٧) الحميري: الروض ١٠٠، وخراسان تعني بلاد الشمس المشرقة، وهي كلمة مركبة من «خر» بمعنى الشمس، و«أسان» بمعنى مشرقة. =

شمال خراسان ويعرف بإحدى أرباع خراسان «العظمى»[١]، كذلك يحدها من الشرق نهر جيحون[٢]، ومن الغرب أول جزء من سرخس[٣]، ومن الجنوب مرو الروذ[٤]، ومن الشمال خوارزم[٥].

وخوارزم أرض سهلة بعيدة عن الجبال، ليس في حدودها جبال[٦] وتلال فهي تعتبر كالواحة المنفردة في الصحراء حيث تغطي الرمال والكثبان كل أراضيها[٧]، ومناخها صحراوي قاري نادر المطر[٨].

وإذا نظرنا وفحصنا نهر المرغاب نجد أنه يخرج منه أربعة أنهار تشق إلى أرباض ومحلات المدينة في شتى أجزائها[٩].

= انظر المزيد في: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان القسم الأول ٦٧، دار الشرق، القاهرة ١٩٨٥م.

(١) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ٢١٤، تحقيق/ إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٠م.

(٢) ابن حوقل: المسالك والممالك ٣٢٨-٣٢٩، طبعة ليدن، مطبعة يربل ١٨٧٢م.

(٣) ورد في معجم البلدان لياقوت الحموي.

(٤) ورد في معجم البلدان لياقوت الحموي.

(٥) ورد في معجم البلدان لياقوت الحموي.

(٦) هي إقليم عظيم على حافتي نهر جيحون يحيط به من الجنوب خراسان ومن الشمال بلاد الترك ومن الشرق بلاد ما وراء النهر ومن الغرب بعض بلاد الترك ومدينتها العظمى الجرجانية.

انظر: المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٢٨٤-٢٨٧، لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٨٩-٤٩٠.

(٧) ابن حوقل: المسالك والممالك ٣١٤، موريس لومبارد: الجغرافيا التاريخية ٥٥ ترجمة/ عبد الرحمن حميدة، دار الفكر، دمشق ١٩٩٨م.

(٨) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ٤٧٦، اليعقوبي: البلدان ٢٩٧.

(٩) ورد في ياقوت الحموي، الأصطخري: المسالك والممالك ١٤٧-١٤٨.

فمنها نهر الرزيق الذي يقع في الشمال الشرقي[١] ونهر أسعدي الذي يقع في الجنوب الشرقي، ونهر هرمزفرة الذي يقع في الجنوب الغربي مما يلي مدينة سرخس[٢]، ونهر الماجان الذي يقع في الشمال الغربي، ويعتبر العمود الفقري لنهر المرغاب حيث قال المقدسي[٣] في كتابه أحسن التقاسيم[٤] بأنه: «هو الذي يشق البلد ويتخلل الأسواق ثم يخرج إلى رأس البلد»، وهذه هي أنهار مدينة مرو التي قامت عليها المدينة ومبانيها.

ولمدينة مرو عدة أسماء مختلفة، وقد تنوعت المصادر والمراجع بالحديث عن هذا؛ منها مرو الشاهجان أو مرو الكبري تمييزًا لها عن مرو الروذ أو ما تعرف بمرو الصغرى[٥]، كذلك أطلق عليها مرو العظمى[٦]، ومرو السفلى؛ لأنها تقع أسفل النهر الرئيسي المرغاب[٧].

وإذا فسرنا مرو في اللغة العربية معنى: الحجارة البيض التي يضرم فيها النار، أما في اللغة الفارسية بمعنى «المرج»[٨].

أما كلمة شاهجان باللغة الفارسية «نفس السلطان»[٩]؛ لأن كلمة الشاه

---

(١) ورد في معجم البلدان، لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٣.

(٢) ورد في معجم البلدان، الأصطخري: المسالك والممالك ١٤٨.

(٣) ورد في أحسن التقاسيم ١٧٣، لسترانج: المرجع السابق ٤٤٠.

(٤) ورد في أحسن التقاسيم ١٧٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٦٩.

(٥) ورد في كتاب أحسن التقاسيم.

(٦) ورد في معجم البلدان.

(٧) ورد في معجم البلدان.

(٨) معجم البلدان.

(٩) أحسن التقاسيم ١٧٥.

هو «السلطان»، وكلمة الجان هي «النفس»[١]، وهذا لجلالتها عند الفرس[٢]، كذلك لدور هذه المدينة التي لعبته كمقر لممثلي المملكة الفارسية[٣]، إلا أن بعض المؤرخين أخذوا التفسير الغربي للشاهجان «لشاهكان» الفارسية القديمة ومعناها: السلطاني أو ما يخص السلطان[٤].

أيضًا هناك أسماء أخرى لمدينة مرو، فقد قال عنها ياقوت الحموي[٥] باسم مرغليوس[٦]، وقال الدينوري[٧] في كتابه الأخبار الطوال اسمًا هو مرخاتوس، أو ميلانوس[٨].

بينما قال الطبري[٩] باسم خداه دشمن[١٠]، وأيضًا هناك البعض ذكروها باسم أنطاكية مرجيانا[١١]، ودندفستا[١٢].

أما جغرافيو اليونان باسم مرغياني[١٣]، وقيل: إن دارا الأول في نقش له

---

(١) ورد في نزهة المشتاق ١٠٠-١٠١.
(٢)ورد في أحسن التقاسيم ٢٧٤.
(٣) ورد في أحسن التقاسيم ٢٠٠.
(٤) ورد في معجم البلدان.
(٥) ياقوت الحموي: المشترك وضعًا والمفترق صقعًا ٢٣، مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمذاني ٢٣٣، القاهرة ١٩٥٩م.
(٦) الدينوري: الأخبار الطوال ٣٧.
(٧) الدينوري: المصدر السابق ذكره ٣٧.
(٨) لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٠.
(٩) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٩٣.
(١٠) الطبري: المصدر السابق ذكره ٤/ ٢٩٣.
(١١) موريس لومبارد: الجغرافية التاريخية ٥٥، ترجمة عبد الرحمن حميدة.
(١٢) THE HOME UNIVERSITY ENCYCLOPEDIA VOL.XI P 3203
(١٣) وهو اسم مركب من مرو ومرغاب.
انظر المزيد في: النرشخي: تاريخ بخارى ٥٥، ترجمة آمين عبد المجيد بدوي، ونصر الله مبشر الطرازي، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٤م.

على أنها مركوش، وسماها «مر» لكن معظم الجغرافيين سموها مركيانا[١].

أما سكان المناطق الشرقية لمدينة خراسان يطلقون عليها اسم نور، وسكانها موري[٢]، وصاحب كتاب سفرنامه قال: إن مدينة مرو ارتبط بها الاسم الشائن خداه كشان، أي: «خونة الملوك»[٣].

والثابت تاريخيًّا أن معظم المؤرخين يعتبرون مدينة مرو أهم مدن خراسان ويطلقون عليها أم القرى[٤]، والبعض يذكرونها بأم خراسان[٥]، والبعض الآخر يذكرونها بأنطاكية[٦] خراسان، والقلة يصفونها بأنها بيضة[٧] خراسان الذهبية، أما المقدسي أطلق عليها رملة فلسطين[٨].

وإذا نظرنا إلى مرو فهي تنقسم إلى ثلاثة أشياء هي: المدينة والقهندز والربض:

---

(١) دهخدا: لغت نامه ٢٢٢، طبعة طهران ١٣٣١هـ.

(٢) دهخدا: المرجع السابق ذكره ٢٢٢.

(٣) الفردوسي: الشاهنامه ٢٧٢، خداه كشان، قاتلو المولى، وسميت بذلك لأن يزدجر آخر ملوك الساسانيين قد قتل على يد مرزبان مرو.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٣٩٥، قال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿لتنذر أم القرى ومن حولها﴾ [سورة الأنعام الآية ٩٢]، أن أم القرى هي بالحجاز مكة، وبخراسان مرو، الهمذاني: مختصر البلدان ٣١٩.

(٥) اليعقوبي: البلدان ٢٩٧.

(٦) إيرين فرانك وديفيد براونستون: طريق الحرير ٤٠، ترجمة أحمد محمود، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٧.

(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٧/ ٩٦.

(٨) المقدسي: المصدر السابق ذكره ٣١٢.

١- المدينة

المدينة القديمة تعرف باللغة الفارسية «شهرستان»[١]، وكانت أربعة من الأبواب، إحداها يعرف بباب المدينة، ويقع في الجنوب الغربي وهو بجوار المسجد الجامع، وينتهي إلى طريق سرخس[٢].

وباب سنجان ويقع في الجنوب الشرقي، ويصل إلى ربض بني ماهان ونهر أسعدي، وباب درمسكان يقع في الشمال الشرقي، ومنه يخرج إلى ما وراء النهر.

والباب الرابع يطلق عليه باب بالين، ويقع في الشمال الغربي[٣]، إلى جانب هذه الأبواب فقد وضع لنا المؤرخ الطبري في كتابه تاريخ الرسل والملوك أبوابًا أخرى نذكر منها بالتحديد باب حرب بن عامر وباب ماسرجسان وباب ميخان وباب ركك[٤] وباب نيق[٥] باب نصر بماجان.

أيضًا يوجد لمدينة مرو سوران[٦]؛ أولها: داخلي يحيط بالمدينة من الداخل وأنهارها الأربعة، وثانيها: خارجي يسمى بالراي يحيط بالمدينة ورساتيقها الخارجية[٧].

---

(١) النرشخي: تاريخ بخارى ٩، بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٥، ترجمة حمزة طاهر ٦٥، دار المعارف، قحطان الحديثي: أسواق المدن الخراسانية ١٠٧، مجلة المؤرخ العربي العدد ٣٠، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦م.

(٢) الأصطخري: المسالك والممالك ١٤٨، ابن حوقل: المسالك والممالك ٣١٤.

(٣) لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤١.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٧/ ٣٣٢-٣٣٣.

(٥) الطبري: المصدر السابق ٧/ ٣٣٣.

(٦). sir jon glubb Ashart history of the arhb peaples, p.94new york

(٧) ابن حوقل: صورة الأرض ٣٦٤، قحطان الحديثي: مدن خراسان ٢٨٣، مجلة كليةالآداب جامعة البصرة، العراق، العدد ١٠ السنة التاسعة ١٩٧٦م.

ومن هنا نجد أن المدينة كانت محصنة تحصينًا جيدًا بأسوارها الضخمة بحيث لا يمكن لأحد دخولها إلا عن طريق الأبواب؛ وهذا لحماية المدينة من الأعداء وغارات الرعاة.

٢- القهندز

القهندز: هو القلعة القديمة أو الحصن، وكل مدن خراسان تمتلك من قهندز[١]، وقهندز مدينة مرو يقع في الوسط، وهو في نفس الحجم كالمدينة، وهو مرتفع يساق إليه قناة ماء جار[٢].

والذي قام ببناء القهندز الملك طهمورث، وكان يستخدم كسجن لاحتجاز المعارضين للسلطة والطامعين في الحكم، ثم خرب القهندز في الفترة الأخيرة من عهد السامانيين، خاصة عندما نشب الصراع بين القادة العسكريين على السلطة مما تعرضت المدينة للنهب والسلب، وكذلك دمرت القلعة نهائيًا[٣].

ومع استيلاء السلاجقة على السلطة اتسعت وعظمت مكانة مرو، فقد اهتموا ببناء التحصينات والقلاع[٤]، كما برعوا وأتقنوا فنون العمارة الحربية، وخير دليل على ذلك الباب المدرج وباب الخاص بالحمام الزاجل[٥]، وكذلك الباب من نوع الباشورة ذو الانعطافات التي تمثل العوائق والصعوبات لتقدم

---

(١) أبو الفداء: تقويم البلدان ٤٤٤، الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ٢/ ٢٧٣، النرشخي: تاريخ بخارى ٩.

(٢) ابن خردذابة: المسالك والممالك ٢٥، الهمداني: مختصر كتاب البلدان ٣١٩.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ٣٦٤، الأصطخري: المسالك والممالك ٢٥٩.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥/ ١١٣.

(٥) د/ سعد زغلول عبد الحميد: العمارة والفنون في دولة الإسلام ٤١٩، الإسكندرية ١٩٩٨م.

المهاجمين والغزاة، أيضًا لا ننكر قلعة مرو التي بنيت من الطوب الأجر وخربت ولم يبقَ منها إلا خربة قديمة[١].

٣- الربض

الربض يقع حول المدينة من الخارج[٢] ويحتوي على سور الشهرستان ويبين سور المدينة الخارجي[٣].

وتنتشر[٤] أرباض مرو على جوانب الأنهار بمساحات واسعة، والربض يلعب دورًا هامًا في شتى نواحي الحياة، وخاصة مع القرن الثاني الهجري، فأصبح لها أسواق[٥] مليئة بالمنتجات الزراعية والصناعية مما تدفق السكان عليها للإقامة والتجارة وحدوث رخاء لأهلها، وأصبحوا أصحاب سلطة ونفوذ وقوة وعلا صيت أسواق الربض بين مدن خراسان[٦].

ومع بداية مطلع العصر العباسي الثاني تغيرت أحوال الشهرستان، وانتقلت النهضة إلى مناطق وأحياء أخرى، وقد لعب العرب دورًا كبيرًا في هذا؛ لما يتمتعون به من الفطنة والذكاء والقدرة، وحسن السياسة وفن الإدارة[٧] في إقامة المدن وتقسيمها، كما في بغداد والكوفة والبصرة ودمشق؛

---

(١) قدرت الله روشني: سه سفرنامه هرات، مرو مشهد انتشارات دانشكا تمران ٩٤، طهران ١٣٤٧هـ.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٧٥٠.

(٣) النرشخي: تاريخ بخارى ٩.

(٤) لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤١.

(٥) قحطان الحديثي: أسواق المدن الخراسانية ١١١.

(٦) بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م.

(٧) د/ سعد زغلول عبد الحميد: العمارة والفنون في دولة الإسلام ٤١٩، الإسكندرية، ١٩٦٧م.

حيث حافظ العربُ منذ عقودٍ قديمةٍ على أساليب العشيرة والقبيلة، ثم تغيروا نتيجة لدخولهم المدينة، والثابت أن العلاقة بين رجال القبيلة الواحدة[١] أقوى وأمتن من العلاقة بين سكان المدينة؛ ولهذا أصبح لكل قبيلة حيٌّ خاصٌّ بها، ولهذا نجد وجود أبوابٍ منفصلة بين الأحياء[٢]؛ فلهذا حدثت تغيرات في وجه الحياة، وانتشرت بين الأحياء والربض؛ فنبغ عدد كبير من التجار والصنَّاع وأصحاب الحرف النادرة.

ومن يتجول في مدينة مرو يجد عددًا من العمائر والمنشآت ذات الطابع الجميل.

١- المسجد الرئيسي

وهو ما نطلق عليه المسجد الجامع؛ حيث يحتل المكانة الأولى بين العمائر الإسلامية، وهو أول المنشآت في المدينة؛ حيث يسيطر عليها من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وحوله تنتشر المباني الأخرى، أيضًا يعتبر مكانًا ومركز الإدارة والحكم، وإبداء الرأي والفتاوى، وإصدار الأحكام، وكذلك مكان القضاة، والمحدثين، والمفسرين، والمفتين، وما يمس الدولة والدين[٣].

فالمسجد في القواميس[٤] العربية هو المكان أو الموضع الذي يُسجد فيه، وقد اشتق اسم المسجد من السجود، وهو أفضل وأعلى أفعال الصلاة، وهي الصلة بين العبد وربه.

---

(١) قحطان الحديثي: أسواق المدن الخراسانية ١٠٨.

(٢) بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢.

(٣) د/ حسن الباشا: الآثار الإسلامية ١٠٨، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٠م.

(٤) انظر: لسان العرب لابن منظور، طبعة دار المعارف، ١٩٧٢م مادة «سجد».

كان بناء المسجد في بداية الحال كأي مسجد بسيط[١] يتكون من فناء أو صحن مكشوف على شكل مربَّع أو مستطيل يحيطه من كل النواحي أربعة أروقة، كان أكبرها[٢] رواق القِبْلة، وغالبًا تركز الأروقة على أعمدة أو دعائم قد ترتفع عن العقود[٣].

والثابت تاريخيًّا أن أول مسجد عُملت فيه شعائر صلاة الجمعة في مدينة مرو، وهو مسجد بني ماهان، ويقع بالقرب من القلعة أي: وسط المدينة، ولما تدفق المسلمون على مدينة مرو، وكثر عدد المسلمين من أهل مرو، وأصبح حجم هذا الجامع صغيرًا؛ أمر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز[٤] ببناء

---

(١) توفيق أحمد عبد الجواد: تاريخ العمارة في العصور المتوسطة الأوربية والإسلامية، القاهرة ١٩٧٤، ج١/ ٢٤٩.

(٢) حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ١١، دار الكتب، القاهرة ١٩٤٦م.

(٣) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية ١٠٨، مجلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٢٨/ ١٩٨٨م.

(٤) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين، تشبيهًا له بهم، وهو من ملوك الدولة المروانية في الشام، وُلد سنة ٦١ هـ/ ٦٨١م، ونشأ بالمدينة وولي إمارتها بأمر الوليد ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام، وولي الخلافة بعهد من سليمان سنة ٩٩ هـ فبويع في مسجد دمشق، وسكن الناس في أيامه، فمنع سب علي بن أبي طالب، وكان من تقدمه من الأمويين يسبونه على المنابر، ولم تطل مدته، قيل: دُس له السم وهو بدير سمعان من أرض المعرة، فتوفي به سنة ١٠١ هـ/ ٧٢٠م، ومدة خلافته سنتان ونصف، وأخباره في عدله وحسن سياسته كثيرة، وكان يُدعى «أشج بني أمية» رمحته دابة وهو غلام فشجته، وقيل في صفته «كان نحيف الجسم غائر العينين، بجبهته أثر الشجة وخطه الشيب، أبيض، رقيق الوجه مليحًا».

انظر المزيد في: فوات الوفيات ٢/ ١٠٥، تهذيب التهذيب ٧/ ٤٧٥، المحبر ٢٧، حلية الأولياء ٥/ ٢٥٣-٣٥٣، الكامل في التاريخ ٥/ ٢٢، تاريخ اليعقوبي ٣/ ٤٤، صفة الصفوة ٢/ ٦٣، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٧٦، تاريخ الخميس ٢/ ٣١٥، تاريخ الطبري ٨/ ١٣٧، الأغاني ٩/ ٢٥٤، مروج الذهب ٢/ ١٣١-١٣٧.

مسجد آخر أطلق عليه بعد ذلك المسجد العتيق[١]، وهو على باب المدينة، وقد احتشد به رجال التفسير، والحديث، والفقه، والتوحيد[٢].

ثم تمَّ بناء مسجد آخر[٣] بالقرب من نهر الماجان في الربض بأمر من القائد العباسي أبي مسلم الخراساني[٤].

---

(١) ابن حوقل: المسالك والممالك ٣١٤.

(٢) أرنست كونل: الفن الإسلامي ٣٤، ترجمة أحمد عيسى، دار صادر، بيروت ١٩٦٦م.

(٣) الأصطخري: المسالك والممالك ١٤٨، القاهرة- ١٩٦٣م.

(٤) هو عبد الرحمن بن مسلم، مؤسس الدولة العباسية وأحد كبار القادة، ولد في ماه البصرة سنة ١٠٠هـ/ ٧١٨م، «مما يلي أصبهان» عند عيسى ومعقل ابني إدريس العجلي، فربياه إلى أن شب، فاتصل بإبراهيم بن الإمام محمد «من بني العباس» فأرسله إبراهيم إلى خراسان داعيةً؛ فأقام فيها واستمال أهلها، ووثب على ابن الكرماني والي نيسابور فقتله واستولى على نيسابور، وسلم عليه بإمرتها، فخطب باسم السفاح العباسي عبد الله بن محمد، ثم سيَّر جيشًا لمقاتلة مروان بن محمد «آخر ملوك بني أمية» فقابله بالزاب بين الموصل وإربل، وانهزمت جنود مروان إلى الشام، وفر مروان إلى مصر فقتله في بوصير وزالت الدولة الأموية الأولى سنة ١٣٢ هـ وصفا الجو للسفاح إلى أن مات وخلفه أخوه المنصور؛ فرأى المنصور من أبي مسلم ما أخافه أن يطمع بالملك، وكانت بينهما ضغينة فقتله برومة المدائن، عاش أبو مسلم سبعًا وثلاثين سنة وبلغ بها منزلة عظماء العالم، حتى قال فيه المأمون: «أجل ملوك الأرض ثلاثة وهم الذين قاموا بنقل الدول وتحويلها: الإسكندر وأزدشير وأبو مسلم الخراساني»، وكان فصيحًا بالعربية والفارسية، ومقدامًا، داهيةً، حازمًا، راويةً للشعر يقوله، قصير القامة، أسمر اللون، رقيق البشرة، حلو المنظر، طويل الظهر، قصير الساق، لم يُرَ ضاحكًا ولا عبوسًا، تأتيه الفتوح فلا تعرف بُشْرةً في وجهه، وينكب فلا يُرى مكتئبًا، خافض الصوت في حديثه، قاسي القلب، سوطه سيفه.

وفي الروض المعطار: كان إذا فرح رفع أربعة آلاف أصواتهم بالتكبير، وكان بين طرفي موكبه أكثر من فرسخ، وكان يُطعم كل يوم مائة شاة.

وفي البدء والتاريخ: كان أقل الناس طمعًا، مات وليس له دار ولا عقار ولا عبد ولا أمة ولا دينار. =

ثم حدث نهضة كبيرة في بناء المساجد في مرو خاصة في عهد السلاجقة[١] فلم يقتصر المسجد على الصحن والأربع أروقة، بل ظهرت لأول مرة إيوانات لتقام عليها المجالس لمناقشة كل ما يخص المسلمين من حديث وتفسير وفقه، كذلك إيوان في وسط القِبْلة، ويشق إلى اتساع وعمق على الصحن، ويتم اختيار مدرس يتصف بحلمه الفايض في أحد المذاهب؛ سواء حنفيًّا أو شافعيًّا أو مالكيًّا أو حنبليًّا، والنقطة الملفتة للنظر هي عمل أربعة إيوانات في الأماكن الأربعة للصحن[٢].

وقد وصف لنا الدكتور حسن[٣] الباشا، فقال: ولتمييز إيوان القِبْلة وإبراز أهميته أقيم المعمار السلجوقي خلفه، وأُعلي مربع المحراب بقبة ضخمة باعتبارها مظهرًا من مظاهر التأكيد على هذه الظلة «الرواق».

ومع هذا التطور والتقدم برز طراز وعمل جديد من المساجد لم يكن مألوفًا في العصر الأموي والعباسي والفاطمي والغزنوي؛ ولكنه برز في العصر السلجوقي بوضوح خاصة في مسجد الصاغة، وكان إمام هذا المسجد الفقية،

= وقال الذهبي: كان شأنه عجيب، شابٌّ دخل خراسان ابن تسع عشرة سنة على حمار بإكاف وحزمة وعرمة، فما زال ينتقل حتى خرج من مرو بعد عشر سنين، يقود كتائب أمثال الجبال، فقلب دولة وأقام دولة وذلت له رقاب الأمم، وراح تحت سيفه ستمائة ألف ويزيدون، مات سنة ١٣٧هـ/ ٧٥٥م.

انظر المزيد في: وفيات الأعيان ١/ ٢٨٠، الكامل ٥/ ١٧٥، تاريخ الطبري ٩/ ١٥٩، البدء والتاريخ ٦/ ٧٨ – ٩٥، ميزان الاعتدال ٢/ ١١٧، لسان الميزان ٣/ ٤٣٦، تاريخ بغداد ١٠/ ٢٠٧، الذريعة ١/ ٣١٨، المعارف ١٨٥.

(١) د/ فريد شافعي: العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ص٧٩، السعودية ١٩٨٢م.

(٢) علي أحمد الطايش: المساجد السلجوقية ببلاد الأناضول ٢٣، ندوة الآثار الإسلامية ١٩٩٨م.

(٣)د/ حسن الباشا: الآثار الإسلامية ١١٠.

والمحدث، والمفسر البنيسي عبد الله بن عبد الصمد بن أحمد البنيسي صاحب المصنفات النافعة، اختُلف في سنة ميلاده هل هي سنة ٤٧٠هـ أو ٤٦٠هـ أو ٤٧٥هـ، ومات سنة ٥٣٣هـ[١] بعد أن تخرج على يده عدد من الفقهاء، والعلماء، والمفسرين[٢].

أما مُصلى العيد:

كان رسول الله ﷺ يؤدي[٣] صلاة العيد في الفضاء والساحات خارج المسجد؛ وهذا أدى إلى نوع آخر من المساجد تُؤدى عليها شعائر صلاة العيد، وتعرف بمُصلى العيد.

ومن المعروف تاريخيًّا أن مُصلى العيد المشهور بمدينة مرو هو في مربعة أبي الجهم[٤] الواقعة بين الماجان وهرمزفرة النهرين في الوسط لمدينة مرو.

ويحد هذا المُصلى من جميع الجهات العمائر والأبنية المزخرفة، وقد ذكر لنا الطبري في كتابه تاريخ الرسل والملوك مثل مصلى أسد[٥] الذي مكث فيها

---

(١) الأصطخري: المسالك والممالك ١٤٨.

(٢) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب ١/ ١٣٠، نشره القدسي بدون تاريخ.

(٣) مغلطاي: مختصر السيرة النبوية ٤٥، تحقيق الدكتور/ محمد زينهم محمد عزب، دار المعارف، القاهرة ٢٠٠٢م.

(٤) هو عامر أو عمير أو عبيد بن حذيفة بن غانم من قريش من بني عدي بن كعب أحد المعمرين، أسلم يوم فتح مكة، واشترك في بناء الكعبة مرتين؛ الأولى في الجاهلية، والثانية حين بناها ابن الزبير سنة ٦٤هـ، ومات في تلك الفتنة نحو سنة ٧٠هـ/ ٦٩٠م، وهو أحد الأربعة الذين دفنوا عثمان رضي الله عنه وله خبر مع معاوية.
انظر المزيد في: نسب قريش ٣٦٩، سمط اللآلي ٥٣٩، الإصابة ٢٠٦.

(٥) هو أسد بن عبد الله القسري البجلي أمير من الأجواد الشجعان، وُلد ونشأ في دمشق وولاه أخوه خالد بن عبد الله خراسان سنة ١٠٨ هـ فأقام فيها زمانًا وجدد بناء بلخ وأنزل بها =

الكرماني[١] أثناء صراعه مع نصر بن سيار[٢]، وكذلك مصلى آل

= جيشه ثم اختارها لإقامته، وكان دهاقنة الفرس راضين عنه وعن حكمه، وأسلم على يديه سامان «جد السامانيين»، وسمى ابنه أسدًا على اسمه، وفي أيامه جاشت الترك بخراسان سنة ١١٧هـ وأغاروا حتي أتوا مرو الروذ، فسار إليهم أسد، فكانت له معهم وقائع انتهت بهزيمتهم، توفي في بلخ ١٢٠هـ/ ٧٣٨م.

انظر المزيد في: الكامل في التاريخ ٥/ ٧٩، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٩٦، تاريخ الطبري ٨/ ٢٤٧.

(١) هو جديع بن علي الأزدي المغَّى، شيخ خراسان وفارسها في عصره، وأحد الدهاة الرؤساء، ولد بكرمان وإليها نسبته وأقام في خراسان على أن وليها نصر بن سيار فخاف شرَّ الكرماني فسجنه فغضبت الأزد، فأقسم لهم نصر أنه لا يناله منه سوء، وفرَّ جديع من السجن فاجتمع معه ثلاثة آلاف، فصالحه نصر فأقام زمنًا يؤلف الجمع سرًّا ثم خرج من جرجان وتغلَّب على مرو؛ فصفت له وظهر أبو مسلم الخراساني فاتفق معه على قتال نصر فكتب نصر إلى جديع يدعوه إلى الصلح فرضي به، وخرج ليكتبا بينهما كتابًا «معاهدة» ومعه مائة فارس فوجه إليه نصر ثلاثمائة فارس قتلوه في الرحبة سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٧م.

انظر المزيد في: الكامل في التاريخ ٥/ ١٣٦، تاريخ الطبري ٥/ ١٣٦.

(٢) هو نصر بن سيار بن رافع بن حَرَيَّ بن ربيعة الكناني، أميرٌ من الدهاة الشجعان، كان شيخ مضر بخراسان ووالي بلخ ثم ولي إمرة خراسان سنة ١٢٠هـ بعد وفاة أسد بن عبد الله القسري ولاه هشام بن عبد الملك، وغزا ما وراء النهر، ففتح حصونا وغنم مغانم كثيرة، وأقام بمرو وقويت الدعوة العباسية في أيامه، فكتب إلى بني مروان بالشام يحذرهم وينذرهم؛ فلم يأبهوا للخطر، فصير يدير الأمور إلى أن أعيته الحيلة، وتغلب أبو مسلم على خراسان فخرج نصر من مرو سنة ١٣٠هـ ورحل إلى نيسابور فسير أبو مسلم إليه قحطبة بن شبيب، فانتقل نصر إلى قومس وكتب إلى ابن هبيرة وهو بواسط يستمده وكتب إلى مروان وهو بالشام وأخذ ينتقل منتظرًا النجدة إلى أن مرض في مفازة بين الري وهمذان ومات بساوة وهو صاحب الأبيات:

أرى خـــلال الرمـــاد وميـــض جمـــر ... ويوشـــك أن يكـــون لـــه ضرام

أرسلها مروان. =

قنبر[١] الذي صلى فيه أبو مسلم وأنصاره في عام ١٢٩هـ/ ٧٤٦م.

نستنتج من هذا العرض أن بمدينة مرو أنواعًا ثلاثة من المساجد؛ فالأول: المسجد الجامع وهو الرئيسي، والثاني: مساجد الخمس، وهي التي تقام بها الصلوات الخمس، والثالث: مساجد أخرى تُؤدى فيها شعائر صلاة العيد، وهي أرض واسعة خاوية تعرف بمُصلى العيد[٢].

أيضًا من معالم المدينة «مرو» دار تعرف بدار الإمارة، وهي قلب العمل والسلطة والإدارة لجميع النشاط، وقد أسست هذه الدار بجانب المسجد[٣] الجامع في أي مدينة من المدن، فكانت دار الإمارة تقع في ظهر المسجد الجامع في ماجان، وإذا نظرنا إليها فهي عبارة عن قبة[٤] وضعها أبو مسلم الخراساني؛ حيث يجلس فيها لمناقشة الأمور التي تمس خراسان ومدنها إلى أن تولى الخلافة المأمون فأمر بترك هذه الدار، وبناء دارٍ أخرى بالقرب من درمسكان، كذلك وضع قصرًا اتخذه مقرًّا له[٥].

= قال الجاحظ في البيان والتبيين: كان نصر من الخطباء الشعراء، يعد في أصحاب الولايات والحروب والتدبير والعقل وسداد الرأي.

وقال ابن حبيب: حُوصر نصر وهو والي خراسان بمرو ثلاث سنين، مات سنة ١٣١هـ/ ٧٤٨م، وكان مولده سنة ٤٦هـ/ ٦٦٦م.

انظر المزيد في: الكامل ٥/ ١٤٨، خزانة البغدادي ١/ ٣٢٦، تاريخ ابن خلدون ٣/ ١٢٥، البيان والتبيين ١/ ٢٨، رغبة الآمل ٣/ ١٧٣، المحبر ٢٥٥.

(١) الطبري: المصدر السابق ذكره ٧/ ٥٣٢-٥٣٣.

(٢) قحطان الحديثي: أسواق المدن الخراسانية ١٠٨.

(٣) Beynard Lewis,The World of Islam ,p.96

(٤) ابن حوقل: المسالك والممالك ٣١٤.

(٥) Oleg Grabarclteis,The World of Islam P .92London 1922.

وفي عهد الطاهريين قام طاهر بن الحسين[١] بنقل مبنى دار الإمارة ناحية الغرب، وبالتحديد على نهر هرمزفرة[٢] لكنه توفي قبل أن يتحقق، ثم تقلد عبد الله بن طاهر ولاية خراسان فنقل عاصمة إمارته إلى نيسابور، واستمرت إلى أن جاء السامانيون[٣]، واتخذوا حاضرتهم بخارى، ومع دخول السلاجقة بلاد ما وراء النهر أعادوا مكانة مرو، وأصبحت الحاضرة لدولتهم، وبالتحديد التاريخي في عصر سنجر الذي وضع بناء قصره في قرية تعرف انداربة[٤].

٢- القصور والبيوت

ذكر لنا المقدسي[٥] في كتابه أحسن التقاسيم: أن القصور في مرو تتكون من نوعين من البناء؛ الدار التي تحتوي على بهو يحيط به الحجرات، وفي أول الدار نافورة مزخرفة غالبًا بالمصيص الأبيض، وحجرات الدار تدهن بالطين المكوي بألوان متعددة.

أما القصر نفسه أو جزء منه فإنه يدهن باللون الفخم، ويتكون من عدة أروقة متوزاية يحيط بها الحدائق والبساتين، والذي يبين كلامنا قصر مرزبان مرو الذي يقع على نهر أسعدي، وقصور الطاهريين التي قامت وأُسست على نهر هرمزفرة، وتُسمى قصور الشادياخ الحيا والميان[٦].

أما البيوت فهي أبسط، وهي من طابق واحد ذات حجرات قليلة، ولكل

---

(١) ابن حوقل: المسالك ٣١٤.

(٢) الحميري: الروض المعطار ٥٣٣.

(٣) قحطان الحديثي: مدن خراسان عند ابن خلكان ٢٨٣.

(٤) الراوندي: راحة الصدور وآية السرور ٢٧٧، ترجمة/ إبراهيم أمين الشواربي ١٩٦٠م.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣١٥.

(٦) ابن المعتز: طبقات الشعراء ١٨٦-١٨٨، تحقيق/ عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤م.

بيت دهليز، وصحن مربع بداخله مصطبة، وجزء صغير مخصص للزائرين والضيوف، ويسمى بدار الضيافة[١]، والبيوت تحتوي المتاع والأثاث المتوسط، وتُفرش الأرضية بالحصر، وأحيانًا السجاجيد[٢]، والظاهرة الملفتة النظر أن مادة البناء الشائعة في مدينة مرو الطين[٣]، وبعض الأحيان الحجارة[٤]، وحول هذه البيوت بعض الحارات والشوارع الصغيرة[٥].

وفي الحقيقة ازدهرت مرو بنهضة عمرانية ضخمة؛ حيث اتجهت المنازل نحو الجنوب حتى تسقط أشعة الشمس على الحجرات في فصل الشتاء، كذلك وجدت سدة على الأبواب؛ لتمنع أشعة الشمس الحارة في فصل الصيف، والتي تغطي الحجرات طول النهار[٦].

ومع دخول السلاجقة لمرو اتجهوا لتخليد أعمالهم عن طريق إنشاء المباني الفخمة[٧]، وقد ساعدتهم الظروف حيث يوجد عدد من العمال المهرة أصحاب الفن قبل مجيئهم، وكان للمعمار السلجوقي أسلوبه الخاص الذي تميز به، ولم يكن تقليدًا للمعمار الغزنوي[٨].

وقد اتصف الطراز السلجوقي بالفخامة، واتساع العمارة، وجمال

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٣٢٢.

(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق ٤٧٦، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٥م.

(٣) أبو الفدا: تقويم البلدان ٤٥٦، بغداد، بدون تاريخ.

(٤) ابن بطوطة: رحلته ٣٨٢ القاهرة، ١٤١٢هـ، ١٩٨٢م.

(٥) التنوخي: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٢/ ٣١١، بيروت ١٩٧١م.

(٦) دونالد ولبر: إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة/ عبد النعيم حسنين ١٢٧، بيروت ١٩٨٥م.

(٧) د/ أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ٨/ ١٦، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٤.

(٨) دكتور/ زكي محمد حسن: فنون الإسلام، ٨٦-٨٧، بيروت ١٩٨١م.

مظهرها، واستخدام الزخارف المجسمة[١]، والقاشانية من اللوحات أو الفسيفساء في تزيين الجدران، وخاصة في واجهات المباني.

وكان استخدام القاشاني الملون[٢] قد ظهر مع قيام السلاجقة[٣]، ومن قصور السلاجقة في مرو قصر سادكان الذي أقام فيه أرسلان أرغون، أيضًا لم يكتفِ السلاجقة بقصر واحد للحكم، بل تعددت لهم قصور في الأمصار والأقطار الأخرى، فالسلطان سنجر كان له قصر حكمه في مرو، بالإضافة إلى قصور أخرى في قرية أندرابة[٤].

٣- المدافن والأضرحة

يطلق عليها أيضًا قبة أو تربة، وهي عبارة عن البناء الذي يقام على رفاة وليٍّ أو حاكم، وكان يقام فوق القبر تركيبة خشبية منقوشة أو تركيبة من الرخام أو الحجر.

وكانت الأضرحة تُبنى على هيئة وشكل قباب أو أبراج أسطوانية ذات سقف مخروطي[٥].

ومن أشهر مقابر مرو مقبرة سكة تويك، ومقبرة سلكانية، ومقبرة سنجدان، ومقبرة تنوركران[٦].

---

(١) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ٢٣٠، الكويت، ١٩٧٥م.

(٢) دكتورة/ سعاد ماهر: الفنون الإسلامية ١٢٨، القاهرة، ١٩٨٦م.

(٣) عبد السلام أحمد نظيف: دراسات في العمارة الإسلامية ٢٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م.

(٤) الراوندي: راحة الصدور ٢٧٧.

(٥) أرنست كونل: الفن الإسلامي ٦٠.

(٦) د/ سعد زغلول عبد الحميد: العمارة والفنون في دولة الإسلام ٤١٥، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٧م.

ويرجع إلى السلاجقة الفضل الأول في نشر نظام الأضرحة؛ حيث جلبوا هذه العادة من موطنهم الأصلي من العادات[١] الجنائزية، وكانت الأضرحة السلجوقية تشبه ساحات الاحتفال التي تسمى باليورت[٢]، وهي تأخذ شكل القبة، وقد اعتمد السلاجقة على ما تركه القره خانين، والغزنويين[٣]، وقد ارتفع شأن ومكانة مرو، بل أصبحت مقرًّا رئيسًا للسلاجقة، فقد قضوا حياتهم فيها مثل جغري بك[٤]، وطغرلبك[٥]، وألب أرسلان[٦].

ومن أشهر أضرحة السلاجقة ضريح السلطان سنجر الذي يعتبر من عجائب الدنيا في مرو؛ حيث شمل على تقاليد العمارة الإيرانية الراقية[٧] مما يتعلق بإنشاء القباب الواسعة التي يمكن أن تتصدى لهزات الزلازل[٨]، وقد أقيمت هذه المقبرة في حياة السلطان سنجر، وكانت هذه المقبرة مرتبطة[٩] بمسجد دُمِّر وزال من الوجود، وتحتوي هذه المقبرة على كل التطورات التي استحدثها السلاجقة في مجال عمارة القباب حتى وقتنا هذا، ومن هنا تحتل هذه المقبرة مكانة مرموقة بين أجمل وأفضل روائع العالم المعمارية، فكان قطرها

---

(١) الحسيني: أخبار السلجوقية ٨٦، بيروت، ١٩٨٤م.

(٢) أبو صالح الألفي: الفن الإسلامي ١٢٣، دار المعارف، القاهرة.

(٣) أوقطاي أصلان: فنون الترك وعمائرهم ٣٨، ترجمة/ أحمد محمد عيسى، القاهرة ١٩٨٧م.

(٤) أرنست كونل: الفن الإسلامي٦٠، د/ سعد زغلول عبد الحميد: العمارة والفنون في دولة الإسلام ٤١٥، منشأة المعارف.

(٥) أوقطاي أصلان: فنون الترك وعمائرهم ٣٨، ترجمة/ أحمد محمد عيسى، القاهرة، ١٩٨٧م.

(٦) الحسيني: زبدة التواريخ ٧٥، طبعة القاهرة ١٩٨٥م.

(٧) الحسيني: زبدة التواريخ ٧٥، القاهرة، ١٩٨٥م.

(٨) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٠٦، القاهرة، ١٩٣٢م.

(٩) د/ سعد زغلول عبد الحميد: العمارة والفنون في دول الإسلام ٤١٥.

سبعة عشر مترًا[١]، وهي تعتبر أضخم قبة في هذه المصر أو القطر.

صُنعت هذه القبة من الفيروز، يمكن رؤيتها من مسافة مسيرة يوم كامل[٢]، والمهندس الذي قام ببناء هذا الضريح محمد بن أتسز السرخسي، وكانت تغطي غرفة رئيسية مساحتها ٢٧ × ٢٧ مترًا، أما الجدران فهي ذات سمك كبير بلغ حوالي ستة أمتار[٣] كذلك يتمثل المعمار السلجوقي في التناسب والشكل أكثر مما يتمثل في الزينة.

قرى مرو

كانت مرو تزيد عن أكثر من مائة قرية[٤]، ومن أشهر هذه القرى قرية أرسابند، وهي تبعد عن مرو بفرسخين[٥]، وقرية أروى أيضًا فرسخين[٦] من مرو، وقرية أشتاخوست على بعد ثلاثة فراسخ من مرو[٧]، وقرية أفشيرقان على خمس فراسخ من مرو[٨]، وقرية بابشير على فرسخ من مرو[٩]، وقرية باجنحوست وهي قرية كبيرة على بعد فرسخين من مرو[١٠]، وقرية باز على سبعة فراسخ من مرو[١١]، وقرية باشان بأعلى مرو على فرسخين منها حيث

---

(١) أوقطاي أصلان: فنون الترك وعمائرهم ٤١.

(٢) رينيه غروسيه: جنكيزخان ٣٠٨، ترجمة/ خالد أسعد عيسى، دمشق ١٩٨٢م.

(٣) أوقطاي أصلان: المرجع السابق ٣٢-٤١.

(٤) محمد ضياء الدين الريس: الخراج في الدولة الإسلامية ٢٧٣، القاهرة، ١٩٥٧م.

(٥) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب ١/ ٤٢.

(٦) السيوطي: لب الألباب، ٤٩، بيروت ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

(٧) السمعاني: الأنساب ١/ ١٦٢.

(٨) السمعاني: المصدر السابق ذكره ١/ ١٩٨.

(٩) السمعاني: المصدر السابق ذكره ١/ ١٠٠.

(١٠) ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٣١٣.

(١١) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب ١/ ١١٠.

تقع على طريق كشميهن[١] قبل هرمزفرة بفرسخ، وجامعها في الصاغة، ويقول عنها ياقوت الحموي:[٢] «فاشان»، وقرية[٣] برز تقع على بعد خمسة فراسخ من مرو، وقرية بسينة[٤] على فرسخين من مرو[٥]، وقرية انداربة[٦] على بعد فرسخين من مرو، وقرية أندغن على خمس فراسخ من مرو[٧].

أيضًا من قرى مرو: قرية جلختحان[٨] تقع على خمسة فراسخ من مرو، وقرية جيرنج ويسميها المقدسي «كيرنك»، ويصفها بأنها مدينة كبيرة ذات جانبين بينهما جسر، وللعمود شعبتان عليهما طواحين تشقان البلد، والجامع في ثلث البلد، ويقول عنها السمعاني: إنها قرية كبيرة بأعالي مرو على مجرى وادي مرو في وسطها، ويشبهها ببغداد، ووصفها ياقوت الحموي بأنها بليدة من نواحي مرو على نهرها ذات جانبين، وعلى نهرها قنطرة عظيمة عليها بعض أسواقها، وفيها البيوت العالية، والمنازل النفيسة، والأسواق الكبيرة، بينها وبين مرو عشرة فراسخ، وقد شاهدها ياقوت الحموي سنة ٦١٦ هـ/ ١٢١٩م قبل مجيء التتار[٩].

ومن قرى مرو: قرية خرق تقع على ثلاثة فراسخ من مرو بين طريق

---

(١) السيوطي: لب اللباب ١/ ١٢٩.

(٢) قحطان الحديثي: أرباع خراسان ٣٤٠.

(٣) السمعاني: الأنساب ١/ ٣٢٠.

(٤) السمعاني: المصدر السابق ذكره ١/ ٢٥٤.

(٥) السمعاني: المصدر السابق ذكره ١/ ١٥٤.

(٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٢٦١.

(٧) الراوندي: راحة الصدور وآية السرور ٢٧٧.

(٨) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب ١/ ٢٨٦.

(٩) قحطان الحديثي: أرباع خراسان ٣٤٠-٣٤١.

سرخس، وأبيورد[١]، جامعها خارج السوق، شربهم من شعب النهر نحو قبلة الجامع[٢]، وقرية دبرند على خمس فراسخ من مرو عند كمسان[٣].

كذلك من قرى مرو: قرية خسراباد[٤] على بعد فرسخين من مرو، وقرية درستكان على باب مرو، وهذه النسبة إلى باب سنجان، وبها عسكر المسلمون أول ورودهم مرو[٥]، وقرية دندانقان تقع على عشرة فراسخ من مرو على طريق سرخس، لها سور، وحصن، وحمامات، ومنبر ثم دمرت على يد الغز سنة ٥٥٣هـ/١١٢٨م[٦]، وقرية زاديان[٧] تقع على بعد فرسخ من مرو، وقرية زرزم على بعد ستة فراسخ من مرو عند كمسان لكنها تلاشت ودمرت، وبقي منها سواء المزرعة[٨]، وقرية زرق[٩] من قرى مرو، بها قتل يزدجرد[١٠] آخر ملوك الفرس، وكان يجري بها مقسم ماء نهر المرغاب؛ حيث تخرج الأنهار لتسقي البساتين حول مرو[١١]، وقرية زغندان على بعد ستة فراسخ من مرو قريبة من سنج[١٢]، وقرية سنج حيث يوجد في مرو قريتان باسم

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣١٢.

(٢) السمعاني: الأنساب ٢/ ٣٤٩.

(٣) السمعاني: المصدر السابق ذكره ٢/ ٤٥٣.

(٤) قحطان الحديثي: أرباع خراسان ٣٥٩.

(٥) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب ٢/ ٤٥٣.

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣١٢.

(٧) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ٤٧٦.

(٨) السمعاني: الأنساب ٣/ ١٢٠.

(٩) السيوطي: لب اللباب ١/ ٣٧٦.

(١٠) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣١٢.

(١١) البلخي: البدء والتاريخ ٥/ ١٩٧.

(١٢) السمعاني: الأنساب ٣/ ١٢٠.

سنج[١]، سنج عباد تقع على مسافة أربعة فراسخ من مرو، ويسميها الجغرافيون سنج عباد ويسميها أهلها شيبك عباد[٢]، والأخرى سنج العظمي، وهي عبارة عن قرية كبيرة على بعد سبعة فراسخ من مرو، وبها الجامع، والسوق طولها نحو فرسخ إلا أن عرضها قليل جدًّا، بنيت على حافة النهر، ولما استولى الغز على خراسان، وفتحوا البلاد ومرو نزلوا عليها فامتنعت عليهم لمدة شهر كامل، ولم يتم فتحها إلا صلحًا، وذلك في سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م[٣].

وقرية سوسقان التي تقع على بعد أربعة فراسخ من مرو على طريق البرية[٤]، وقرية سيقدنج[٥] على بعد ثلاثة فراسخ من مرو، وقرية سينان ويقال لها: سيبان[٦] على خمسة فراسخ من مرو، وعلى بعد فرسخ من سنج، وقرية شافسق على بعد فرسخين من مرو[٧]، قرية وشميرات تقع على بعد ثمانية فراسخ من مرو، دمرها الغز سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م، وبقيت خاوية مدة، ثم نزح لها جماعة من أهلها[٨]، وقرية شوال من قرى مرو تقع على مسافة ثلاثة فراسخ منها كثيرة الزراعة والصناعة والتجارة، وللسمعاني أملاك وضياع[٩]

---

(١) ياقوت الحموي: المشترك وضعًا والمفترك صقعًا ٢/ ٢٥٥القاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

(٢) ابن الفوطي: تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ٤/ ٨٩١ دمشق ١٩٦٢م.

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق ٤٧٦.

(٤) قحطان الحديثي: أرباع خراسان ٣٤٣.

(٥) السمعاني: الأنساب ٣/ ٣٦١.

(٦) المقريزي: السلوك ١/ ٦٩٨.

(٧) الذهبي: العبر في خبر مَن غبر ١/ ٢٣٣، بيروت.

(٨) السيوطي: لب اللباب ٢/ ٢١٠.

(٩) السمعاني: الأنساب ٣/ ٤٥٨.

فيها، وقرية صاغان[١]، وباللغة العربية جاغان خرج منها عدد من العلماء[٢] والمفسرين والمحدثين.

وقرية طوسان إحدى قرى مرو على فرسخين منها[٣]، وقرية فرناباد وهي قرية ضخمة المساحة على مسافة خمسة فراسخ من مرو[٤]، وقرية القرينين تطل على وادي مر، وفي بعض المصادر والمراجع يطلق عليها بركديز، وسميت بقرينين؛ لأنه كان يقرن بينها وبين مرو الروذ، وبها مسجد جامع، وسوق، ومياه جارية، وبساتين[٥]، وقرية كشميهن[٦]، وهي قرية عظيمة تقع على طريق المفازة المتصلة بالغز، تبعد عن مرو بخمسة فراسخ، وبها منبر، وسوق، وفنادق، وحمامات، وقد غطها الرمل[٧].

أيضًا من القرى المشهورة في مرو قرية كمسان تبعد نحو خمسة فراسخ، وهي من كبار القرى بها، تحتوي على الجامع، والسوق القائم، دمرها الغز سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، ثم عمرت سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م، وخرج منها عدد لا بأس به من العلماء، والفقهاء[٨]، وقرية ماخوان على بعد ثلاثة فراسخ من مرو[٩]،

---

(١) قحطان الحديثي: أرباع خراسان ٣٦٦.

(٢) أبو الفدا: تقويم البلدان ٤٤٦.

(٣) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٤/ ١٧٧.

(٤) البكري: التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه ٣/ ٣١، القاهرة ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م.

(٥) الإدريسي: نزهة المشتاق ٤٧٦.

(٦) ابن الأثير: اللباب ٣/ ٣١.

(٧) السمعاني: الأنساب ٥/ ٧٥.

(٨) السمعاني: المصدر السابق ذكره ٥/ ٩٤.

(٩) الحسيني: طبقات الشافعية ٢٣٥.

وقرية ملجكان[١]، وهي قرية قديمة على فرسخين من مرو، وقرية نافقان على بعد ستة فراسخ من مرو قريبة من كمسان[٢].

وقرية هرمزفرة وهي قرية تقع بأعلى مرو على طرف البرية يقال لها: مسفري على طريق ما وراء النهر[٣]، وقرية هورقان تقع على سبعة فراسخ من مرو[٤]، وهي قريبة من سنج[٥].

خلاصة القول: تعتبر مدينة مرو من أعظم مدن الأمصار والأقطار والبقاع الإسلامية في القرنين الخامس والسادس الهجري؛ حيث وضح لنا الجغرافيون والرحالة والمؤرخون كل شبر وشبر من هذه المدينة.

ثم نختم هذا الفصل بالحديث عن فتح هذه المدينة باختصار عندما فتح الأحنف بن قيس[٦] مدينة خراسان سقطت مدينة مرو في يده في عهد الخليفة

---

(١) قحطان الحديثي: أرباع خراسان ٣٧٥.

(٢) السمعاني: الأنساب ٥/ ٤٤٧.

(٣) السمعاني: الأنساب ٥/ ٦٣٥.

(٤) ابن الأثير: اللباب ٣/ ٣٨٥.

(٥) قحطان الحديثي: أرباع خراسان ٣٧٦.

(٦) هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي المنقري التميمي أبو بحر سيد تميم، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين، يضرب به المثل في الحلم، ولد في البصرة سنة ٣ ق هـ/ ٦١٩م، وأدرك النبي ﷺ ولم يره، ووفد على عمر رضي الله عنه حين آلت الخلافة إليه في المدينة، فاستبقاه عمر فمكث عامًا، وأذن له فعاد إلى البصرة فكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري: أما بعد فأذن الأحنف وشاوره واسمع منه... إلخ، وشهد الفتوح في خراسان واعتزل الفتنة يوم الجمل، ثم شهد صفين مع علي، ولما انتظم الأمر لمعاوية عاتبه فأغلظ له الأحنف في الجواب فسئل معاوية عن صبره عليه، فقال له: هذا الذي إذا غضب غضب له مائة ألف لا يدرون فيم غضب؟ وولي خراسان، وكان صديقًا لمصعب بن الزبير أمير العراق فوفد عليه بالكوفة فتوفي فيها وهو عنده أخباره كثيرة جدًّا مات سنة ٧٢ هـ/ ٦٩١م. =

عمر بن الخطاب[١] رضي الله عنه سنة ٢٢هـ/ ٦٤٢م، وعين حاتم بن النعمان الباهلي[٢] واليًا عليها، لكن خراسان سرعان ما خرجت عن طاعة المسلمين، مما جعل الخليفة عثمان بن عفان[٣] رضي الله عنه سنة ٣١هـ/ ٦٥١م يقوم بإرسال عبد الله بن عامر[٤] لإعادتها إلى زمرة المسلمين، عندئذ أرسل

= انظر المزيد في: طبقات ابن سعد ٧/ ٦٦، وفيات الأعيان ١/ ٢٣٠، ذكر أخبار أصبهان ١/ ٢٢٤، جمهرة أنساب العرب ٢٠٦، تهذيب ابن عساكر ٧/ ١٠، السير ٨١، تاريخ الخميس ٢/ ٣٠٩.

(١) هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، أبو حفص العدوى الفاروق وزير رسول الله ﷺ، ومن أيد الله به الإسلام وفتح به الأمصار وهو الصادق المحدث الملهم، وهو الذي سن للمحدثين التثبت في النقل.

انظر المزيد في: أسد الغابة ٤/ ١٤٥،الإصابة ٢/ ٥١١، تاريخ الخلفاء ١٠٨، تذكرة الحفاظ ١/ ٥، خلاصة تهذيب الكمال ٢٣٩، شذرات الذهب ١/ ٣٣، طبقات الفقهاء ٣٨، مروج الذهب ٢/ ٣١٢، النجوم الزاهرة ١/ ٨، العبر ١/ ٢٧، طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٥٩١.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٧١.

(٣) هو عثمان بن عفان أبو عمر الأموي ذو النورين، ومن جمع الأمة على مصحف واحد بعد الاختلاف، ومن افتتح نوابه إقليم خراسان وإقليم المغرب، هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وروى جملة كثيرة من العلم، وكان من السابقين الصادقين المنفقين في سبيل الله، مات يوم الجمعة ثامن عشر ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة، وعاش بضعًا وثمانين سنة.

انظر المزيد في: أسد الغابة ٣/ ٥٨٤، الإصابة ٢/ ٤٥٥، تاريخ الخلفاء ١٤٧، تذكرة الحفاظ ١/ ٨، خلاصة تهذيب الكمال ٢٢١، شذرات الذهب ١/ ٤٠، طبقات الفقهاء ٤٠، طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٥٠٧، طبقات القراء للذهبي ١/ ٢٩، العبر ١/ ٣٦، مروج الذهب ٢/ ٣٤٠، النجوم الزاهرة ١/ ٩٢.

(٤) هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة الأموي أبو عبد الرحمن أمير فاتح ولد بمكة سنة ٤ هـ/ ٦٢٥م، وولي البصرة في أيام عثمان سنة ٢٩ هـ فوجه جيشًا إلى سجستان فافتتحها صلحًا، وافتتح الداور وبلادًا من دارا بجرد وهاجم مرو الروذ فافتتحها وبلغ سرخس =

مرزبان[١] مرو للتفاوض، وإقامة الصلح، فوجه إليهم حاتم بن النعمان الباهلي فصالحه على مبلغ سنويًّا «ألفي ألف، ومائتي ألف درهم».

والثابت تاريخيًّا أن مرو دخلت صلحًا بينما سقطت قرية سنج[٢] بالقوة والعنف، وانتشر الإسلام واللغة العربية وإقامة المجالس، وأرسل إليهم الفقهاء والعلماء والمحدثون والمفسرون من شتى أقطار العالم الإسلامي، بل فوق ذلك أخرجت هذه المدن فيما وراء النهر كبار العلماء، والمفسرين، واللغويين، والمحدثين، وأصحاب طبقات المذاهب.

= فانقادت له، وفتح أبرشهر عنوة وطوس وطخارستان ونيسابور وأبيورد وبلخ والطالقان والغاريان وافتتحت له رساتيق هراة وآمل وبست وكابل، وقتل عثمان وهو على بالبصرة وشهد وقعة الجمل مع عائشة، ولم يحضر وقعة صفين وولاه معاوية البصرة ثلاثة سنين بعد اجتماع الناس على خلافته ثم صرفه عنها، فأقام بالمدينة ومات بمكة سنة ٥٩ هـ/ ٣٧٩م، ودفن بعرفات كان شجاعًا سخيًّا وصولاً لقومه رحيمًا، محبًا للعمران اشترى كثيرًا من دور البصرة وهدمها فجعلها شارعًا، وهو أول من اتخذ الحياض بعرفة في الحجار، وأجرى إليها العين وسقى الناس الماء.

انظر المزيد في: تاريخ الإسلام ٢/ ٢٦٦، طبقات ابن سعد ٥/ ٣٠ -٣٥، البدء والتاريخ ٥/ ١٠٩، الكامل ٣/ ٢٠٦، الإصابة ت٦١٧٥، نسب قريش ١٤٧-١٤٩، فتوح البلدان ٣٩٦.

(١) لقب يطلق على رؤساء الفرس، واختص به ما وراء النهر من أمراء الأطراف، ومعناه «حافظ الحد» أو «اصحب الحد»، انظر: الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٧٠.

(٢) قحطان الحديثي: أرباع خراسان ٣٧٦.

الفصلُ الثاني
الحياةُ السياسيةُ والإداريةُ لمدينة مرو في العصرِ السلجوقي

١- الحياة السياسية

تمهيد:

لعب الأتراك السلاجقة دورًا هامًّا في التاريخ الإسلامي، فقد ظهروا في المسرح السياسي، والخلافة العباسية قد ضعفت، وانقسم بعض أملاكها إلى دويلات، وإمارات منتشرة بين أراضي الدولة العباسية، فبدأت الدولة السلجوقية بالقضاء على الدولة الغزنوية، وبدأت قوتها تنمو رويدًا رويدًا حتى نجحت في تأسيس إمبراطورية واسعة خلال عدد من عظماء سلاطينها، ثم بدأ يدب الضعف لهذه الدولة خاصة بعد وفاة السلطان ملكشاه[١]، بل يعتبر العلامة التي تدق في نعش هذه القوة الإسلامية عامة، والدولة السلجوقية خاصة.

وقوع مدينة مرو في يد السلاجقة

كان موت السلطان محمود الغزنوي[٢] بداية النهاية في سقوط الدولة الغزنوية مما أتيحت فرصة كبيرة للسلاجقة لإقامة إمبراطوريتهم، وقد بذل

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٤٨٠.

(٢) هو محمود بن سبكتكين الغزنوي السلطان يمين الدولة أبو القاسم ابن الأمير ناصر الدولة أبي منصور فاتح الهند، وأحد كبار القادة، امتدت سلطنته من أقاصي الهند إلى نيسابور، وكانت عاصمته غزنة بين خراسان والهند، وفيها ولادته سنة ٣٦١هـ/ ٩٧١م، ووفاته ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م.

انظر المزيد في: الكامل في التاريخ ٩/ ١٣٩، وفيات الأعيان ٢/ ٨٤، تاريخ ابن خلدون ٤/ ٣٦٣، الجواهر المضيّة ٢/ ١٥٨، البداية والنهاية ٢/ ٢٧.

السلطان مسعود[١] مجهودات باهظة لإعادة الدماء والقوة لدولته، ولكن للأسف مع كثرة الحروب معهم أهلكت الدولة الغزنوية في شتى الأحوال.

وقعت وسقطت[٢] مدينة مرو سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧، على يد جغري بك، مما دفع الأهالي والفقهاء[٣] يطلبون الأمن والسلام من السلاجقة، فاستجاب لهم السلاجقة، وكان جغري بك يتصف باللباقة، وحسن السياسة، والفطنة، والحنكة في إدارة الأمور، فقام بمعاملة المدينة وأهلها معاملة طيبة[٤]، وإقامة الخطبة على منابرها[٥] في أول جمعة من شهر رجب[٦] سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م باسم جغري بك، والدعاء له، ولقب نفسه بملك الملوك[٧]، وكانت مدينة مرو

---

(١) هو مسعود بن محمود سبكتكين من ملوك الدولة الغزنوية، ولد بغزنة بين خراسان والهند ونشأ في بيت سلطنة وجهاد وعدل، وولي أصبهان في أيام أبيه، وتوفي أبوه سنة ٤٢١هـ، وبويع لأخ له اسمه محمد بغزنة فأقبل مسعود يريدها فثار الجند على محمد وقيدوه وخلعوه ونادوا بشعار مسعود وكتبوا إليه بما فعلوا فدخل غزنة ٤٢٢هـ، وبايعه الناس وأتته رسل الملوك، ومات سنة ٤٣٢/ ١٠٤٠م.
انظر المزيد في: الكامل ٩/ ١٣٨-١٦٨، أخبار الدولة السلجوقية ١٣، تاريخ مختصر الدول ٣١٥-٣٢٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٤٨٠.

(٣) الحسيني: زبدة التواريخ ٤٠.

(٤) الحسيني: أخبار السلجوقية ٨.

(٥) النويرى: نهاية الأرب في فنون الأدب ٢٦/ ٢٧٥، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٥م.

(٦) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى ١٢٢-١٢٣، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة، ١٩٩٦م.

(٧) عباس إقبال: الوزراة في عهد السلاجقة ٥٩، ترجمة أحمد كمال الدين حلمي، القاهرة، ١٩٨٤.

النقطة الأولى في تقوية وتدعيم كيان السلاجقة[١]، ودفعهم للتوسع.

أرسل السلطان مسعود ملك الغزنونيين قائده سوباشي[٢] لطرد السلاجقة من مدنية مرو[٣]، فلما وصلت هذه الأخبار لجغري بك أرسل أتباعه لأخذ رأي أهل مرو، فوجد ترحيبًا كبيرًا للسلاجقة فتمسك بهذه المدينة، ودارت المعارك الطاحنة بالقرب من باب سرخس، انتهت بهزيمة فادحة لقائد الغزنويين سوباشي في يوم الاثنين من شهر شعبان عام ٤٢٨ هـ.

ومن هنا قرر السلطان مسعود تجهيز جيوش كبيرة وضخمة لمحاربة جغري بك، وكلما استولى مسعود على مدينة أو بلدة اختفى[٤]جغري بك وجنوده، وظل هذا الوضع أكثر من سنتين، ثم عاد السلطان مسعود إلى هراة[٥]، بينما جغري بك يعد العدة للاستيلاء نهائيًا على مرو، فحارب أهل التمرد والعصيان الذين أغلقوا عليه الأبواب أكثر من سبعة شهور[٦]، ولكن بدهائه ومهارته وذكائه تمكن جغري بك من القضاء عليهم، وإحكام قبضته عليها.

أما في عهد طغرلبك فاستولى على نيسابور[٧]، وهي كرسي عرش السلطان مسعود، وطلب من أهلها أن يخطب له على المنابر بلقب السلطان الأعظم[٨]،

---

(١) محمد الخضري: تاريخ الأمم الإسلامية ٤١٦، القاهرة، ١٩٥٩م.

(٢) الحسيني: زبدة التواريخ ٤١.

(٣) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٤٨١.

(٥) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ٢٦/ ٢٧٦.

(٦) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ١٠-١١.

(٧) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ٦، دار الكتب المصرية، ١٩٦٣م.

(٨) د/ أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية ٣١٤، دار المعارف، القاهرة ١٣٦٦هـ/ ١٩٦٩م.

وما أن سقطت نيسابور حتى جهز[١] السلطان مسعود جيوشًا كبيرة لمحاربة طغرلبك، والقضاء عليه، فاتجه إلى خراسان بنفسه حتى وصل إلى منطقة دندانقان[٢]، فدارت المناوشات، وتدفق السلاجقة من جميع الجهات لتضييق وقطع الطريق عليه إلى غزنة[٣]؛ حتى لا يتم إرسال الإمدادات والمؤنة للغزنويين، وقام السلاجقة بتدمير كل الآبار[٤] على حوالي مائة ألف جندي أو أكثر من جنود الغزنويين، فوقعت معركة حامية وقوية بينهم استغرقت أكثر من ثلاثة[٥] أيام، وبالتحديد في شهر رمضان سنة ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م[٦]، انتهت هذه المعركة بانتصار السلاجقة انتصارًا مهولًا، وتدمير وسحق الغزنويين.

وكانت هذه المعركة نهاية السيطرة الغزنوية على منطقة خراسان[٧]، وما وراء النهر، والعراق، والهجرة إلى بلاد الهند، والسند[٨] تاركين الساحة

---

(١) د/ سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ١/ ٦٧-٦٨ القاهرة ١٩٩٩م.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٢٥.

Michael Broome, A Hand Book of Islamic Coins, London, first published, 1985. P80

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم ٩٩.

(٤) الإدريسي: نزهة المشتاق ٤٧٦.

(٥) حسين أمين: تاريخ العراق الاقتصادي في العصر السلجوقي ٥٣، مطبعة الإرشاد، القاهرة ١٩٦٥م.

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم ١٠٠.

(٧) سيد معين: تاريخ إيران ١٠٧، البيهقي: تاريخ البيهقي ٦٨٨، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٢/ ١٦٤، صلاح الدين خودا بخش: حضارة الإسلام ٥٧-٥٨، ترجمة على حسني الخربوطلي، بيروت ١٩٧١م، عصام الدين عبد الرءوف الفقي: بلاد الهند في العصر الإسلامي ٢٧، القاهرة ١٩٨٠م.

(٨) حسن أحمد محمود، وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي ٥٥٨، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٠م، حسين أمين: تاريخ العراق الاقتصادي في العصر السلجوقي ٥٣، عباس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة ٣٢، طه ندا: فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ١٥٣، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٥-١٩٧٦م، ابن غازي الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ٢٦٤، المدينة المنورة ١٤٠٨هـ.

للسلاجقة بزعامة طغرلبك[١] مؤسس الدولة.

أيضًا كانت هذه المعركة الصفحة الأخيرة في غلق الصراع بين القوتين، فلم يعد الغزنوييون يفكرون -ولو للحظة- في مهاجمة السلاجقة[٢].

مدينة مرو والسلاجقة

كان طغرلبك يتطلع إلى تأسيس دولة قوية للسلاجقة، فكان يضع في ذهنه إرساء قواعد الدولة السلجوقية على عدة اعتبارات؛ منها: جمع الكلمة، وتوحيد الصفوف، وتكتيل القوى[٣]، فجمع أفراد أسرته حوله لتنفيذ وتحقيق أهدافه، فعين كل واحد منهم حاكمًا واليًا على ولاية من ولايات الدولة، فوق ذلك سمح لكل واحد منهم أن يتعمق ويفتح ما يستطيع فتحه من الأماكن والمناطق المجاورة[٤]، ويضم ما يفتحه إلى منطقة نفوذه، ووضع كل والٍ ملكًا على ولايته، وله الحرية المطلقة في حكمها[٥]، واتخذ طغرلبك مدينة الري[٦] عاصمة له، بينما اتخذ جغري بك أكبر إخوة طغرلبك مدينة مرو عاصمة لدولته، واختص بأكثر خراسان، واتخذ لقب ملك[٧].

---

(١) Reynold Nicholson, Ali Terory History of the Arab,Cambridge .p.264.1953 .

(٢) Corson: Ancient, Medieval and Modern Coins, Second Edition, London, 1970, p.485.

(٣) د/ عصام بعد الرءوف الفقي: الدول الإسلامية المستقلة في الشرق ١٥٧، دار الفكر العربي ١٩٨٧م، عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ٣٢-٣٤، حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي ٥٥٩-٥٦٠، الراوندي: راحة الصدور ١٦٧.

(٤) طه ندا: تاريخ الحكم التركي ٤٢.

(٥) الراوندي: راحة الصدور ١٦٧.

(٦) طه ندا: تاريخ الحكم التركي ٤٢.

(٧) جوزجاني: طبقات ناصري ١/ ٢٥١، كابل ١٣٤٢هـ.

عندما دخل السلاجقة مدينة مرو كان يسودها حالة من النهب والسلب والفوضى[١] والاضطراب والعصيان، فكان من الواجب على السلاجقة القضاء بالقوة على كل الأشياء، فقام جغري بك بإعادة الهدوء، والاستقرار، وبث روح العدل، والأمن بين أهلها، والمحافظة على الأرواح، والممتلكات[٢] بكل الطرق، والأساليب.

ولما مات جغري بك[٣] سنة ٤٥٢ هـ/ ١٠٦٠م تقلد الحكم ابنه الأكبر ألب أرسلان، ثم ورث عمه السلطان طغرلبك ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م الذي لم ينجب[٤] ولدًا يخلفه في إدارة البلاد، وكان طبيعيًّا أن تئول لألب أرسلان، وهذا بتشجيع وتؤيد من نظام الملك[٥].

وفي عهد السلطان ألب أرسلان اتسعت رقعة أراضي السلاجقة؛ فأصبحت مملكته تمتد من نهر جيحون حتى نهر دجلة[٦]، ويعتبر عصره هو العصر الذهبي للسلاجقة حيث استتب الأمن، وانتشر العدل بين الرعية، وقويت إدارة الدولة، ومدت رقعتها، ويتصف السلطان ألب أرسلان بالرحمة والإنصاف، فكان يتصدق كل سنة من جيبه بألف دينار على الفقراء

---

(١) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٨.

(٢) الحسيني: زبدة التواريخ ٤٠.

(٣) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٢/ ١٨، جوزجاني: طبقات ناصري ١/ ٢٥١، عباس إقبال: الوزارة في العصر السلجوقي ٥٩.

(٤) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر مجلد ٣ ت٥ ص٩٧٠، دار الكتاب اللبناني- بيروت ١٩٨٦م، عباس إقبال: الوزارة في العصر السلجوقي ٢٤.

(٥) أبو الفدا: المختصر ٢/ ١٨٠-١٨١.

(٦) Bernard Lweis,The World of Islam p .273

والمحتاجين[١] في مرو.

وعندما قرب الموت من ألب أرسلان جمع أهله، وطلبهم بالمبايعة لابنه ملكشاه، وأخذ العهد على إخوته، وأمرائه، وكبار رجال الدولة أن يرفعوا شأن ابنه ملكشاه من بعده، ثم أمر بالخطبة له في جميع بلاده، كذلك منح الضياع، والبلاد بين إخوته، وأولاده، وأقاربه، فكانت مدينة مرو من نصيب ابنه أرسلان شاه[٢].

نهج ملكشاه منهج أبيه في سياسته حيث شهدت أيامه توسعات في الأراضي السلجوقية، والعالم الإسلامي كله، غير أن هذه الدولة مرت بحركات شغب[٣] من الجند الذين قاموا بأعمال بها الحدة، والنهب، والسلب، والتمرد، والتخريب، والاعتداء على حرمة الأهالي، وسفك الدماء، وبذل ملكشاه كل طاقته في القضاء عليهم.

أعلن تكش أخو السلطان ملكشاه العصيان والتمرد عليه سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م، وانضم عدد لا بأس به إليه، أي حوالي سبعة آلاف[٤] رجل من جند ملكشاه، كان قد أمر بتسريحهم من الخدمة، فازداد تكش قوة، واستولى على مرو وترمذ، ثم اتجه إلى نيسابور، فلما علم ملكشاه بهذا العمل

---

(١) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٣٠.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ٣م/ق٥، ٩٧٠-٩٧١، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ٢٦/ ٣١٠، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ٤٥، ترجمة محمد علاء الدين منصور ٤٥، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٩، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٥٠، الحسيني: زبدة التواريخ ٥٥.

(٣) الحسيني: زبدة التواريخ ١٣٣، عبد الله رازي: تاريخ الكامل إيران ٢٠٠.

(٤) النويري: نهاية الأرب ٢٦/ ٣٢٢، الحسيني: زبدة التواريخ.

أسرع في دخولها قبل أن تقع في أيدي تكش، مما جعله يتحصن بترمذ، فحاصره السلطان بها، وضيق عليه الخناق والحصار حتى طلب من أخيه الأمان فأمنه، ثم عاد مرة ثانية في العصيان والتمرد فسجنه.

حلقت الدولة السلجوقية بعظمتها في عهد السلطان ملكشاه، ووزيره نظام الملك الذي نجح بكفاءته أن أصبحت الدولة السلجوقية من أكبر قوة في الشرق تعمل لها كل الأمم والشعوب حسابًا وتَخشى قوتها[١].

ثم دبت الخلافات في العلاقة بين السلطان ملكشاه، ووزيره لعدة أسباب؛ منها: سطوة تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه، حيث كان نظام الملك يفضل تولية العهد لبركياروق الابن الأكبر لملكشاه، بينماكان تركان خاتون تريد أن يتقلد العرش ابنها محمود الذي تجاوز الرابعة من عمره، مما زاد الكراهية بين الطرفين، ومحاولة إبعاده عن الوزارة بكل الوسائل والطرق[٢].

أيضًا من العوامل: أن نظام الملك يسند ويقلد ولايات الدولة السلجوقية إلى أبنائه، وأحفاده، ورجاله، وأتباعه، وكان بعضهم ينفرد بالحكم، ويتصرف في الأمور، وفقًا لإرادته معتمدًا على تأييد نظام الملك، وخير مثال لنا: أن عثمان ابن جمال الدين بن نظام الملك[٣] الذي تقلد ولاية مرو من قبل جده ابتعد كل البعد عن سياسة العدل، واستبد بأهلها، وعندما ثار نزاع بينه وبين قودن[٤] سحنة

---

(١) ابن بيبي: أخبار سلاجقة الروم ١٧ ترجمة محمد السعيد جمال الدين، الدوحة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، نظام الملك: سياست نامه ٧-٨، عبد الباقي عبد المجيد اليماني: إشارة التعيين في تراجم النحاة اللغويين ٨٥ السعودية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٢) شرين عبد النعيم حسنين: نساء شهيرات في السياسة والأدب في العصر السلجوقي ٩، القاهرة ١٩٨٩م، عبد النعيم حسنين: دولة السلاجقة ٦٤-٦٥، يحيى الخشاب: حكايات فارسية ٥٠، القاهرة بدون تاريخ.

(٣) د/ عصام الدين عبد الرءوف الفقي: الدول الإسلامية المستقلة في الشرق ١٧١.

(٤) الأزدي: تاريخ الدولة المنقطعة ٣٠٢، ابن الصابئ: رسوم دار الخلافة ٢٠١، بغداد =

مرو المعين من طرف السلطان سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م، قبض عليه، وأودعه في السجن، ثم أطلق سراحه فقصد السلطان مستغيثًا، وشاكيًا، فغضب السلطان، وبعث إلى نظام الملك خطابًا شديدًا به الوعد، والوعيد، ويهدده بالعزل والسجن، وليخفف من سطوة أتباعه، فكان رد نظام الملك عليه ردًّا جافًّا[١]، والذي أنهى هذه الخلافات أن قتل نظام الملك على يد الطائفة الإسماعيلية[٢] عام ٤٨٥هـ/ ١٠٩٣م، ثم تابعه موت السلطان ملكشاه.

بموت ملكشاه بدأ يدق جرس الخطر للسلاجقة حيث انشغلوا إلى الصراع الداخلي بين الأبناء والأحفاد على أملاك السلطان ملكشاه مما يدل على التفكك، فقد كان تفكير هؤلاء الأمراء في أنفسهم دون النظر إلى مصلحة الرعية والدولة، وأخذ كل واحد منهم يسعى إلى تحقيق مجد لنفسه، وهو من عوامل انهيار هذه الدولة[٣].

كان أول النزاع على الملك بعد وفاة ملكشاه مباشرًا بين الأخوين محمود، وأمه تركان خاتون، وبركياروق[٤] الابن الأكبر لملكشاة، وقد استغل هذه

= ١٣٨٣هـ ١٩٦٤م، د. حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي ٥٨٧.

(١) عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ٢٥٩، الوزارة في عهد السلاجقة ٣٩-٤٠، عبد النعيم حسنين: دولة السلاجقة ٦٥-٦٧، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٣٣٥-٣٣٦، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٤/ ٣٢٥، ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر مجلد٣، قسم ٥، ص٩٩٠.

(٢) سيد مهدي معين: تاريخ إيران ١٠٩، إحسان عباس: عهد أزدشير ١٦٩ طهران ١٣٤٨هـ، صادق نشأت ومصطفى حجازي: صفحات عن إيران ٧٣، القاهرة ١٩٦٠.

(٣) محمد أحمد النسوي: سيرة منكبرتي ٦-٧، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٣م، حافظ أحمد حمدي: الشرق الإسلامي قبل الغزو المغولي ٣٨، دار الفكر العربي ٣٨، القاهرة ١٩٥٠م.

(٤) محمد أحمد النسوي: المصدر السابق ذكره ٦، حسين مؤنس: أطلس التاريخ الإسلامي =

الفرصة عمهم أرسلان أرغون حاكم همذان وساوه، فسار إلى نيسابور للاسيتلاء عليها فلم يتم له تحقيق هذا الهدف لقوة المقاومة، فاتجه إلى مرو، ودار القتال مع أهلها فاضطر شحنتها الأمير قودن إلى تسليمها[١].

كما تمكن من وضع قبضته على بلخ، وترمذ، وخراسان، ثم أرسل إلى بركياروق للدخول في طاعته خاصة بعد أن ذكر له بأنه استولى على ملك مملكة[٢] جده جغري بك، فتظاهر بركياروق بالموافقة، بينما في فكره يخطط للتخلص، والقضاء عليه، فلذلك عين عمه الآخر الملك بوري برس ملكًا على خراسان، وضم إلى خدمته الأمير مسعود بن ماجر، وأمير خراسان التونتاش، وما أن جاء بورس برس إلى حدود خراسان حتى ثار عليه العساكر، ثم اجتمع على اختيار عماد الملك أبي القاسم بن نظام الملك وزيرًا له، ثم نشبت الحرب الطاحنة بينه وبين أخيه أرسلان أرغون، وتمكن من هزيمته، وفرار أرسلان إلى بلخ مهزومًا، وعادت مدينة مرو إلى بوري برس[٣]، وكذلك أكثر خراسان.

لكن أرغون لم يكتفِ بهذه الهزيمة فعاد مرة ثانية لمحاربة أخيه، وحشد الجند، وأعد العدة ونزل مدينة مرو، وحاصرها ثم سقطت عَنوة في يده، فقام بهدم سورها، وقتل عددًا كبيرًا من أهلها ثم دارت الدائرة على بوري برس حيث قتل في النهاية على يد أخيه أرسلان أرغون، ثم أخيرًا تمكن جنود بركياروق

= ٢٣٨، بالقاهرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(١) الحسيني: زبدة التواريخ ١٧٥-١٧٦،عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ٢٧٦، براون: تاريخ الأدب في إيران ٣٧٨ ترجمة إبراهيم أمين الشواربي، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

(٢) الحسيني: زبدة التواريخ ١٧٦-١٧٧.

(٣) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٢٣٧-٢٣٨.

من قتل عمه أرسلان أرغون في مدينة مرو[١] سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م، وأصبحت الأمور في هدوء واستقرار لبركياروق، ولكن سرعان ما انقلبت بعد عدة شهور حيث نازعه أخوه محمد[٢] على أراضي السلطنة بتحريض من مؤيد الملك بن نظام الملك الذي شجعه على أخذ المملكة والسلطنة لنفسه دون أخيه الأكبر بركياروق، وقد أخذ تأييد الخليفة المستظهر العباسي[٣] على تقلده السلطنة بدلًا من أخيه، وبالفعل خطب له على منابر بغداد سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م، وأصبح هناك سلطانان[٤] للسلاجقة، كذلك لم يستطع بركياروق التصدي لأخيه ولا لتمرد وثورة الجند عليه[٥]، ويعتبر عصر بركياروق مسرحًا للفتن والحروب الداخلية طمعًا في السلطنة بين بركياروق ومحمد وسنجر، ولكثرة الحروب بينهم ضعفت قوة الدولة السلجوقية[٦]، ثم -سبحان الله تعالى- تم عقد اتفاق بينهم يقضي بتقسيم الدولة فيما بينهم سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م، وينص هذا الاتفاق على أن سنجر ملكًا على مدينة مرو وكل خراسان، ولقب بملك المشرق وذلك منذ سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م، وظل ملكًا عليها مدة اثنتين وعشرين سنة قبل اعتلاء السلطنة[٧].

تقلد محمد السلطنة[٨] بعد وفاة السلطان بركياروق سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م،

---

(١) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ٢٦/ ٣٣٩.

(٢) ابن أسفنديار: تاريخ طبرستان ٣١٩، براون: تاريخ الأدب ٣٧٦-٣٧٧.

(٣) د/ عصام عبد الرءوف: الدول الإسلامية المستقلة ١٧٣.

(٤) ابن اسفنديار: تاريخ طبرستان ٣١٩، براون: تاريخ الأدب ٣٧٦- ٣٧٧.

(٥) د/ عصام عبد الرءوف الفقي: الدول الإسلامية المستقلة ١٧٣.

(٦) michael broome,Ahand book of Islamic coins p .85

(٧) دونالد ولبر: إيران ماضيها وحاضرها ٦١، عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١١١.

(٨) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية ٢٦- القاهرة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م، عبد العظيم رضابي: تاريخ ده هزار ساله إيران ٣/ ٧٦.

لكنه وراء الأخطار لم يستطع الاحتفاظ بتماسك الدولة؛ حيث ازدادت قوة ونفوذ الإسماعيلية وخطرها[١]، ولم يدمْ حكمه حتى مات سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م، وعادت المنازعات مرة أخرى على السلطنة مع العلم بأن السلطان محمدًا أمر بإعطاء ابنه محمود الذي يبلغ من العمر الرابعة عشر الحكم بموافقة الخليفة المستظهر بالله العباسي، بينما رفض عمه سنجر حاكم خراسان وما وراء النهر أن يكون تابعًا لسلطة ابن أخيه، بل فوق ذلك أعلن نفسه سلطانًا، فأصبح في الساحة سلطانان في وقت واحد[٢]؛ فصار في إيران والعراق قسمان منفصلان سلاجقة خراسان ويمثلهم السلطان سنجر، وسلاجقة العراق ويمثلهم السلطان محمود.

ثم أوقدت نار فتنة الحرب بينهم حتى انتصر سنجر[٣]، وأخذ المبايعة من الخليفة العباسي، ثم اكتسب ود وعطف ابن أخيه فعينه وليًّا لعهده، وبذلك انتهى الصراع والحروب على السلطنة.

وعندما استقر الهدوء للسلطان سنجر اتخذ مدينة مرو حاضرة له ولدولته وجعلها[٤] دارًا للحكم والسلطنة، فمنها تخرج الأوامر والقرارات السياسية وتعيين القادة والولاة، وقد بذل السلطان سنجر جهودًا لإعادة الاستقرار والتعمير والبناء بعد تعرضها للدمار والخراب، كذلك عمل على النهوض

---

(١) محمد أحمد النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ٦، عبد الله رازي: تاريخ كامل إيران ٢٠٥، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي ٨/ ١٠٥- القاهرة ١٩٨٣م.

(٢) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٠٨- ١٠٩، عصام عبد الرءوف الفقي: الدول الإسلامية المستقلة ١٧٣- ١٧٤، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ٢٧.

(٣) محمد أحمد النسوي: سيرة السلطان منكبرتي ٦، تاريخ كامل إيران لعبد الله رازي ٢٠٥- ٢٠٦.

(٤) أحمد كمال حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ٥٥، الكويت ١٩٧٥م، عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١١- ١١٢.

بكافة المرافق إلى جانب الاهتمام برجال العلم والعلماء، وحظيت هذه المدينة في عصره بأوج القمة والعظمة وقيل فيها الأشعار والنثر.

كان السلطان سنجر هو آخر سلاطين السلاجقة العظماء، فقد اعترف له جميع حكام السلاجقة بالزعامة والسلطنة، كما أشاد الخليفة العباسي بهذه المنزلة، ومن ثم زادت قوته وصارت له الكلمة العليا في السلطنة، كذلك استطاع أن يعيد إلى الدولة هيبتها ووحدتها؛ وبالتالي أعاد عصر السلاجقة الأقوياء[١].

وكانت معظم فترة سنجر فترة صراع، وكان النصر من نصيبه في بداية سلطنته، لكن كثرة الحروب التي خاض غمارها وتعدد ميادينها قد أوهنت قوته وكسرت شوكته؛ ومن ثم انتشرت الاضطرابات وأصبحت تحيط بالدولة وبالتحديد في أواخر حياته بسبب التهديدات من الخارج[٢] والتي برزت بثورة ملك خوارزم[٣] أتسز[٤] الذي أعلن التمرد والعصيان على السلطان سنجر؛ حينئذ أدرك السلطان خطورة الموقف، وخشي من خروج إقليم خوارزم من يده، فجهز جيشه وسار إلى إقليم خوارزم معلنًا الحرب على واليها أتسز عام ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م وحدث الصدام بين الفريقين حتى وقعت الهزيمة بأتسز وقتل معه عدد كبير من أتباعه وتفرق الباقون[٥].

وكان من بين هؤلاء القتلى ابن أتسز، ثم خلع السلطان سنجر أتسز من

---

(١) عباس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة ٢٦٩، دونالد ولبر: إيران ماضيها وحاضرها ٦١.

(٢) دونالد ولبر: المرجع السابق ذكره ٦٢.

(٣) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١١٥- ١١٦، دولة السلاجقة ١٠٠، فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ ٢٦.

(٤) كلمة تركية ليس معه خيل أو جواد، انظر المزيد في: النجوم الزاهرة ٥/ ٨٩.

(٥) عطا ملك الجويني: تاريخ جهانكشاي ١/ ٢٥٨.

حكم خوارزم وعين بدلًا منه ابن أخيه غياث الدين سليمان بن محمد السلجوقي، وبعد أن ثبت نفوذه وطد كيانه في خوارزم، ثم عاد السلطان سنجر إلى عاصمته مرو، لكن أتسز لم يستسلم وعاد إلى خوارزم وطرد سليمان وأرسل إلى السلطان يطلب منه العفو ويدخل في طاعته[١].

أيضًا تعرض السلطان سنجر لهجوم من جماعة من كفار الأتراك القراخطائيين[٢] على مملكته بتحريض وتشجيع من أتسز، الذي أخذ يطمعهم في البلاد ويهون عليهم أمرها حتى يثأر من السلطان سنجر[٣] الذي هزمه وقتله ابنه.

وبسبب ذلك زاد تدمير ممتلكات السلاجقة مما انتشر الذعر والرعب بين الأهالي والاستنجاد بالسلطان، فأعد جيشًا كبيرًا للقضاء على تلك القبائل، واتجه إلى ما وراء النهر[٤] والتقى الجيشان في معركة قوية عنيفة عند قطوان التي تقع شمال سمرقند سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م واقتتلا قتالًا مريرًا، وفيها هزم السلطان هزيمة منكرة، وفوق ذلك أسرت زوجته، مما وقعت بلاد ما وراء النهر في أيديهم[٥] أي: الخطائيين.

وتعتبر معركة قطوان النقطة الفاصلة بين عصرين لسنجر؛ عصر القوة

---

(١) د/ عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران ١١٦.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١/ ٢٦١، بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى ١٢٣ ترجمة أحمد السعيد سليمان، دونالد ولبر: إيران ماضيها وحاضرها ٦١- ٦٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١١/ ٨١، براون: تاريخ الأدب في إيران ٣٨٤، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ٢٦/ ٣٨٥.

(٤) الراوندي: راحة الصدور ٢٦١.

(٥) الجوزجاني: طبقات ناصري مجلد ١ ص٢٦١، بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى ١٤١.

والغلبة وعصر الضعف والخذل والانهيار، مما هزت مكانة السلاجقة حيث كانت ضربة في ظهر البعير، ونشطت قوة الخطائيين، وصاروا يشكلون خطرًا يهدد كيان الدولة والسلطان سنجر أيضًا، ومما لا شك فيه أنها بداية النهاية لدولة السلاجقة.

كانت هزيمة معركة قطوان أطمعت الأعداء في السلطان سنجر وسلطنته، فاستغل أتسز[١] ضعف السلطان وازداد معاودة العصيان، فبينما كان السلطان سنجر مشغولا بمحاربة قبائل الخطائيين، هجم بقواته على مدينة مرو عاصمة السلطان[٢]، ودخلها بالسلاح وقتل أهلها ونقيبها بهاء الدين علي بن إسحاق الموسوي[٣]، وجلس على عرش السلطان سنجر ونهب وسلب أمواله وجواهره، بل قطع الحطبة له في المدينة وسائر خراسان، وأصبحت خراسان تحت قيادة أتسز حتى رجعت للسلطان في ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م[٤].

فلما عرف السلطان بما بادر من أتسز أعد العدة على قتاله ومحاربته، فسار في قوة كبيرة فدخل أولًا خوارزم وحاصر قلعة هزاراسب، فاضطر أتسز إلى طلب العفو والصلح، إلى جانب تعهده برد كل ما أخذه من الأموال والجواهر من مدينة مرو دون أن يمسها[٥].

وبعد فترة وجيزة من الصلح عاد أتسز مرة ثانية للعصيان والخروج عن

---

(١) عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ٢٨٥.

(٢) المقريزي: السلوك ج١ القسم١ ٣٧.

(٣) ابن فندق: لباب الأنساب والألقاب والأعقاب ج١ ٤٢٣ وج٢ ٥٧٦.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ٢١٨/١٢، أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ٦٠- ٦١، الراوندي: راحة الصدور ٢٦٤- ٢٦٥.

(٥) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٢٥٦، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٩٥، زبدة التواريخ ١٨٩، براون: تاريخ الأدب في إيران ٣٨٥.

عطاء السلطان، وظلت الحروب بينهم سجالًا حتى في عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م انتهى هذا الاشتباك باعتراف السلطان لأتسز بولاية خوارزم، فكانت النواة الأولى للدولة الخوارزمية التي بدأت تظهر على المسرح السياسي، في نفس الوقت سقطت قوة السلاجقة[١].

ولا مفر من الاعتراف أن كثرة الحروب التي خاضها السلطان سنجر في شتى الميادين قد أضعفته وأفقدته السيطرة على أطراف الدولة؛ مما تهافت عليها الأعداء من الجهات المختلفة، فكان لظهور دولة الغور خطر جسيم على دولة السلاجقة.

وكانت هذه الدولة الغور تسيطر على جبال الغور ومدينة فيروزكوه بالقرب من غزنة ثم امتد نفوذها إلى هراة، وفعل ملكها علاء الدين حسين الغوري كل ما في وسعه بالتوسع ومد نفوذه على حساب الدولة السلجوقية؛ فقام بمحاصرة مدينة بلخ، فلما علم السلطان سنجر بذلك توجه بجيشه للقاء ملك الغور عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م ووقعت الحرب بينهم، وانتهت المعركة بانتصار السلطان سنجر وأسر علاء الدين ثم أطلق سراحه والعفو عنه[٢].

أما المعركة الرئيسية في القضاء على السلاجقة -وتعتبر السبب الرئيسي- فكانت فتنة الغز التي برزت في مستهل عام[٣] ٥٤٨هـ/١١٥٣م، ومن المعروف أن الغز كانوا يسكنون إقليم ما وراء النهر، ولما استولى الخطائيون على ما وراء النهر أخرجوهم منها وذهبوا إلى خراسان ومكثوا بالقرب من بلخ،

---

(١) د/ عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١١٨.

(٢) الراوندي: راحة الصدور ٢٦٦- ٢٦٧، النويري: نهاية الأرب ٢٦/ ٨٩.

(٣) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٢٢٥، تاريخ طبرستان ٣٦٧، عباس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة ٢٠٧.

وحاول حاكم بلخ إبعادهم لكنهم أرشوه بالمال فعفا عنهم؛ وأقاموا في تلك النواحي، غير أن حاكم بلخ قماج عاود وطالبهم بالانتقال عن بلده فرفضوا؛ وعندئذ سار قماج إليهم ودارت المعركة بينهم، وتجلت عن هزيمة فاحشة لقماج وجيشه، فأثاروا الغز التخريب والقتل واستباحوا النساء وقتل الأطفال وتدمير وتخريب المدارس(١).

أما قماج ففر إلى مدينة مرو مقر السلطان، وأبلغه بخبر هذه الأحداث؛ فثار أمراء الدولة السلجوقية وجهزوا قوة من مائة ألف فارس، ثم اتجه السلطان على رأس هذا الجيش إلى ديار الغز(٢)؛ لهذا أرسل الغز رسلًا يعتذرون عما حدث ووقع منهم، وبذل كثيرًا ليكف عنهم، فرفض السلطان(٣)، ودارت الحرب وأسفرت عن هزيمة منكرة لجيش السلطان سنجر، وقتل قماج وأسر السلطان وجماعة من الأمراء(٤)، وضرب الغز أعناق الأمراء.

أما السلطان فقد التف الأمراء(٥) حوله وقبلوا الأرض بين يديه، وأظهروا له الطاعة وذهبوا إلى مدينة مرو، وطلبها منه الأمير بختيار إقطاعًا فرفض السلطان بشدة؛ لأنه يعتبرها سخرًا منهم(٦).

---

(١) ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر ٢/ ٥٣، عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٣٠- ١٣١، النويري: نهاية الأرب ٢٦/ ٣٨٦- ٣٨٧.

(٢) الراوندي: راحة الصدور ٢٧٠.

(٣) ابن الوردي: المصدر السابق ذكره ٢/ ٥٣.

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء ٢٩١ القاهرة ١٣٩١هـ، ابن بيبي: أخبار سلاجقة الروم ٣٩٦، بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ٤٨٠.

(٥) encyclopedia islam vol,vi p .619

(٦) ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر ٢/ ٥٣.

ومع هزيمة وأسر السلطان قام الغز بنشر الفساد والفوضى في إقليم خراسان، بل أغاروا على مدينة مرو لمدة ثلاثة أيام، وأكثروا في أعمال السلب والنهب والقتل، واستولوا على مدخرات العظماء وأذاقوا الأهالي أنواع العذاب، وكانت مدينة مرو مكتظة بالذخائر والدفائن[١]، وقد نهب الغز الأشياء الذهبية والفضية والحريرية في اليوم الأول ثم الأشياء النحاسية والحديدية في اليوم الثاني، ثم الأشياء الرخيصة كالمراتب والأبواب والأخشاب، ولم يتركوا شيئًا تحت أو فوق الأرض إلا أخذوه في اليوم الثالث[٢].

ظل السلطان سنجر في الأسر لمدة ثلاث سنوات وبضعة أشهر إلى أن تمكن من الهرب عام ٥٥١هـ/ ١١٥٦م[٣] ودخوله مرو، فالتف الناس حوله وجلس على كرسي العرش، ثم اشتد الحزن والأسى عندما دخل داره فوجده يسوده الدمار والخراب، ومات حزنًا على ما حدث له في سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م، ودفن في مقبرته التي أنشأها وسماها دار الآخرة[٤].

صفوة القول: إن معركة الغز كانت الضربة القاضية التي قضت على السلاجقة، وقد مكث سنجر في الحكم قرابة أربعين سنة، أي: بالتحديد من سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م إلى سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م.

في أثناء وقوع سنجر أسيرًا عند الغز اجتمع أمراء خراسان، وقرروا

---

(١) حسين أمين: تاريخ العراق ١٥٦- ١٥٧، طه ندا: تاريخ الحكم التركي في إيران ٥٥، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ٢٨٨.

(٢) الراوندي: راحة الصدور ٢٧٢.

(٣) البنداري: المصدر السابق ذكره ٢٥٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ٢٩٢، الذهبي: العبر في خبر من غبر ٣/ ١٣.

(٤) الراوندي: المصدر السابق ذكره ٢٧٨.

استدعاء ابن أخت السلطان سنجر وهو الخان محمود بن محمد بن بغرخان، وعينوه نائبًا للسلطان سنجر وأقيمت الخطبة له على منابر خراسان[١]، وسلموه مقاليد الأمور سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، والتف أهل خراسان حول محمود بن بغرخان وساروا معه لمحاربة الغز، ودارت عدة حروب بين الطرفين، وانتصر الغز.

وفي عام ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م سار الغز إلى مدينة مرو وقاموا بمصادرة أموال أهلها، بينما سار محمود إلى نيسابور فوجدها في قبضة أي آبه أحد مماليك السلطان سنجر الذي له الفضل في إحراز الانتصارات على الغز وطردهم من عدة أماكن منها أبيورد[٢] وطوس ونيسابور.

وفي سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م وقعت فتنة كبيرة بالمدينة بين رئيس الشافعية المؤيد ابن الحسين ونقيب العلويين أبي القاسم زيد بن الحسين، وأسفر عن قتل عدد كبير من أهل مرو، وأحرقت المدارس والمساجد والأسواق[٣]، وساد الخراب والدمار كافة أجزاء المدينة.

أما السلطان محمود فقد قتل على يد مؤيد الدين أي آبه سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٢[٤]؛ فانقسمت دولة السلاجقة بين ثلاثة ملوك، فكانت طوس ونيسابور وبيهق للسلطان أرسلان بن محمد بن ملكشاه السلجوقي، و جرجان ودهستان لألب أرسلان خوارزم شاه، وبلخ ومرو لحاكم تلك البلاد، ثم استولى الخوارزميون على مدينة مرو وخراسان بأكملها[٥]، وأصبحت مرو في

---

(١) عطا ملك الجويني: تاريخ جهانكشاي ١/ ٢٦٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١١/ ١٨٣، عباس إقبال: الوزارة ٢٩١.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٢٣٧، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ٢٩١.

(٤) عباس إقبال: المرجع السابق ذكره ٢٩٢.

(٥) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ٣١٥، حافظ أحمد حمدي: الشرق الإسلامي قبل الغزو المغولي ٤٧.

حوزة الخوارزميين حتى وقعت في زمرة المغول، ودمروها وقتلوا جميع سكانها، ولم يبق من أهلها سوى بضع عشرات من الصناع وأرباب الحرف للاستفادة بهم، ثم قام المغول بتدمير المدينة عن آخرها وأصبحت صحراء جرداء، فلم يبق من هذه المدينة سوى أكوام أنقاض[١] وذلك عام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م.

النظمُ الإداريةُ السلجوقيةُ في مدينةِ مرو

وضع السلاجقة نظمًا لدولتهم ووضعوا رسومًا؛ ليتخذوا وسيلة في إدارة الدولة، فكان السلاجقة يتصفون بالأمية ويبعدون كل البعد عن النظم والقوانين الإدارية، وعلى الرغم أن السلاجقة يتمتعون بنضج ومهارة رؤسائهم، إلا أنهم دائمًا في حاجة هامة إلى طبقة الكتاب ورجال الدواوين لاستخدامهم في المهام المختلفة والمحافظة على إمبراطوريتهم الواسعة[٢].

وكان هؤلاء الكتاب يخدمون قبل ذلك في دويلات السامانيين والغزنويين والديالمة والخلفاء مما اكتسبوا خبرة ودراية، فلما جاءت السلاجقة ورثت هذه الطبقات مع تعديل بعض المصطلحات والتغيرات البسيطة[٣].

وإذا فحصنا النظم الإدارية للسلاجقة

١ - السلطنة

ذكرت القواميس والمعاجم العربية أن كلمة سلطان بمعنى القهر، وقد ذكرت في كتاب الله العزيز: ﴿ **وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ** ﴾ [سبأ: الآية ٢١]

---

(١) رينيه غروسيه: جنكيزخان ٣٠٩.

(٢) سعاد ماهر: الفنون ١٢٧ القاهرة ١٩٨٦م، حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي ٥٤٧، عباس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة ٣٨.

(٣) د/ أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ٢٠٩، عبد النعيم حسنين: دولة السلاجقة ١٤٢ - ١٤٤.

بينما ذكرت بعض المصادر القديمة أن سلطان مشتق من اللغة السريانية والآرامية (**Sultana**).

واستعملت كلمة سلطان كلقب لأول مرة في عهد الخليفة هارون الرشيد[١] حين سمى نفسه خالد بن برمك[٢] السلطان، ثم لقب به الغزنويون[٣]، واتخذه السلاجقة لقبًا لملوكهم[٤]، وبدأ هذا اللقب يتلاشى في عصر السلاجقة بلقب الحاكم الأعظم، وأصبح لقب الملك حاكم تابع[٥].

ونتيجة لبداوة السلاجقة تأثروا ووضعوا نظم الحكم التي طبقوها، فقد نظموا دولتهم طبقًا لطبيعتهم القبلية التي جعلت من الابن الأكبر الحق في تقلد القيادة[٦]، ولكن سرعان ما تغير هذا الإطار بتولي طغرلبك السلطنة رغم

---

(١) هو هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور العباسي أبو جعفر خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق وأشهرهم، ولد في الري ١٤٩هـ/ ٧٦٦م ومات ١٩٣هـ/ ٨٠٩م.
انظر المزيد في: البداية والنهاية ١٠/ ٢١٣، تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٣٩، الذهب المسبوك ٤٧- ٥٨، الكامل ٦/ ٦٩، تاريخ الطبري ١٠/ ٤٧ و١١٠.

(٢) هو خالد بن برمك بن جاماس بن بشتاسف أبو البرامكة، وأول من تمكن منهم في دولة بني العباس، كان أبوه (برمك) من مجوس بلخ، وتقلد خالد قسمة الغنائم بين الجند في عسكر قحطبة بن شبيب بخراسان، وكان قحطبة يستشيره ويعمل برأيه، مات ١٦٣هـ/ ٧٨٠م.
انظر المزيد في: خزانة البغدادي ١/ ٥٤٢، مرآة الجنان ١/ ٣٣٤- ٣٥٢، ٤٠٧- ٤٢٥.

(٣) ويذكر نظام الملك: أن أول من استخدم لقب سلطان هم الغزنويون، وأن محمود بن سبكتكين أول حكام المسلمين الذي لقب بالسلطان. انظر: نظام الملك ست نامه ٥١.

(٤) الراوندي: راحة الصدور ١٥٩.

(٥) المقريزي: السلوك ٣٤- ٣٥.

(٦) ابن خلدون: العبر م٣ ٩٧٠، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ٤٥، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٥٥، النويري: نهاية الأرب ٢٦/ ٣١٠.

صغر سنه عن أخيه جغري بك، إلا أن السلاجقة أجمعوا عل توليته السلطنة لما يتصف به من شجاعة نادرة[١].

ومن العجب أن اختيار السلطان طغرلبك اختُلف كل الاختلاف عن بقية السلاطين السلاجقة، ثم أصبحت السلطنة وراثية في عهد السلطان ألب أرسلان الذي تقلد ابنه بولاية العهد من بعده (ملكشاه)، ومنذ ذلك الحين بقيت السلطنة (السلاجقة) وراثية، وكان السلطان السلجوقي يتمتع بحقوق سياسية وعسكرية مطلقة، فهو الصاحب الأول في تنظيم الدولة وقيادة الجيوش وتعيين وفصل الحكام والقواد والقضاة والمحتسبين[٢].

ومن معالم تعيين السلطان السلجوقي سك النقود باسمه، وإقامة الخطبة له في سائر البلاد والمدن الواقعة في حوزته[٣]، كذلك اتخذ سلاطين السلاجقة عواصم خاصة بعيدة عن بغداد حاضرة الخلافة العباسية، فنجد السلطان سنجر جعل مدينة مرو حاضرة لمملكته[٤]، وأسس قصرًا في غاية الجمال والروعة؛ ليكون مقرًا للحكم.

وكانت قصور سلاطين السلاجقة يضرب بها المثل في الجمال، وكان الحراس يقفون على باب قصر السلطان مهيئون في حلل بهية، يبلغ عددهم عشرين غلامًا بيدهم السلاح الخاص المرصع، يحفون حول عرش السلطان

---

(١) الراوندي: راحة الصدور ٧٠- ١٧٤.

(٢) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٥٥، النويري: نهاية الأرب ٢٦/ ٣١٠، عباس إقبال: المرجع السابق ذكره ٤٥.

(٣) حسين أمين: تاريخ العراق ٩٤- ٩٥، رينيه غروسيه: جنكيزخان ٣٠٨.

(٤) محمد محمود إدريس: رسوم السلاجقة ٦٤ - القاهرة ١٩٩٨م.

ومهمتهم الاحتفاء بالرسل القادمين من الأطراف[١] فضلًا عن مائتي رجل مسلحين حسني المظهر والطول الفارع والرجولة والشجاعة لمرافقة السلطان وتوفير الراحة له، وكان لكل خمسين منهم نقيب يتولى شئونهم والإشراف عليهم وإسنادهم المهام المكلفين[٢] بها.

وكان السلاطين السلاجقة يفتحون باب السلطنة للمتظلمين حتى لا يكون السلطان في موقف الظالم لرعاياه[٣]، وكذلك وضع السلطان محكمة عليا لسماع المظالم[٤] وحسم المنازعات التي يعجز عن بحثها القضاء، وكان يرأس مجلس سماع المظالم السلطان أو مَن ينوب عنه[٥].

وللسلطان السلجوقي ملابس خاصة؛ منها رداء خاص عند لقائه بالناس يرتديه عند جلوسه على العرش، فنجد مثل السلطان ألب أرسلان كان يرتدي قلنسوة تبلغ طولها من أعلاها إلى طرف شاربه ذارعين[٦]، عكس السلطان سنجر فكان لا يتكلف في ملبسه؛ فقد لبس في معظم الأوقات ثوبًا زندنجيًّا أو عتابيًّا من الحرير غير المنقوش، وصديريًّا رقيقًا[٧].

أما شارات السلطنة السلجوقية فكانت عبارة الخيمة الحمراء الجهرمية[٨]

---

(١) نظام الملك: سياست نامه ١٣١.

(٢) الراوندي: راحة الصدور ٢١٢، نظام الملك: سياست نامه ١٥٩.

(٣) د/ عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية ٥٣.

(٤) الراوندي: راحة الصدور ٢١٢.

(٥) عطية مشرفة: القضاء في الإسلام ١٧٥- القاهرة ١٩٦٦م، إبراهيم أحمد العدوي: النظم الإسلامية ٢٩٥ مكتبة الأنجلو ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

(٦) الراوندي: المصدر السابق ذكره ٨٦.

(٧) الراوندي: المصدر السابق ذكره ٢٦٠، ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ١٥٤.

(٨) الراوندي: راحة الصدور ٢١٩.

والتخت والتاج والقباء والهودج[١] والخاتم والتوقيع[٢]، وكان توقيع السلطان سنجر (توكلت على الله، والخوان)[٣]، أيضًا كان للسلطان خزانة خاصة في دار السلطنة[٤]، وللسلاجقة عامة خزانتان: الخزانة الأصلية وخزانة الإنفاق[٥]، وكان بدار السلطنة رئيس الفراشمن وصاحب المظلة وصاحب الطشت[٦]، ومن هنا نجد أن السلطان يتمتع بحقوق سياسية وعسكرية ومالية مطلقة.

٢- ولي العهد

كان للسلاجقة نظام مختلف عن بقية النظم الإسلامية الأخرى، فكان السلطان السلجوقي يعين أكبر أبنائه وليًّا لعهده قبل مماته، وإن لم يكن للسلطان ابن فيولي أخاه وليًّا لعهده، وهناك صفات وشروط لولي العهد؛ منها: يتمتع بشخصية قوية، فضلا عن مكانة رفيعة بين أفراد البيت السلجوقي وتأييدهم وموافقتهم عليه سلطانًا، فضلًا عن موافقة الخليفة العباسي[٧]، وأول من ولى ابنه هو السلطان ألب أرسلان بعد مبايعته بالعهد من بعده[٨]، ثم سار سلاطين السلاجقة على هذا النهج.

---

(١) الراوندي: راحة الصدور ٢٢٠.

(٢) الراوندي: المصدر السابق ذكره ١٦٣.

(٣) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ١١٢.

(٤) أدي شير: الألفاظ الفارسية المعربة ٥٨ بيروت ١٩٨٠م.

(٥) الراوندي: المصدر السابق ذكره ٢٢٤.

(٦) نظام الملك: سياست نامه ٢٩٣.

(٧) د/ محمد عبد الحليم أبو النصر: السلاجقة تاريخهم السياسي والحربي ١٣٨ القاهرة ٢٠٠٣م.

(٨) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٢٦٠، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٧٤- ٧٥، الراوندي ٢١٥.

٣- نائب السلطان

عندما دب النزاع والانقسام بين دولة السلاجقة في عهد السلطان سنجر أدى تقسيمها إلى قسمين؛ ومن هنا ظهر منصب نائب السلطان، وأصبح سلاجقة خراسان ويمثلهم سنجر، وسلاجقة العراق ويمثلهم السلطان محمود[١]، وانفجرت الحرب بينهما وانتصر سنجر وأخذ بيعة الخليفة العباسي، ثم قام السلطان سنجر بمصالحة ابن أخيه فعينه وليًّا للعهد ونائبًا له في العراق، فكان محمود بن محمد بن ملكشاه أول من عين نائبًا للسلطان، وكان يلقب في نفس الوقت سلطانًا، بينما كان سنجر يحمل لقب السلطان الأعظم، ويلزم محمود بطاعته ولا يعمل إلا بمشورته[٢].

وتتأكد هذه التبعية حينما مات السلطان محمود فتوجه قادة السلاجقة إلى السلطان سنجر في مدينة مرو طالبين منه أن يختار للعراق سلطانًا، وبالفعل وقع اختيار سنجر على طغرل بن محمد بن ملكشاه، وهكذا أصبح نائب السلطان يُعين من قبل السلطان السلجوقي، وكان أيضًا نائب السلطان يشترك مع السلطان في بعض المراسم حيث يرتدي القباء المرصع بالجواهر، وله خيل خاص، بينما لا يسمح له بالخيمة الحمراء ولا يُدق له بوق في وقت الركوب أو النزول[٣].

---

(١) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ٣١٤، محمد أحمد النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ٦.

(٢) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ١٢٨- ١٢٩، عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٠٩- ١١٠، دولة السلاجقة ١٣٨.

(٣) محمد محمود إدريس: رسوم السلاجقة ١٣٨.

٤- الوزير والوزارة

كانت الْوَزارة في العصر السلجوقي عبارة عن عدة إدارات، كل إدارة تختص بشأن من شئون الديوان وتعرف باسم الصدارة، والوَزارة هي أكبر الوظائف والمناصب الحكومية في السلطنة السلجوقية(١).

فالوزير يرأس جميع رجال الديوان ويشرف على جميع أعمال الدولة وأجهزة الحكم ويخضع له موظفوها، مما جعله يمسك بيده زمام الأمور في الدولة ويستطيع توجيه سياستها في الداخل والخارج، كما كانت تمتد سلطته إلى حكم الولايات وخاصة إذا كان قويًّا نافذ الكلمة(٢)، ويعتبر الوزير أيضًا المستشار الأول للسلطان وساعده الأيمن، ودائمًا يرافقه في رحلاته وترحاله(٣)، وربما لأهمية هذا المنصب فقد أصبح محطَّ أنظار الجميع، واشتدت حوله المنافسات(٤) والمؤامرات للفوز به.

وكان الوزير يتسم بأن يكون متدينًا، عالمًا، خبيرًا، حسن السيرة، عارفًا بقوانين الملوك، مسلحًا بتجارب العصور، مقرًّا لمصالح المسلمين، فإذا أراد الله بملك خيرًا قيض له وزيرًا صالحًا إن نسي ذَكَّرَه، وإن نوى أعانه، وإن أراد شكرًا كفله(٥).

---

(١) الصابئ: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ٧ بغداد ١٩٥٨م، أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ٢٠٩.

(٢) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٥٨- ١٥٩.

(٣) أحمد كمال الدين حلمي: المرجع السابق ذكره ٢٠٩.

(٤) أحمد كمال الدين حلمي: المرجع السابق ذكره ٢٠٩- ٢١٠، عبد النعيم حسنين: المرجع السابق ذكره ١٥٩- ١٦٠.

(٥) عباس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة ٤٦- ٤٧.

ومن أشهر الوزراء في عهد السلاجقة كيا مجير الدولة الذي ظل يشغل هذا المنصب إلى أن استولى عليه فخر الملك أبو الفتح بن نظام الملك[١]، وكان فخر الملك حريصًا على نشر العدل، ومحاربة الظلم، كما بذل جهودًا كبيرة؛ لتوفير مهمة العلم وطلابه، وتقوية أحكام الشريعة، وكان الوزير شرف الدين أبو طاهر بن سعد الدين القمي متدينًا، شديد الالتزام بأصول الدين[٢]، والوزير معين الدين أبو نصر بن أحمد الكاشي كان فاضلًا، لم يَسْعَ لهذا المنصب، وقد قبله تحت الضغط بعد محاولات كثيرة من السلطان سنجر[٣]، كذلك الوزير أبو القاسم محمود بن المظفر المروزي كثير الصلاة والصدقة[٤].

٥- الحجابة

وهي من أهم الوظائف الإدارية في الدولة السلجوقية، فقد استعمل سلاطين السلاجقة الحجاب بباب السلطنة (الدركاه)، وكان الحاجب بحكم عمله يشرف على سير الأمور في البلاط السلجوقي، وقد لقب بـ(حاجب بزرك) أي: (الحاجب الأعظم)[٥].

ومن أعماله تنظيم الاتصال بين السلطان والرعية، كما كان حلقة الوصل بين السلطان والوزير[٦] حيث كان يتلقى أوامر السلطان شفاهة ويبلغها للوزير، وعلى الوزير تنفيذها[٧]، وكان هذا المنصب محط أنظار الكثيرين؛ إذ

---

(١) عباس إقبال: المرجع السابق ذكره ٢٨٢.

(٢) خواندمير: دستور الوزراء ٢٧٥- ٢٧٦.

(٣) خواندمير: المصدر السابق ذكره ٢٧٩- ٢٨١.

(٤) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٦١، دولة السلاجقة ١٤١.

(٥) عباس إقبال: الوزارة ٤٤.

(٦) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ٢١٢.

(٧) أحمد كمال الدين حلمي: المرجع السابق ذكره ٢١٢.

كان وسيلة سريعة للثراء والشهرة لمن يتولاها[١]، وكان السلطان[٢] يقوم بتعيين الحاجب وغالبًا يكون أحدًا من خواصه، وقد رفع السلطان سنجر علي الجتري الذي كان من ندمائه إلى منصب الحاجب[٣].

أيضًا كان للحاجب نائبٌ يساعده في إدارة أمور الدولة[٤] ويقوم بتنفيذ أوامره وتصريف أعماله[٥]، وكان عمل الحاجب يشبه عمل الأمين بقصر الحاكم في عصرنا[٦].

٦- الدواوين

كما قلت: الدواوين عبارة عن عدة إدارات، كل إدارة تتولى شأنًا من شئون الديوان، وقد اقتبس السلاجقة من الدولة الغزنوية[٧] عدة دواوين؛ ديوان الاستيفاء وديوان الإشراف وديوان الطغراء وديوان عرض الجيش، وكل ديوان بمثابة ما نطلق عليه الآن وزارة يرأسها وزير يساعده عدد من الموظفين المهرة[٨].

أ-**ديوان الاستيفاء**: هذا الديوان يختص بالشئون المالية[٩]، ويطلق على

---

(١) الراوندي: راحة الصدور ٢٧٦.

(٢) محمد محمود إدريس: رسوم السلاجقة ٩٣.

(٣) محمد محمود إدريس: المرجع السابق ذكره ٩٣.

(٤) الراوندي: راحة الصدور ٢٥٩.

(٥) حسين أمين: تاريخ العراق ١٨٣- ١٨٤.

(٦) عبد النعيم حسنين: دولة السلاجقة ١٤١.

(٧) عباس إقبال: الوزارة ٤٣.

(٨) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٦٤.

(٩) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ٢٠٩- ٢١٠.

رئيسه والقائم بإدارته باسم (المستوفي) وتلي مرتبته مرتبة الوزير[١]، ومهمة هذا الديوان تنظيم إيرادات الدولة ومصروفاتها، وكذلك الإشراف على الضرائب والأموال الخاصة بالدولة، وهو من أهم دواوين السلاجقة في أوقات السلام والحرب[٢].

وكان السلطان يختار صاحب هذا الديوان من ذوي الخبرة في الشئون المالية، وله سمعة حسنة وطيبة، كما يتسم بأن يكون ملمًّا بأسرار المعاملات ودقائق الحسابات، ويكون قلمه حكم عدل وصادق[٣].

وأشهر من تقلد هذا الديوان ناصر خسرو[٤] الذي كان يخدم في البلاط السلجوقي، فأسندت إليه وظيفة رئاسة ديوان الاستيفاء في مدينة مرو في عهد جغري بك[٥].

وللمستوفي نواب أو وكلاء في كل ولاية من ولايات السلطنة السلجوقية، مهمتهم ضبط أوراق الدخل والمنصرف، وكذلك مراقبة الخراج والضرائب، وإرسال تقارير إلى الديوان (الاستيفاء).

وذكرت لنا المصادر بأن جاء في منشور استيفاء زين الدين أبي العلاء صاعد بن الحسين المستوفي فيما يتعلق بعمله في مدينة مرو، ونحن نوكل إليه استيفاء كل خطة مرو، مدنها وقراها، فيما يتعلق بالأموال والأملاك والزيادات، ننيبه عنا في استيفاء ما يخص الحضرة من خراج، عام ثلاث

---

(١) عبد النعيم حسنين: دولة السلاجقة ١٤٦، عباس إقبال: المرجع السابق ذكره ٥٠.

(٢) عباس إقبال: الوزارة ٥٠.

(٣) عباس إقبال: المرجع السابق ذكره ٥٠.

(٤) عباس إقبال: المرجع السابق ٥١.

(٥) أحمد كمال الدين حلمي: المرجع السابق ٢١٠.

وأربعين وأربعمائة، ونصرح له بإنجاز ما عهدنا به إليه بكامل حريته ووفق آماله العريضة، على أن يتبع في تنظيم الحسابات وضبطها الطرق الخاصة قديمها وحديثها، ويرسل نائبًا حكيمًا إلى شتى الأنحاء لضبط الخراج[١]، وهؤلاء الموظفون يشتهرون بالصدق والأمانة[٢].

وفي عهد سنجر يتم تحصيل الأموال وترسل إلى ديوان الاستيفاء في مدينة مرو، وأشهر من تولى المستوفي في عصر سنجر (معين الدين الخوارزمي)[٣].

ب-**ديوان الإشراف**: كانت مهمة الديوان ضبط الحسابات والإشراف عليها والمقارنة بين الصادرات والواردات، وهو النصف الثاني لديوان الاستيفاء في إدارة أموال الديوان[٤]، وكان صاحبه المشرف الذي يرسل نوابه وأتباعه إلى كل ولايات الدولة السلجوقية حتى يمكن القيام بعمله على أحسن وجه، وتسجيل المعاملات المالية في دقة تامة بالديوان لإجراء المحاسبة[٥].

ج-**ديوان الطغراء والرسائل**: الطغراء كلمة تركية بمعنى الخط المقوس الذي يُوضع في صدر الأوامر والمنشورات والفرمانات، كما هو معروف لعلامة كل سلطان، بالنسبة للفظ (بسم الله)، وكان يعهد إليه برسم هذا الخط المقوس، ويسمى باللغة العربية (طغراني) وباللغة الفارسية (طغراكش)[٦].

---

(١) منتخب الدين الجويني: عتبة الكتبة ٤٨- طهران ١٣٢٩هـ.

(٢) محمد محمود إدريس: السلطان سنجر ١١٤ - القاهرة ١٩٨٨م.

(٣) عباس إقبال: الوزارة ٥٢، شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات ٥٨٢- دار المعارف- القاهرة ١٩٨٢م.

(٤) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٦٢- ٦٣، أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ٢١٠- ٢١١.

(٥) حسين أمين: تاريخ العراق ١٩٩، البنداري: المصدر السابق ٦٢.

(٦) محمد محمود إدريس: السلطان سنجر ١١٤- ١١٥.

ويطلق على رئيس هذا الديوان اسم الطغراني، وكان التعامل مع السلطان والوزير مباشرة؛ لأنه هو المسئول الأول بتوصيل الرسائل والفرمانات والمنشورات إلى السلطان، فهو الذي يصدر عنه الأوامر الموقعة بتوقيعه والمخاتمة والمذيلة بشعاره، وكان أيضًا يتسلم مهام الوزير وينوب عنه إذا خرج مع السلطان للصيد أو الحرب[١].

د-**ديوان الإنشاء والرسائل**: وهو تابع لديوان الطغراء، وكان يرأسه شخص يعرف بالرئيس أو الوزير أو صاحب ديوان الرسائل، وهو في الحقيقة رئيس الديوان للإنشاء السلطاني، يأتمر بأمره عدد كبير من الموظفين والمحررين المنشئين الذين كانوا ينعمون بثقة الدولة ويحفظون ويكتمون أسرارها[٢]، فهم بحق نظام الأمور وكمال الملك وبهاء السلطان والألسنة الناطقة عن الملوك وخزان أموالهم وأمناؤها على رعيتهم وبلادهم[٣].

أيضًا كان ديوان الرسائل والإنشاء يشرف على جميع المكاتبات الرسمية والمراسيم التي يصدرها السلطان إلى الولاة والحكام وغيرهم، وكذلك يعهد ويسند إليه بتنظيم علاقة الدولة في الخارج والداخل[٤]، وكان من الواجب عليه أن يحضر المجالس التي كان يعقدها السلطان لسماع المظالم، ويقوم بأداء الرأي وكتابة أهم النقاط والملاحظات[٥].

وكان من صفات صاحب هذا الديوان الكفاءة والسرية والذكاء والفطنة

---

(١) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ٢١٠.

(٢) أحمد كمال الدين حلمي: المرجع السابق ذكره ٢١٠، عباس إقبال: الوزارة ٥٢- ٥٣.

(٣) يحيي الخشاب: التقاء الحضارتين العربية والفارسية ١٩- ٢٠ القاهرة ١٩٧٠م.

(٤) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٦٤.

(٥) ابن مماتي: قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال-مدبولي القاهرة ١٩٩٤م.

والحذر[١]، وأن يكون بارعًا باللغة والأدب والفلسفة والتاريخ والجغرافيا وعلوم الدين من فقه وتفسير وحديث، عارفًا بالثقافتين العربية والفارسية[٢]، ومن أشهر من أُسند إليه هذا الديوان نصير الدين أبو القاسم محمود بن أبي تربة المروزي من الكتاب المهرة ومن العلماء والأدباء، تقلد هذا الديوان في عهد السلطان سنجر ثم تقلد الوزارة سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م[٣].

أيضًا من أفضل وأحسن من تقلد هذا الديوان في العصر السلجوقي منتخب الدين الجويني كاتب الرسائل في عهد سنجر، وقد سجل عددًا كبيرًا من الرسائل والأوامر السلطانية في كتابه (كتبة الكتبة)[٤].

هـ-ديوان عرض الجيش: يعرف هذا الديوان في وقتنا بوزارة الحربية؛ لأنه يختص بشئون الجند وما يتعلق بالناحية العسكرية[٥]، ويحتوي هذا الديوان على أسماء الجند ورواتبهم وتسليحهم وتجهيزهم للحرب، وتنظيم تغذيتهم وتفقد مظهر المجندين ورجال الجيش[٦].

يطلق على صاحب هذا الديوان اسم العارض؛ لأنه يقوم بعرض الجيش على السلطان؛ ليعرف مدى كفاءته وقدرته على الخروج للقتال[٧]، وكان للعارض نائب يقيم معظم وقته في الحضرة ويقود دفة إدارة هذا الديوان في حالة

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ١/ ٤٣- ٤٤ دار الكتب المصرية-القاهرة ١٩٦٣م.

(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام ١/ ١٨٧- ١٨٩ النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٦م.

(٣) عباس إقبال: الوزارة ٣٨٥.

(٤) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٦٤- ١٦٥، دولة السلاجقة ١٤٧.

(٥) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة ٢١١، حسين أمين: المرجع السابق ٢٠٥، عباس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة ٥٧.

(٦) أحمد كمال الدين حلمي: المرجع السابق ٢١١.

(٧) عباس إقبال: المرجع السابق ذكره ٥٧.

غيابه؛ لأن العارض دائمًا يمكث في المعسكرات الهامة[١]، وقد ارتفع شأن هذا الديوان لكثرة الحروب التي قام بها سلاطين السلاجقة في أوقات قوتهم وضعفهم فلم يمر عصر من عصور سلاطينهم إلا وبه حروب ومنازعات[٢].

ولكل ديوان نائب عنه يتولى منصب صاحبه في أثناء غيابه، وحوله عدد من كبار الكتاب والموظفين من ذوي السمعة الحسنة وسَعَة الثقافة وجمال الخط[٣].

أيضًا بالإضافة إلى الدواوين السابقة وجدت عدة مناصب ووظائف هامة يقوم السلطان بتعيينهم نذكر منهم:

٧- وكيلدار السلطان

وهو أعلى منزلة من الحاجب[٤]؛ لأن صاحبه يكون دائمًا ظلًا وملتصقًا بالسلطان؛ ليعرف أخلاقه ومزاجه وطبائعه ويدرك ما يرضيه وما يرفضه ويغضب منه؛ حتى لا يحدثه في أمر دون اختيار الوقت المناسب للإفصاح عنه[٥].

ومن شروط هذا المنصب أن يكون قوي الحجة، بليغًا بعيد النظر؛ وذلك لإقناع السلطان، وكان يقيم في القصر السلجوقي، ويأخذ راتبه من السلطان، وكان يُسمى في بلاد الفرس والعجم وكيلدار، أي: بمعنى وكيل الباب[٦].

---

(١) عباس إقبال: المرجع السابق ذكره ٥٧.

(٢) عبد النعيم حسنين: دولة السلاجقة ٤٧.

(٣) نظام الملك: سياست نامه ٢٠٣- ٢٠٦، أحمد كمال الدين حلمي: المرجع السابق ذكره ٢١١.

(٤) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٩١، أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ٢١٢.

(٥) حسين أمين: تاريخ العراق ١٨٦، أحمد كمال الدين حلمي: المرجع السابق ذكره ٢١٢.

(٦) محمد عبد العظيم أبو النصر: السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ٢٧٨.

٨- العميد

ابتكر السلاجقة هذه الوظيفة، وكان يتقلد من قبل السلطان، وهي عبارة عن وظيفة إدارية، وقد لقب صاحب هذه الوظيفة بعميد العراق[١]؛ لأنه يتمتع بسلطان أوسع وأكبر من سلطات الشحنة، فالعميد يشرف على العراق كلها بينما صاحب الشحنة يشرف على مدينة بغداد فقط، وعليهما[٢] حفظ الأمن، وبمعنى آخر يعتبر العميد نائبًا عن السلطان السلجوقي بمنطقة العراق وبغداد[٣].

ومهمة العميد مراقبة دواوين الدولة وعمل الإصلاحات الإنشائية ومراقبة الخليفة العباسي وحاشيته.

ومن أشهر من تقلد هذه الوظيفة: أبو العباس الخوافي الذي تولى منصب العميد من قبل السلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م، وأصبح عميدًا للعراق لمدة ثماني سنوات حتى تركها[٤].

٩- الشحنة

أيضًا من الوظائف التي ابتكرها السلاجقة وهو ما يعرف الآن بالمحافظ، فهو يقوم بإدارة المدينة والمحافظة على الاستقرار والأمن بها، ويتمتع بسلطات بوليسية وإدارية واسعة[٥].

---

(١) محمد عبد العظيم أبو النصر: المرجع السابق ذكره ٢٩٦.

(٢) أحمد كمال الدين حلمي: المرجع السابق ذكره ٢١٣.

(٣) ابن خلدون: العبر ٣/ ٤٨٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٢٥٨، محمد عبد العظيم أبو النصر: السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ٣٠٠.

(٥) الأزدي: تاريخ الدول المنقطعة ٣٠٢، حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي ٥٨٧.

ويجب على من يتقلد هذه الوظيفة أن يكون ملمًّا وعالمًا بأمور الدين، أمينًا دقيقًا في تقصي التحريات[١] الصغيرة والكبيرة؛ حتى يستطيع المحافظة على أمن واستقرار المدينة، وكان لكل مدينة شحنة يتولى إدارتها، وقد تولى شحنة مرو الأمير قودن سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م، وهو من مماليك السلطان ملكشاه[٢].

١٠- الاسفهسالار

كان يلقب على كل من يتقلد قيادة الجيش في العصر السلجوقي بالاسفهسالار[٣]، ومع مطلع العصر السلجوقي كانت القيادة في يد الأسرة السلجوقية، ثم أسندت بعد ذلك للوزراء والقواد الذين منحوا هذا اللقب (الاسفهسالار)، وكان يتقلد من قبل السلطان، ويتميز بالكفاءة العسكرية والصراحة والحزم والقوة، وممن تولى هذا المنصب قماج والي بلخ[٤].

١١- صاحب الشرطة

وهو من أهم المناصب والوظائف الإدارية في هذه الدولة، حيث تتركز وظيفته في الإشراف على الجند الذين يحافظون على النظام ويبذلون كل ما لديهم من طاقة وجهدٍ لاستتباب الأمن[٥].

---

(١) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة ٢١٣.

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٣٣٥- ٣٣٦، السبكي: طبقات الشافعية ٤/ ٣٢٥، عباس إقبال: تاريخ إيران ٢٥٩.

(٣) حسين أمين: تاريخ العراق ٢٠٥.

(٤) محمد عبد العظيم أبو النصر: السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ٣٠٥، أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ٢١٣.

(٥) ابن الوردي: تتمة المختصر ٢/ ٥٣، عبد النعيم حسنين ١٣٠- ١٣١.

وقد نقلت هذه الوظيفة من العباسيين الذين يختارون صاحب الشرطة من كبار القوم ومن أهل العصبية والقوة[١]، وكان عمل الشرطة قديمًا إقامة الحدود وتنفيذ أحكام الجرائم[٢]، ثم اتسع نطاق عمل رجال الشرطة ليقوموا بالإشراف على أمور الدولة.

١٢ - المحتسب

من أكثر الوظائف الإدارية أهمية، ويتفق الفقهاء والعلماء في معنى المحتسب بأنها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[٣]، هذا ما أشار إليه كتاب الله العزيز: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقد اتسعت مهام واختصاصات المحتسب معظمها يتعلق بالدين والناس؛ منها: المحافظة على صلاة الجماعة وأداء الزكاة ومراقبة آداب السلوك والأخلاق العامة[٤]، أيضًا الإشراف على الجوامع والمساجد ونظافتها، كذلك حضور وتفقد مجالس الوعاظ فلا يدع الرجال يختلطون بالنساء، ويحضر المآتم والمقابر، فإذا سمع نائحة عزرها ومنعها[٥].

ومن اختصاصات المحتسب أيضًا: منع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل، وكذلك الحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالتها،

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٥/ ٤٥٠.

(٢) عطية مشرفة: القضاء في الإسلام ١٦٦ - القاهرة ١٩٦٢م.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية ٢٧٠، ابن تيمية: الحسبة في الإسلام ٦ - القاهرة ١٤٠٠هـ.

(٤) ابن الإخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة ١٢ - ٢٤ - القاهرة ١٩٧٦م، عطية مشرفة: القضاء في الإسلام ١٨٣.

(٥) ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ٢١١ - ٢١٥ بغداد ١٩٦٨م، الشيرازي: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ١٠٩ - ١١٠ القاهرة ١٩٦٣م.

وإزالة بروز مصاطب الحوانيت في الأسواق، وإماطة الأذى عن الطريق[١].

أيضًا من اختصاصاته: الإشراف على الأسواق ومراقبة الموازين والمكاييل، وتحديد الأسعار وضبط عملية البيع والشراء؛ لمنع عملية الغش، كذلك أيضًا الإشراف على البضائع وبيعها في الأسواق لمنع الاحتكار[٢]، وكذلك مراقبة أصحاب الحرف على اختلاف أنماطهم كالخياطين والصباغين والحاكة والخبازين والصيادلة والأطباء وغيرهم[٣].

وللمحتسب أعوان في المدن الواقعة في حوزة الدولة السلجوقية؛ لتسهيل مساعدته في القيام بأعماله[٤].

ولخطورة أهمية منصب المحتسب فلا بد أن يكون فقيهًا عالمًا بالأحكام الشرعية، حسن النية، صادقًا عدلًا، مواظبًا للفرائض والواجبات، كريم الخلق لين القول، طلق الوجه، عفيفًا[٥]، وهو دعم من دعائم الاستقرار والعدالة والأمن حيث نال حظي السلاجقة.

١٣- قاضي القضاة

هي وظيفة دينية هدفها الفصل بين المتنازعين حسب ما ورد في الشريعة الإسلامية[٦]، والقضاء بمعنى القطع؛ لقول الله تعالى: ﴿ **فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ** ﴾ [طه: ٧٢].

---

(١) إبراهيم أحمد العدوي: النظم الإسلامية ٢٩٨ القاهرة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

(٢) إبراهيم الدسوقي الشهاوي: الحسبة في الإسلام ٨٣- القاهرة ١٩٦٢م.

(٣) ابن بسام: المصدر السابق ذكره ١٨- ١٩، الشيرازي: المصدر السابق ٢٢- ٩٧.

(٤) ابن الإخوة: معالم القرية ٢٨، الشيرازي: نهاية الرتبة ٨- ٩.

(٥) ابن بسام: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ١٠- ١٥، الشيرازي: المصدر السابق ذكره ٦- ٩.

(٦) ابن تيمية: الحسبة في الإسلام ٦- ٣٤، إبراهيم الدسوقي الشهاوي ٧٢.

ومن اختصاصات قاضي القضاة الفصل في الأوقاف والدعاوى والنفقات وتنصيب الأوصياء، وفي بعض الأوقات تضاف إليه الشرطة والحسبة والمظالم وبيت المال ودار السكة[١]، وكان هناك شروط في من يتقلد هذه الوظيفة: أن يكون حرًّا بليغًا عاقلًا مسلمًا، عادلًا، سليم الحواس، عالمًا بالأحكام الشرعية، عارفًا بأسرار التشريع[٢].

وفي الواقع أن السلاطين السلاجقة سيطروا على السلطة القضائية سيطرة كاملة، فقاموا بتعيين قاضي القضاة دون النظر إلى الخليفة العباسي في ذلك، حيث أسندوا هذه الوظيفة لعائلة الداغوني[٣]، وظلت تتوارث هذه المهنة مدة ثم خلعوا ثم عادوا، وكان للسلاجقة هدف من وراء ذلك ضمان استمرار ولاء تلك العائلة لهم والتصدي لأي مقاومة ضدهم[٤].

ومن أشهر من تولى منصب قاضي القضاة أبو عبد الله الدمغاني ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، وظل في هذا المنصب حتى مات سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م[٥]، وأبو بكر بن أبي المظفر السمعاني الشافعي المروزي الذي تقلد منصب قاضي القضاة بعد وفاة أبي عبد الله الدمغاني، بناءً على ترشيح نظام الملك سنة (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م إلى سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)[٦] ثم عادت الأسرة الدمغانية لتولى هذه الوظيفة.

---

(١) عطية مشرفة: القضاء في الإسلام ١٦٦.

(٢) عطية مشرفة: القضاء في الإسلام ١٥٨- ١٥٩.

(٣) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ٣٦٥- ٣٦٦.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٥/ ٣٤٧، عبد العظيم أبو النصر: السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ٣٢٨.

(٥) السبكي: طبقات الشافعية ٣/ ٨٧- ٨٨.

(٦) الحسيني: طبقات الشافعية ١٩٧- ١٩٨.

والنقطة الملفتة للنظر أن هذه الوظيفة ارتبطت بتاريخ كل سلطان وكل وزير، ففي عهد وزارة الكندي نصير الحنفية كان قد عين أبو عبد الله الدمغاني في منصب قاضي القضاة؛ لأنه حنفي المذهب، بينما عين نظام الملك الشافعي أبا بكر محمد بن أبي المظفر المروزي الشافعي[١].

كان لقاضي القضاة امتيازات كبيرة في العصر السلجوقي؛ فمنها: أنه نائبٌ عن السلطان في المهام القضائية[٢]، كما كان من حقه تعيين القضاة لكل مدينة من مدن الدولة السلجوقية[٣]، وقد حظي القضاة باحترام سلاطين السلاجقة وأعطيتهم[٤].

ومن أشهر هؤلاء القضاة في مدينة مرو القاضي الحسين بن محمد بن أحمد أبو علي المروزي[٥] شيخ الشافعية في عصره وأحد أصحاب الوجوه، تتلمذ على أبي بكر القفال[٦]، مات سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م.

١٤ - الطشت دار

صاحب هذه الوظيفة يقوم بصب ماء الغسيل للسلطان وتجهيز الحمام له، وهو قريب من السلطان[٧].

---

(١) السبكي: المصدر السابق ذكره ٣/ ٨٨.

(٢) نظام الملك: سياست نامه ٧٣.

(٣) عطية مشرفة: القضاء في الإسلام ١٦٠.

(٤) الراوندي: راحة الصدور ٤٤١.

(٥) الراوندي: المصدر السابق ٤٤١.

(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ٣/ ٣١٠.

(٧) حسين أمين: تاريخ العراق ٢٠٥.

١٥ - الساقي

وهو الذي يقوم بالإشراف على عمل ومد الأسمطة وكل ما يتعلق بتقديم المأكولات والمشروبات للسلطان وضيوفه[١].

١٦ - الجاشنكير

وهو الذي يتولى تذوق أصناف الطعام والشراب المختلفة قبل أن يأكل منها السلطان، خشية من أن يكون هذا الطعام والشراب مسمومًا[٢].

١٧ - أمير الحرس

من الوظائف الهامة؛ حيث يوجد لكل إقليم من أقاليم الدولة السلجوقية أمير أو ملك، ولكل منهم حرس وأتباع يرأسهم شخص يسمى أمير الحرس[٣]، كان يقيم بجوار باب السلطان مع الحاجب الكبير، يتولى الطبل والعلم والنوبة ويكون بجواره خمسون رجلًا من أصحاب المخاصر (الرمح والمرزاق) وعشرون بدبابيس ذهبية وعشرون معهم بدبابيس فضية، وعشرة بدبابيس ضخمة، ينفذون ما يأمر به السلطان في مجلس السلطنة[٤].

وقد أخذ شأن أمير الحرس مكانة عظيمة، فهو يقوم بالإشراف على حرس الأبواب وأصحاب النوبة وعلى الحرس الخاص بالسلطان والحريم والاستفسار عن أحوالهم للاطمئنان على حماية وسلامة السلطان[٥].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٥/ ٥٦٩، حسين أمين: تاريخ العراق ٢٠٣.

(٢) محمد محمود إدريس: السلطان سنجر ١١٧.

(٣) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٦٦، دولة السلاجقة ١٤٨.

(٤) عبد العظيم أبو النصر: السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ٣١٣.

(٥) نظام الملك: سياست نامه ١٧٧.

١٨- صاحب البريد

وهو الإشراف على البريد[١] في جميع أنحاء الأراضي السلجوقية ومراقبة الرعية والتجسس عليهم، ثم نقل الأخبار مباشرًا للسلطان، فكان عمال البريد عبارة عن[٢] عيون وجواسيس للسلطان والوزير، ينقلون إليهم كل شيء فيحيطان علمًا بما يجري في أنحاء الدولة[٣]، ويعتبر عملهم عمل رجال المخابرات في الوقت الحالي من حيث مراقبة تصرفات العمال والرعية[٤].

ثم سرعان ما وقع الخلاف والصدام بين السلطان ألب أرسلان ووزيره[٥] نظام الملك حول إلغاء هذه الوظيفة فقال: (إن الدنيا لا تخلو، كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء، فإذا نقل إلينا صاحب الخبر وكان له غرض أفرج الصديق في صورة العدو، والعدو في صورة الصديق، وحينئذ تختل الأمور اختلالًا يصعب تلافيه) فأمر السلطان بإلغاء هذا الديوان مما أدى إلى قطع الأخبار بين السلطان السلجوقي وعماله في الأقاليم، مما أدى إلى علو شأن الطائفة الإسماعيلية، وأصبحت خطرًا على كيان السلطة السلجوقية[٦].

صفوة القول: وضع السلاجقة نظامًا إداريًّا قويًّا تمكنوا من خلاله إدارة إمبراطورية شاسعة الأراضي، معتمدين على عدد من الوزراء المهرة والكتاب وعمال كانوا يخدمون قبل ذلك في البلاط السامانيين والغزنويين وعند الخلفاء العباسيين، ويتميزون بدراية فائقة وبراعة في إنجاز الأعمال على أحسن وجه؛ مما أطال في عمر هذه الدولة.

---

(١) د/ إبراهيم أحمد العدوي: النظم الإسلامية ٢٣٨.
(٢) البيهقي: تاريخ البيهقي ١٧.
(٣) ابن الصابئ: تاريخ الوزراء ٢٤٢ بيروت ١٩٠٤م.
(٤) د/ عبد النعيم حسنين: دولة السلاجقة ١٤٠.
(٥) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب العربية ٢٨٠، ترجمة نبيه أمين ومنير البعلبكي-بيروت ١٩٨٨م.
(٦) البنداري: تاريخ دول آل سلجوق ٦٨، إبراهيم أحمد العدوي: النظم الإسلامية ٢٣٧.

الفصلُ الثالثُ
الناحيةُ الاقتصاديةُ لمدينةِ مرو في العصرِ السلجوقي

نتناول في هذا الفصل عدة نقاط هامة في تاريخ هذه المدينة من الناحية الاقتصادية، فنبدأ أولًا في الحديث عن الإدارة المالية حيث لعب السلاطين السلاجقة دورًا هامًّا في تنظيم النواحي المالية لهذه المدينة حتى يتم تحقيق الأمن والاستقرار والتساوي بين موارد الدولة ونفقاتها.

فالموادر المالية في المدينة تقوم أساسًا على مصادر عدة وهي: الخراج والجزية والمكوس.

١ - الخراج

فتعريف الخراج: هو مقدار معين من المال أو المحصول يُفرض على الأراضي الزراعية[١]، وهذا المقدار غير ثابت، بل كان يقل ويزداد حسب نوع التربة وطريقة ري الأرض، ونوع الزرع ومساحة الأرض وكمية إنتاجها.

فيقول الماوردي صاحب كتاب الأحكام السلطانية: إن الأرض تختلف من ثلاثة أوجه، يؤثر كل منها في زيادة الخراج ونقصانه، أحدهما: يختص بالأرض من جودة يزكو بها زرعها أو رداءة يقل بها ريعها، والثاني: ما يختص بالزرع مع اختلاف أنواعه من الحبوب والثمار، فمنها ما يكثر ثمنه، ومنها ما يقل ثمنه؛ فيكون الخراج بحسبه، والثالث: ما يختص بالسقي والشرب؛ لأن ما التزم المؤنة في سقيه النواضح والدوالي لا يحتمل من الخراج ما يحتمله سقي السيوح والأمطار[٢].

---

(١) ابن رجب: الاستخراج لأحكام السلطانية ٥- بيروت بدون تاريخ، يحيي بن آدم القرشي: الخراج ٢٣- القاهرة ١٩٩٤م.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية ١٢٩- القاهرة ١٣٨٠هـ.

عمل السلاجقة على ضرورة استعمال الرفق بالرعايا، حيث أصدر السلطان طغرلبك فرمانًا بإعفاء أهالي مدينة مرو وسائر المدن في خراسان من دفع ضريبة الخراج لسنة كاملة[١]، وسار بقية السلاطين على سياسة السلطان طغرلبك في التسامح والرفق بالرعايا عند جمع وتحصيل الخراج المفروض على الفلاحين، فكان السلطان ألب أرسلان يتقاضى قيمة الخراج على مرتين في العام لكي لا يثور الفلاحون[٢].

أيضًا أوصى الوزير نظام الملك رجاله بضرورة حسن معاملة الفلاحين، وعدم فرض أي أموال زائدة عما هو محدد، وأن تكون مطالبتهم للفلاحين تسديد قيمة هذه الأموال برفق وأدب، كذلك التوصية بعدم أخذ الخراج منهم قبل جني المحصول حتى لا يتسبب ذلك في إرهاقهم والتضييق عليهم؛ فيضطروا إلى بيع محصولاتهم قبل أن ينمو، فيقل ثمنها مما يقع إلى خسارة فادحة لهم، كذلك أمر نظام الملك عمال الخراج بضرورة أن يوفروا لهم كل ما يحتاجون إليه من بذور ومواشي وغيرها حتى لا يقوم بالهجرة وترك الأراضي[٣].

وكان هناك عدة طرق لتقدير قيمة الخراج، فكانت إما بقياس مساحة الأرض وأخذ متوسط إنتاجها[٤]، أو عن طريق المقاسمة بأخذ حصة من المحصول[٥]، أو عن طريق المقاطعة بدفع الخراج في صورة مبلغ إجمالي، وقد سادت هذه الطريقة في العصر السلجوقي.

---

(١) الحسيني: زبدة التواريخ ٤٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٥٨٨، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٧٠.

(٣) نظام الملك: سياست نامه ٨٥ ترجمة محمد الغراوي-القاهرة-بدون تاريخ.

(٤) الأصطخري: المسالك والممالك ١٥٧.

(٥) ابن رجب: الاستخراج لأحكام الخراج ١١٩.

ديوان الخراج

وهو ما يطلق عليه ديوان المالية، وكان هذا الديوان موجودًا في مرو؛ لأنه يحتفظ بسجلات يدون فيها تقديرات الخراج على المناطق المختلفة وأنواع الأراضي بكل منطقة(١)، وكانت وظيفته جمع الخراج المفروض على الأراضي الزراعية والضرائب المفروضة على الصناعات ومكوس التجارة(٢).

وكان ديوان الخراج ينقسم إلى قسمين؛ أحدهما يقوم بالإشراف على النفقات والمصروفات، والآخر يشرف على المورد وجمع الضرائب(٣)، وكان على رأس هذا الديوان (المستوفي) ويعين من قبل الدولة، وكان يقدر باحترام كبير، فنذكر مثالًا على السبيل (زين الدين) عندما تقلد وظيفة مستوفي ديوان الخراج في مرو أصدر الأوامر بإبداء الاحترام له، وأن تقدم له أي مساعدة من رئيس المدينة، وأن تجاب كل طلباته(٤).

كذلك الحال عندما عين (معين الدين) عاملًا لمرو كوكيل للديوان، وصدرت الأوامر لكل من رئيس المدينة ووواليها وقاضيها وكبار رجال الدولة وأعيان المدينة بأن يكرموه ويعتبروه نائب السلطان، ويرجعوا إليه في كل الشئون التي تخص الديوان، وأن يتعاونوا معه في تحصيل الضرائب(٥).

أما عن قيمة الخراج الذي كان يُتَحصل من مدينة مرو، فلم تذكر المصادر

---

(١) د/ محمد جمال الدين سرور: الحضارة الإسلامية في الشرق ١٢٣ دار الثقافة-القاهرة-٢٠٠٤م.

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ٤/ ١٥١- بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م، د/ إبراهيم أحمد العدوي: النظم الإسلامية ٢٣٤.

(٣) د/ محمد جمال الدين سرور: الحضارة الإسلامية في الشرق ١٢٣.

(٤) منتخب الدين أتابك الجويني: عتبة الكتبة ٤٨ - طهران ١٣٢٩هـ.

(٥) منتخب الدين: المصدر السابق ذكره ٦٧.

المعاصرة للسلاجقة أي مبالغ محددة للخراج، فقد ذكر الجهشياري قيمة خراج خراسان ككل ٢٨٠٠٠٠٠٠ درهم، كما ذكر ابن خلدون في المقدمة قيمة خراسان ٣٨٠٠٠٠٠٠ درهم، والمصدر الوحيد الذي ذكر قيمة خراج مرو مستقلا عن خراج خراسان هو ابن خرداذبه ويقدر بـ١٤٧٠٠٠ مليون درهم.

وخلاصة القول: لقد بلغ ديوان الخراج في مرو غاية الدقة والنظام، وهو بذلك يتمشى مع ما هو مُتبع في أحدث الإدارات المالية المستخدمة الآن.

٢- الجزية

هي عبارة عن مبلغ معين من المال يُفرض على أهل الذمة مقابل المحافظة على أموالهم وأرواحهم[١]، كما يدفع المسلم الزكاة، فهم رعايا لدولة واحدة، وقد ورد في سورة التوبة الآية ٢٩: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾.

وتسقط الجزية باعتناق الإسلام، ومما لا شك فيه أنها من أهم الموارد في بادية العصر الراشدي، لكنها رويدًا رويدًا تناقصت بانتشار الإسلام، وتجنى الجزية مرة واحدة في السنة حسب الشهور القمرية، وقد جرت العادة أن يعطى لمن يدفع الجزية براءة تثبت أداءه لها[٢]، وكانت الجزية تؤخذ من الرجال، ويعفى منها النساء والصبيان والكهول، كذلك لا تؤخذ من المسكين الذي يُتصدق عليه، ولا من مقعد ولا أعمى ولا من أهل الصوامع إن لم

---

(١) أبو يوسف: الخراج ١٢٢، يحيي بن آدم القرشي: الخراج ٢٣، فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ٤٥٥ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة-القاهرة ١٩٥٨م، إبراهيم فؤاد أحمد: الموارد المالية في الإسلام ٢٠٨ القاهرة ١٩٧٠م.

(٢) Fateh.Texation in Persia , Bulletin of the school of oriental studies p.739

يكونوا ذوي يسار[١]، وقد بلغ مقدار الجزية في مرو في العصر السلجوقي دينارًا[٢]؛ وذلك لأن معظم أهل مرو كانوا على المذهب الشافعي، فمن الواقع أن يخضع أهل الذمة في المدينة لحكم الإمام الشافعي الذي قدَّر الجزية بدينار[٣].

٣- المكوس

هي عبارة عن الضرائب المفروضة على التجارة، وكذلك قد فرضت على تجارة أهل الذمة وعلى البضائع الواردة والمتصدرة داخل وخارج مرو، كذلك فرضت أيضًا على التجارة الداخلية في الأسواق على عمليات البيع والشراء[٤].

وتحسب قيمة الضرائب بنحو ١/ ٢٠ على بضائع التجار المقيمين بالبلاد الإسلامية إذا تجاوزت قيمة بضائعهم عشرين دينارًا أو مائتي درهم، وعشر قيمة بضائع التجار القادمين من خارج الدولة الإسلامية[٥]، وكان المكوس تجبى مرة واحدة في السنة، ويمنح التاجر إيصالًا بتأدية الضريبة، يسري لمدة[٦].

أيضًا هناك أماكن محدودة تجبى عندها هذه الضرائب، ويطلق عليها

---

(١) يحيى بن آدم القرشي: الخراج ٢٥.

(٢) د/ عصام عبد الرءوف الفقي: الحواضر الإسلامية ١٤٤، دار الفكر العربي، ١٩٧٦م.

(٣) محمد ضياء الريس: الخراج والنظم المالية ١٣٦.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٨/ ٥٠، د/ محمد جمال الدين سرور: الحضارة الإسلامية في الشرق ١١٩.

(٥) د/ محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية ١٣٨، د/ عصام عبد الرءوف: تاريخ الفكر الإسلامي ١٣٣ دار الفكر العربي-القاهرة ٢٠٠١م، إبراهيم فؤاد: الموارد المالية في الإسلام ٢١٠.

(٦) إبراهيم فؤاد: المرجع السابق ذكره ٢١٠.

(الماصد) أو (المراصد)[١]، وكان جباة هذه الضريبة يقيمون أماكنهم عند صرف التجارة البرية والنهرية، وهي ما نطلق عليها الآن نقاط تفتيش[٢].

أيضًا فرضت ضرائب على الأسواق والحوانيت والدور والأوزان والمكاييل وسك العملة، وكانت تسمى هذه الأنواع من الضرائب (مسقغلات)[٣]، كما كانت الأموال والعقارات التي مات أصحابها دون وريث شرعي تتحول إلى بيت المال مباشرة[٤] في ديوان المواريث، كذلك كانت المصادرات تمثل مصدرًا هامًّا للدخل في مدينة مرو خلال العصر السلجوقي، وهي في الحقيقة تمثل نوعًا من العقاب، فعلى سبيل المثال صادر السلطان سنجر كل ما يملكه وزيره مجير الملك لما بلغه عنه من مساوئ، نشرها فخر الملك بن نظام الملك حتى يتمكن من تولي الوزارة بدله[٥].

النفقات

أما عن وجوه صرف هذه الأموال التي تأتي من الموارد السابق ذكرها، فتنفق في عدة مجالات؛ ومن أهمها الإنفاق العسكري في شراء الأسلحة ودفع رواتب الجنود والقادة، وكان يراعى عند تقديرها أن تكون مناسبة لرتبهم ونوع السلاح الذي ينتمون إليه، وأحيانًا كانت الدولة تعطي بعضهم إقطاعات بدلًا من الأموال[٦]، بالإضافة إلى بناء الحصون والأسواق فقد بنى

---

(١) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٥٦، دار الكتاب العربي-بيروت.

(٢) أبو يوسف: الخراج ١٣٧.

(٣) د/ محمد جمال الدين سرور: الحضارة الإسلامية في الشرق ١١٩، د/ عصام عبد الرءوف الفقي: تاريخ الفكر الإسلامي ١٣٤.

(٤) الراوندي: راحة الصدور وآية السرور ٧٦، الماوردي: الأحكام السلطانية ٢٤٣.

(٥) خواندمير: دستور الوزراء ٢٧٤.

(٦) د/ محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق ذكره ١٢٠.

السلطان ملكشاه سورًا عظيمًا حول مرو سعته ١٢٣٠٠ مكعب[١].

أيضًا الإنفاق على التعليم وإنشاء المدارس الكبيرة والعظيمة والنظاميات، والتي نذكر منها نظامية[٢] مرو والإنفاق على المدرسين والطلبة، وكذلك أيضًا الإنفاق على حفر الترع[٣] وبناء القناطر[٤] وإقامة الجسور والطرق والمنشآت التجارية، كذلك دفع رواتب القضاة والعمال والموظفين[٥]، وكان يُراعى أن تكون رواتبهم كافية ومجزية، بالإضافة إلى نفقات السلاطين في المدينة على الاحتفالات والأعياد والمواسم والمواكب وغيرها من المناسبات[٦].

كانت هذه أهم ملامح وجوه صرف الأموال والنفقات في مدينة مرو خلال العصر السلجوقي، وفي الحقيقة كانت السياسة المالية لسلاطين السلاجقة العظام قد نجحت في تحقيق التوازن بين مواردها ومصروفاتها إلَّا أنها اضطربت أواخر العصر السلجوقي؛ بسبب الحروب والثورات في مرو وغيرها من مدن الدولة السلجوقية؛ وبالتالي لم يحدث التوازن.

ثانيًا: النشاط الزراعي في مدينة مرو

وجه السلاطين السلاجقة عنايتهم إلى تنمية الثروة الزراعية في مدينة مرو حتى يتيسر لهم توطيد دعائم دولتهم، فقد فطن السلاجقة إلى أن الزراعة تعتبر من أهم موارد الدخل وبناء الاقتصاد.

---

(١) لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٥.

(٢) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٥٩، سير أعلام النبلاء للذهبي ١١/ ٩٤ طبعة بيروت ١٩٩٦م.

(٣) ناصر خسرو: سفرنامه ١٧٢ ترجمة يحيى الخشاب-القاهرة ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ١٩٩.

(٥) أبو يوسف: الخراج ١٨٧، ابن رجب: الاستخراج لأحكام الخراج ١٢١.

(٦) د/ طه ندا: الأعياد الفارسية في العالم الإسلامي ١٣- ١٤ مجلة كلية الآداب-جامعة الإسكندرية المجلد ١٧، ١٩٦٣م.

نظام الري ومصادره

تعتبر المياه عاملًا رئيسيًّا في الزراعة، وكان يوجد في مدينة مرو ديوان لتيسير سبل الري يسمى (ديوان الماء)[١]، ويشرف على هذا الديوان أحد كبار موظفي الدولة، تعلو مكانته، وصاحب المعونة في المدينة، وكان يساعده أكثر من عشرة آلاف عامل[٢]، وقد قام هذا الديوان في مرو لوجود نهر عظيم بها هو نهر المرغاب[٣] ونهر المروين الذي ينبع من تحت جبال الغور في شمال شرق هراة، ويجري هذا النهر على مرو الروذ ثم مرو الشاهجان[٤].

وعلى هذا النهر يوجد مجموعة من الحراس يرعونه ويحفظونه ويراقبون سدوده لئلا تنبثق، وذلك أنه قد أقيم سد عند فروج النهر من مرو الروذ، سد من الجانبين بالحطب وانحبس الماء، ثم مد النهر بعد ذلك إلى مرو الشاهجان[٥]، وكان هناك مقياس يعرف به فيضان النهر من انحساره، هو عبارة عن لوح مقام على النهر مشقوقًا شقًّا طويلًا تتحرك عليه شعيرة، وعندما يفيض الماء في اللوح ستين شعيرة تكون سنة خصبة ويستبشر الناس، وإذا كانت ست شعيرات كانت سنة قحط[٦].

والمقياس على بعد ثلاثة أميال من المدينة، وهو عبارة عن شبه حوض مستدير، وإذا قدر المتولي الفيضان أو القحط أرسل البريد إلى ديوان النهر،

---

(١) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٤٥.

(٢) المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٣٣٠.

(٣) الأصطخري: المسالك والممالك ٢٦١، البلاذري: فتوح البلدان ٣٩٧.

(٤) لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٣٩.

(٥) لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٣٩.

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣٣٠- ٣٣١.

وينفذون الرسل إلى جميع المتوليين شعب النهر، فيقسمون النهر على ذلك[١] المقدار، وكان مقسم[٢] هذا النهر في قرية زرق[٣]، وقد ذكر المقدسي أن الذي يقوم بقسمته (ما ترك من العدل شيئًا إلَّا وقد استعمله)[٤].

وتتشعب من نهر مرو أنهار صغيرة، هي نهر هرمزفرة نحو سرخس يسقي طرف البلد والضياع، ونهر الماجان ويتخلل الأسواق ثم يخرج إلى رأس البلد وعليه جسور تعبر إلى الشوارع، ونهر الزرق يجري على باب المدينة ويتفرق في حياض قليلة عميقة ونهر أسعدي ومنه يشرب أهل محلة باب سنجان وميرهان[٥]، وهذه الأنهار الصغيرة عليها ألواح خشب فيها ثقب مقدرة، لا يستطيع أحد أن يزيد فيها أو ينقص ويأتي شربهم بمقدار، إن زاد الفيضان حلت عليهم الزيادة وإن نقص نقصوا ولا يثار لقوم على قوم[٦]، كما يتضمن هذا الديوان دفاتر وسجلات يدون فيها خراج الأرض على حسب نوع ريها[٧].

وكثرت مصادر الري في مدينة مرو، فكما أسلفنا يعتبر نهر المرغاب وفروعه

---

(١) المقدسي: المصدر السابق ذكره ٣٣٠- ٣٣١، سامية توفيق عبد الله: الثروة الزراعية في خراسان ٢٥٨- ٢٥٩ مجلة كلية الدراسات الإنسانية-جامعة الأزهر العدد ٣، القاهرة ١٩٨٥م.

(٢) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٤٥.

(٣) ابن حوقل: المسالك والممالك ٣١٥.

(٤) المقدسي: المصدر السابق ذكره ٣٣٠.

(٥) لسترانج: بلدان لخلافة الشرقية ٤٤٠، قحطان عبد الستار الحديثي: أرباع خراسان ٣٣٣- ٣٣٤.

(٦) ابن حوقل: المسالك والممالك ٣١٥.

(٧) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٤٥.

المصدر الرئيسي للمياه فيها، وتأتي الأمطار في المرتبة الثانية بعد الأنهار من حيث الأهمية وبصفة خاصة في موسم سقوطها في فصلي الشتاء والربيع، كما تسقط الثلوج في فصل الشتاء، وأحيانًا تسقط بشكل مفاجئ[١].

وأيضًا تعتبر الآبار والعيون من مصادر الري الهامة، وكانت السلطة المحلية والأهالي في مرو يقومون بحفر الآبار في المناطق المتطرفة التي لا تصل إليها مياه الأنهار[٢]، أما العيون فقد انتشرت في مرو، واعتمدت عليها بعض القرى اعتمادًا كليًّا لوقوعها بعيدًا عن الأنهار، وأصبحت مصدرًا هامًّا لشرب الأهالي وري مزارعهم وبساتينهم[٣]، وكانت العيون في مرو عذبة حيث ذكر لنا اليعقوبي أن: (مشرب أهل مرو من عيون تجري)[٤].

خلاصة القول: إن الأنهار هي روح الحياة في مرو، فهي تمد الرساتيق والبساتين بالماء اللازم لقيام الزراعة بها كما تمد الدور بما تحتاجه من المياه، أيضًا أهمية الدور الذي به ديوان الماء في المدينة وأثره الكبير على تنظيم عملية الري، وتقدير قيمة الخراج طبقًا لأسلوب الري، واحتوائه على سجلات تقدير الخراج مما جعله يشبه في الوقت الحالي وزارة الري، وأيضًا دوره الكبير في معرفة أوقات الفيضان والقحط.

وسائل الري

كثرت وسائل الري نتيجة لتنوع مصادر المياه وتنوع التربة؛ فهناك الأراضي التي يتم فيها الري بدون آلة، وهي ما تعرف بالأراضي المنخفضة، وهناك

---

(١) ابن رسته: الأعلاق النفيسة ١٧٣، ليدن ١٨٩١م، اليعقوبي: البلدان ٢٩٧.

(٢) الأصطخري: المسالك والممالك ٢٧٣.

(٣) الأصطخري: المصدر السابق ذكره ٢٣١- ٢٣٢.

(٤) اليعقوبي: المصدر السابق ذكره ٢٧٩.

الأراضي المرتفعة التي اعتمدت على الوسائل الرافعة للمياه كالدالية؛ وهي عبارة عن (آلة ترفع الماء وتديرها البقر)[١]، والناعورة وهي (تركب على الأنهار وتديرها البقر)[٢]، والزرنوق (آلة بسيطة تركب على بئر) والمنجنون (الدولاب) هو الاسم الفارسي لتلك الآلة المسماة، وكان يرفع الماء من عمق صغير، ويستخدم في إدارته الإبل والبقر[٣].

أما عن طريقة زراعة الأرض فكانت نفس الطريقة المتبعة في سائر مدن خراسان منذ آلاف السنين، حيث استخدموا طريقة المناوبة[٤] في زراعة الأرض، واستعملوا المحراث البسيط الذي تجره الثيران في حرث الأرض ثم تنثر البذور، ويجمع المحصول بعد نضجه، كما استعملوا المسحاة والجرافة في تسوية الأرض[٥].

وكان المزارعون على معرفة جيدة بأوقات السقي واستغلالها[٦]، كما كان لهم خبرات بأوقات الفلاحة والزراعة واللقاح والغرس والحصاد؛ لأن ذلك يتوقف عليه أخذ ضريبة الخراج في النيروز، وكانوا يسمونه (نوروز) في الفلاحين[٧]، وقد حرص الفلاحون في مرو على خصوبة التربة وزيادة

---

(١) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٤٦.

(٢) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٤٦.

(٣) ابن بطوطة: رحلته ٣٧٧ القاهرة ١٤١٢هـ.

(٤) سامية توفيق: الثروة الزراعية ٢٦٠.

(٥) الدمشقي: الإشارة إلى محاسن التجارة ٣٨.

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض ٣٦٥، الأصطخري: المسالك والممالك ٢٦١- ٢٦٢، المقدسي: أحسن التقاسيم ٣٣٠- ٣٣١.

(٧) البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية ٣١- ٣٢ القاهرة ١٩٢٣م، قحطان الحديثي: دراسات من التنظيمات الاقتصادية مجلد ١٩ ص ٨١، مجلد الخليج العربي، العدد الأول.

إنتاجيتها، وذلك بتسميدها بالسماد العضوي الذي تخلفه الحيوانات من روثها[١]، وقاموا بتنظيف الأرض من الآفات والحشرات[٢].

ومما ساعد على ازدهار الزراعة من مرو عناية سلاطين السلاجقة وحرصهم على ضرورة توفير كافة الحاجيات والمستلزمات التي يحتاج إليها المزارعون من بذور جيدة وحيوانات تساعدهم في الزراعة، وقد أكد ذلك الوزير نظام الملك عندما أمر عماله بضرورة إمداد الفلاحين بما يحتاجون إليه من بذور ومواشي دون مقابل[٣].

أشهر المحاصيل الزراعية

تفوقت مدينة مرو بالعديد من المحاصيل الزراعية التي ذاعت شهرتها في الآفاق والتي نذكر منها:

١- الحبوب

كان مدينة مرو تنتج القمح بكميات كبيرة حيث كانت بذور قمحها تعطي في السنة الأولى مائة ضعف، وفي السنة الثانية ثلاثين، وفي السنة الثالثة عشرة أضعاف[٤]، وتميز قمحها بأنه أجود أنواع القمح، وقد ذاع صيته في سائر البلاد وعرف باسم حنطة مرو[٥]، كما اشتهرت مرو بزراعة الأرز والذرة والشعير فهي من أطيب بلاد خراسان أطعمة[٦].

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢/ ٢٩٠.

(٢) الأصطخري: المسالك والممالك ٢٨٧.

(٣) نظام الملك: سياست نامه ٥٨.

(٤) لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٥.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ١٧/ ٧٢.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان ٥٠٢.

٢- الخضراوات

كثرت الخضروات التي زرعت في مرو، ولما كانت الخضراوات من المزروعات سريعة التلف وبالتالي لا تكون غلة تجارية ذات عائد نقدي، فكانت تزرع لتغطية الاحتياجات الضرورية للسكان، وقد انتشرت في المدينة زراعة القرع والقثاء والفاصوليا والباذنجان والجزر[١].

٣- القطن

ومن أهم المحصولات الزراعية التي اشتهرت بها مرو القطن، وكان له شهرة عجيبة في الآفاق، فقد قامت عليه صناعة المنسوجات القطنية، وتميزت مرو بزراعة القطن المعروف جودته ولينه[٢]، وكان يزرع في دندانقان نوع من القطن يضرب به المثل لجودته، ويحمل منها إلى الكثير من البلاد[٣].

٤- قصب السكر والسمسم

أيضًا اشتهرت مرو بزراعة قصب السكر التي تقوم عليه صناعة السكر[٤]، وكذلك زراعة السمسم، ويدخل السمسم في صناعات كثيرة كصناعة الحلوى، ويستخرج منه زيت السمسم[٥].

٥- الفواكه

ذخرت مرو بالكثير من أصناف الفواكه على اختلاف أنواعها وألوانها،

---

(١) سامية توفيق: الثروة الزراعية ٢٦٧.

(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ٤٧٦.

(٣) أبو الفدا: تقويم البلدان ٤٤٦، القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٣٩٥.

(٤) السيوطي: لب الألباب ٢/ ٢٧١.

Encyclopedia Americana vol.20p349

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض ٤٧٦، أبو الفدا: تقويم البلدان ٤٦.

ومن الفواكه التي ذاع صيتها في المدينة البطيخ، فتعد مرو بلد البطيخ المعروف بـ (بالبازنك) الذي كان يحمل إلى الآفاق، وخاصة العراق في قوالب من الرصاص معبأ بالثلج[١]، كذلك اشتهرت مرو بزراعة العنب، وكان يصنع منه الزبيب، وعن زبيب مرو يقول القلقشندي: بها الزبيب الذي لا نظير له[٢]، واشتهرت مرو أيضًا بزراعة الكمثرى والشمام حيث يجفف ويحمل إلى سائر الآفاق[٣].

الملكية الزراعية

كان الأساس الذي تقوم عليه الملكية الزراعية في مدينة مرو خلال العصر السلجوقي هو نظام الإقطاع، فقد لجأ سلاطين السلاجقة منذ البداية إلى الإقطاع كأسلوب إداري في تسيير إدارة البلاد المترامية الأطراف الواقعة تحت حكمهم، وكان طغرلبك أول سلاطينهم قد قام بإقطاع البلاد والقرى لأفراد البيت السلجوقي[٤]، وسمح لهم بفتح ما يشاءون من البلاد وضمها إليهم بشرط ألا تكون على حساب بعضهم البعض[٥]، وكانت مرو من نصيب أخيه جغري بك[٦].

ولقد اعتبر سلاطين السلاجقة العظام الإقطاع نوعًا من المنح والهدايا التي تقر بها عيون الأتباع، فيذكر الراوندي أن الطرق كثيرة لشكر نعمة الله، ولكن

---

(١) الثعالبي: لطائف المعارف ٢٢٦، الحميري: الروض المعطار ٥٣٣.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٣٩٤.

(٣) سامية توفيق: الثروة الزراعية ٢٦٩.

(٤) محمد السعيد: دولة الإسماعيلية ٩٩.

(٥) الراوندي: راحة الصدور ١٦٧.

(٦) عباس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة ٥٩- ٦٠، طه ندا: تاريخ الحكم التركي في إيران ٤٢.

خيرها حق رعاية الحقوق، لذلك أقطع السلطان خواصه الإقطاعات[١]، فعندما قرر السلطان ألب أرسلان أخذ البيعة لابنه ملكشاه بالسلطنة، ووافق الأمراء على ذلك خلع عليهم وأقطعهم الإقطاعات فكانت مرو لابنه أرسلان شاه[٢].

وعندما تقلد السلطان ملكشاه السلطة، قام وزيره نظام الملك بتعميم الإقطاع العسكري الحربي[٣] عندما قام بتوزيع الأراضي على الجند على هيئة إقطاعات حتى يتمكن من تحصيل الأموال من البلاد وعمارة الأرض، كما هدف نظام الملك من تعميم الإقطاع توفير أرزاق الجند وزيادة الرقعة الزراعية؛ وبالتالي زيادة الإنتاج وتوفير المحصولات، وتيسير إدارة الدولة السلجوقية[٤].

ولتنفيذ ذلك وضع عدة شروط؛ منها: أن يؤدي المقطع الخراج المقرر على إقطاعه نقدًا أو عينًا، ويكون مسئولًا عن كافة منشآت الري في إقطاعه كما يقوم بشق وتطهير الترع وإقامة السدود والمحافظة على الأرض الزراعية، وكذلك أن يلتزم المقطعون والعمال بحسن معاملة الرعية، ولا يحصلون منهم الخراج إلا إذا نضج المحصول، وأن يقدموا للمزارعين كل ما يحتاجون إليه من بذور ومواشي وغيره[٥].

وفي الواقع كان الإقطاع في العصر السلجوقي استغلالًا للأرض؛ بمعنى

---

(١) الراوندي: المصدر السابق ذكره ٢٠٢- ٢٠٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٥٠، ابن خلدون: العبر ٣/ ٩٧٣.

(٣) المقريزي: الخطط ١/ ١٥٣- ١٥٤.

(٤) إبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط ٢٢- ٢٤، القاهرة ١٩٦٨م.

(٥) نظام الملك: سياست نامه ٥٨.

أن المقطع له حق استغلال الأرض دون امتلاكها[١]، ورغم أن الإقطاع كان مرتبطًا بخراج الأرض وليس الأرض ذاتها، إلا أنه كان من حق المقطع أن يحكم إقطاعه حكمًا مطلقًا ويمارس امتيازات كثيرة مقابل أن يدفع للسلطان مبلغًا سنويًّا من المال، ويكون في خدمته زمن الحرب، والمقصود هنا أن الإقطاع كان يشمل الحكم والإدارة[٢].

وكان مهمة المقطع تحصيل الأموال المقررة على الأراضي الزراعية إلى الضامن مقابل مبلغ من المال[٣] حيث كان أساس الجباية في نظام الإقطاع هي التضمين؛ بمعنى أن يتعهد شخص بدفع ما على جهة معينة من المال السلجوقي بمبلغ مقدر، وفي هذه الحالة يكون الخراج جزءًا من مال الضمان، والضامن حينئذ أشبه ما يكون بالمستأجر، فكان عليه أن يدفع مال ضمانه نقدًا أو عينًا[٤].

وفي النهاية كان النظام الإقطاعي ناجحًا في بدايته وقد خدم الدولة السلجوقية في عصر سلاطينها العظام؛ بفضل مراقبتهم المستمرة للمقطعين[٥]، والتزام المقطعين بأوامر السلطان وتعاليمه[٦]، ورويدًا رويدًا مع ضعف الدولة السلجوقية استشرى الفساد والطمع بين المقطعين وزاد التنافس بينهم وعولوا على الاستقلال عن الدولة، ومن ثم ظهرت نتائجه الوخيمة[٧] التي أثرت سلبًا

---

(١) إبراهيم طرخان: المرجع السابق ذكره ٢٢.

(٢) الراوندي: راحة الصدور ٢٠٥.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية ٢٥٤- ٢٥٥.

(٤) أبو يوسف: الخراج ٦٠.

(٥) حسين أمين: تاريخ العراق ٢١٠- ٢١٢.

(٦) نظام الملك: المصدر السابق ذكره ٨٥.

(٧) د/ حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي ٥٨٢.

على الدولة السلجوقية وزادت من انهيارها وضعفها.

ورغم تعميم النظام الإقطاعي في مدينة مرو إلا أنه لم يتعارض مع الملكية الزراعية في المدينة، وذلك لأنه يتعلق بخراج الأرض وليس للأرض ذاتها، وقد وجدت بعض الملكيات الخاصة بالفلاحين وحرص سلاطين السلاجقة على عدم إرهاقهم بالخراج، وتوفير كل ما يلزمهم في الزراعة[١] حتى إن السلطان ألب أرسلان كان يقنع بأخذ قيمة الخراج على مرتين في العام لعدم إرهاقهم[٢].

الثروة الحيوانية

تتمتع مرو بثروة حيوانية كبيرة نتيجة توافر المراعي بها، حيث كان هناك الأراضي الغنية بالعشب والحشائش، كما اشتهرت مرو بنبات ينمو بها يعرف بالإشترغاز، وكان من كثرته ينقل إلى العديد من المناطق المجاورة[٣].

وتربية الحيوانات في مرو من الأمور الهامة والحيوية؛ فهي تمد الأهالي بالغذاء ووسائل النقل والمواد الخام اللازمة للصناعات[٤]، وتميزت مرو بتنوع الثروة الحيوانية بها حيث توفرت لديها أعداد كبيرة من الأبقار لاستخدامها في الزراعة والاستفادة من لحومها وألبانها[٥]، وأيضًا الإبل التي استخدمت في النقل[٦]، كما انتشرت بالمدينة الدواب[٧] من البغال والحمير لأهميتها في أعمال

---

(١) نظام الملك: سياست نامه ٥٨.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٥٨٨، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٧٠.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ٤٢٦.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣٢٤.

(٥) لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٣.

(٦) قحطان الحديثي: التنظيمات الاقتصادية لخراسان ١٢٠.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان ٥٠٢.

النقل والزراعة.

أيضًا تعتبر الأغنام من أهم مصادر الثروة الحيوانية في مرو، فقد بلغ عدد الأغنام التي استولى عليها التراكمة من أهالي مرو أثناء الغزو المغولي ما يزيد على ستين ألف رأس من الغنم[١]، كما انتشر في مرو ظاهرة تربية الطيور والدواجن في المنازل، وتميز إنتاجهم بالكثرة والوفرة[٢]، كذلك اهتم أهل مرو بتربية دودة القز التي قامت عليها صناعة الحرير[٣].

ومن الثابت تاريخيًّا أن الثروة الحيوانية قد أسهمت بنصيب كبير في تقدم اقتصاد مرو خلال العصر السلجوقي حيث ساعدت على توفير اللحوم والألبان وغيرها من المنتجات الحيوانية التي تدخل في صناعتهم سواء للاستهلاك الغذائي أو كمادة خام.

الصناعات

ازدهرت الصناعة بمدينة مرو ازدهارًا كبيرًا، فقد كانت المدينة مقرًّا هامًّا وبارزًا لصناعة مزدهرة وعلى درجة كبيرة من التقدم والإتقان والرقي؛ وذلك لوفرة المواد الخام اللازمة للصناعة إلى جانب وفرة الأيدي العاملة، وسهولة تصريف المصنوعات في الأسواق، وقد ازدهرت صناعات عديدة ومتنوعة في مدينة مرو خلال العصر السلجوقي، نذكر منها:

١ - صناعة المنسوجات

احتلت مرو مكانة الصدارة في إنتاج أنواع مختلفة ومتنوعة من المنسوجات الصوفية والحريرية والقطنية؛ مما علت صيته وعظمت شهرته في سائر البلاد

---

(١) الجويني: تاريخ جهانكشاي ١٥٧.

(٢) السمعاني: الأنساب ٢/ ١٢٠.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ٣١٦، لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٣.

خلال العهد السلجوقي، وكان العرب يطلقون على كل ثوب صفيق جيد بالمروى، وكل ثوب دقيق بالشاهجاني[١].

ومرو من المدن التي اشتهرت بقطنها الذي يصنع منه أفخر الثياب[٢]، وكان لزراعة أنواع جيدة من القطن أثره في وجود أجواد أنواع المنسوجات القطنية بها، فكانت أنفس ثياب خلال العصر السلجوقي في مرو[٣]، وقد وصف لنا الإدريسي القطن في مرو فقال: ويتجهز منها القطن العجيب الذي ينسب في سائر الأقطار إليها وهو الغاية في اللين ويعمل بها منه ثياب تحمل إلى كل الآفاق[٤].

ويمثل العصر السلجوقي قمة ازدهار صناعة النسيج في المدينة حيث بلغت درجة عالية من الدقة والإتقان والكمال؛ وذلك يرجع لعاملين أساسيين هامين: أحدهما ما طرأ على الصناع في العهد السلجوقي من أساليب جديدة تتمثل في دقة الزخارف النباتية والرسم، وقد تأثر أهل مرو بهذا تأثرًا كبيرًا[٥]، والعامل الثاني يتمثل في استخدام الأساليب الإسلامية في زخرفة النسيج، والتي تشمل على الكتابات والأشرطة[٦].

أيضًا اشتهرت مدينة مرو بصناعة الحرير، فكانت من أكبر مراكز صناعة الحرير في خراسان، حيث تخصصت بعض الأسر في صناعته، وحملت أسماؤها هذا المعنى مثل أسرة الديوكش بمرو، وهو بيت مشهور أطلق عليه هذا

---

(١) الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ٤٣١، القاهرة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م.

(٢) السيد محمد عاشور: صناعة الأقمشة وتجارتها ٣/ ٢١، القاهرة ١٩٩١م.

(٣) الأصطخري: المسالك والممالك ٢٨٢، اليعقوبي: البلدان ٢٧٩.

(٤) Dury,A rt of islam,New york p .99 ,1971

(٥) Dury,Art of islam ,New york p .100 - 99

(٦) زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية في العهد الإسلامي ٢٤٨، القاهرة ١٩٤٦م.

الاسم؛ لأن أهله كانوا يعملون بصناعة الإبريسم، فيشترون القز ثم يقتلون دوده بالشمس[١]، وقد نبغت مرو بأنواع مختلفة من الحرير[٢] من ديباج وخز، وكما كانت تصنع ثياب الإبريسم الذي كان يصدر إلى جميع الجهات[٣]، وكان مصدر الحرير الخام البساتين وحدائق التوت، وكان الطلب على حرير مرو متزايدًا في القصور والبلاط، وفي المناسبات والاحتفالات، وقد ذاعت شهرة مرو في الآفاق بإنتاج المقانع[٤] والملاحم بالقز[٥] والمصمت[٦] والعتابي[٧] والسقلاطونيات[٨]، أيضًا اشتهرت مرو بصناعة المنسوجات الصوفية[٩].

أما عن طريق صناعة النسيج في مرو، فكانت نفس الطريقة المتبعة في سائر مدن خراسان منذ آلاف السنين، فكانت تبدأ بغزل الخيوط بتحويل الألياف النباتية (القطن والكتان) و(الحيوانية) و(الصوف) إلى خيوط باستخدام المغازل اليدوية، ثم تليها عملية الصباغة[١٠].

ولقد امتازت المنسوجات المصنوعة في مرو خلال العصر السلجوقي بالدقة والمهارة والإتقان والجودة في الصناعة والنسيج معًا، بالإضافة إلى دقة

---

(١) السمعاني: الأنساب ٢/ ٥٣٢- ٥٣٣.

(٢) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ١٥٤.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ٢٧٢، الأصطخري: المسالك والممالك ٢١٢.

(٤) قحطان الحديثي: التنظيمات الاقتصادية لخراسان الصناعة ١٢٥، العدد ٣.

(٥) مرتضى راوندي: تاريخ اجتماعي إيران ٥٦٣.

(٦) الثعالبي: لطائف المعارف ١٤٠.

(٧) عطية القوصي: الحضارة الإسلامية ١٢٠.

(٨) ابن الصابئ: رسوم الخلافة ٩٠.

(٩) قحطان الحديثي: أرباع خراسان ٣٣٩.

(١٠) Corl Johon Lamm Cotton in Medievol Textiles of The Neoreost, Paris 1973 p. 7- 8.

الرسم وخفة وزنها وجمال رسوماتها، كما غلب على زخارفها الأشكال الهندسية متعددة الأضلاع بداخلها كتابات كوفية أو أشرطة ورسوم حيوانية ودوائر بها طيور وحيوانات، وقد أضفى ذلك كله على المنسوجات شكلًا جماليًّا وفنيًّا رائعًا، كما غلب على الرسومات البساطة مع تصوير الأشكال بحجم أكبر مما أبرز دقتها وجمالها[١].

٢- صناعة السجاد

نالت صناعة السجاد وغيرها من المفروشات شهرة واسعة بمدينة مرو خلال العصر السلجوقي[٢]، ومرجع هذه الشهرة ترجع إلى تشجيع السلاطين والملوك والأمراء، واتفاقهم بسخاء على الفرش والأبسطة من أجل إبراز الأبهة والخبرة في تطويرها حتى أن العديد من العمال كانوا يمكثون في العمل لعدة شهور طويلة لإنتاج سجاد يسر الناظرين[٣].

ومن أنواع السجاجيد والمفروشات: الستائر المعلقة على الحيطان والبسط التي على أرض الغرف والصحون والممرات، وكذلك الأنماط وهي تفرش على الأرض للنظر دون الدوس، بالإضافة إلى أنواع أخرى صغيرة؛ منها: سجاجيد الصلاة والأغطية والنمارق والمقاعد ونحوها من أنواع الوسائد[٤].

٣- صناعة استخراج الزيوت ومشتقاتها

تلعب هذه الصناعة أهمية كبيرة في مدينة مرو في العصر السلجوقي، لذلك

---

(١) Sylvia Matheron Apersio on Archaeological,London 1979,p 113

(٢) زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية في العهد الإسلامي ٢٣٧.

(٣) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢/ ٢٩٥.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢/ ٢٩٥

Encyclopedia Americana Vol.20,p.350 .

عني أهل المدينة بهذه الصناعة، كما عنوا ببعض مشتقاتها كالعطور على الرغم من أنها ضربٌ من ضروب الترف، وكانت مدينة مرو من أهم مراكز استخراج الزيوت من بذرة الكتان والشريج الذي هو دهن السمسم[١]، كما اهتمت مدينة مرو بزراعة الزيتون، فقامت عليه صناعة الزيوت[٢].

٤- صناعة الجلود

تعتبر صناعة الجلود في مدينة مرو إحدى الصناعات التقليدية نتيجة طبيعية لوجود أعداد ضخمة من الحيوانات التي كانت تُربى في مراعيها الخصبة، وكان لهذا أثره في قيام صناعات جلدية[٣] بها وبصفة خاصة من الملبن[٤]، ونشأت صناعة دبغ الجلود، واشتهرت مرو أيضًا بجلود الضأن التي يطلق عليها بالمدينة السختيان[٥].

وهكذا ترتب على توافر الجلود قيام بعض الصناعات منها صناعة الرطب المروزية الشهيرة والأحذية والسراجة والمكاعب والجعات والمداسات التي اشتهرت بها عائلة الداغوني واختصوا بها[٦].

٥- الصناعات الخشبية

كانت صناعة الأخشاب في مدينة مرو من أهم الحرف الصناعية، وقد

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٣٢٤، قحطان الحديثي: أرباع خراسان ٣٣٩.

(٢) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ٤٥٦، الثعالبي: لطائف المعارف ٢٢٦.

(٣) قحطان الحديثي: التنظيمات الاقتصادية لخراسان الصناعة ١٢٥ العدد ٣.

(٤) الثعالبي: لطائف المعارف ٢٠٢.

(٥) السمعاني: الأنساب ٣/ ٢٣٢- ٢٣٣.

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣٢٥، الهمذاني: مختصر كتاب البلدان ٥٠، قحطان الحديثي: أرباع خراسان ٣٣٩، ابن حوقل: صورة الأرض ٣٧٠.

اعتمدت هذه الصناعة على جذوع الأشجار وأغصانها الموجودة في[١] مرو، ولما كان الإقبال عليها كبيرًا سواء في الصناعة أو التدفئة، فقامت مرو باستيراد خشب الساج الهندي، وهذا النوع يعد أحسن ما يستعمل في بناء البيوت، أما أثاث المنازل فكان يصنع من أخشاب غابات مازندران التي تتميز ببياض لونها المائل إلى الحمرة[٢]، وقد برع الصناع في مرو في صناعة الأثاث والمناضد والمكانس[٣]، كما نبغوا في صناعة الزخرفة الخشبية المحفورة والمنقوشة في عمل التحف والأدوات والأواني المنزلية[٤].

٦- الصناعات الغذائية

اشتهرت مدينة مرو بإنتاج العديد من الفواكه، وكان طبيعيًّا أن تقوم عليها عدة صناعات كتجفيف الفواكه، ومن أهم هذه الصناعات: صناعة الزبيب التي تقوم على محصول العنب، حيث يتم بذره وتجفيفه، وتعد مرو من أشهر البلاد إنتاجًا للزبيب الذي لا نظير له، وكان يحمل إلى سائر الآفاق[٥]، وأيضًا صناعة تجفيف البطيخ التي تتميز بها مرو في سائر البلاد، وتجفيف الكمثرى والشمام وتصديرها إلى بلدان خراسان وخارجها[٦].

كذلك كان لانتشار زراعة قصب السكر في المدينة أثره في قيام صناعة السكر وأنواع كثيرة من الحلوى والملابن[٧]، وعرفت أيضًا مرو بصناعة حفظ

---

(١) قحطان الحديثي: التنظيمات الاقتصادية لخراسان الصناعة ١٢٨ - ١٢٩، العدد ٣.

(٢) الهمذاني: مختصر كتاب البلدان ٥٠.

(٣) الثعالبي: لطائف المعارف ٤٢٠، ثمار القلوب ٥٤٢.

(٤) قحطان الحديثي: المقالة السابقة ١٢٩، العدد ٣.

(٥) سامية توفيق: الثروة الزراعية ٢٦٩، لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٢، القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٣٩٤.

(٦) ابن حوقل: المسالك والممالك ٣١٦، الروض المعطار في خبر الأقطار ٥٣٣.

(٧) الثعالبي: ثمار القلوب ٥٤٢، السيوطي: لب اللباب ٢/ ٢١.

Encyclopedia Americana,Vol .20p. 349

الفاكهة، فقد وضح لنا ابن الفقيه الهمداني فقال: إن البطيخ كان يحفظ داخل صناديق رصاصية مغطاة بالثلج[١].

فلما اشتهرت مرو بالثروة الحيوانية فقد نتج صناعة منتجات الألبان من الأبقار والجاموس والماعز وغيرها، وذاعت شهرتها في هذه الصناعة[٢].

٧- الصناعات المعدنية

ارتبطت الصناعات المعدنية في مرو خلال العهد السلجوقي بمعدني الذهب والفضة ارتباطًا وثيقًا؛ وذلك لصناعة الحلي والمجوهرات؛ نظرًا للإقبال الشديد عليها من قبل الأميرات السلجوقيات[٣] والنساء الثريات في المدينة حيث أقبلن على شراء واقتناء الكثير من الحلي للتزيين بها، وقد ظهرت مهارة الصانع في تطويره أسلوب زخرفة الحلي المتنوعة كالخواتم والأساور والقلائد والأقراط بالأسلاك الذهبية في أشكال هندسية جميلة وإضافة حبيبات صغيرة إليها[٤].

كما عرفت المدينة صناعة المعادن بشتى أنواعها؛ فصنعوا التحف من المعادن النفيسة مثل الذهب والفضة، كذلك صنعوا الأدوات من المعادن الرخيصة كالبرونز والحديد[٥]؛ وبالتالي تنوعت وتفاوتت صناعة المعادن في مرو وفقًا لحاجات كل طبقة من سكانها، فمثلما صنعوا أدوات كالأكواب والأباريق والشمعدانات والتماثيل والهاونات والمرايا من الذهب والفضة

---

(١) الهمذاني: مختصر كتاب البلدان ٢٥٥.

(٢) اليعقوبي: البلدان ٢٧٩.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٧٨.

(٤) د/ عبد الرحمن زكي: الحلي في التاريخ والفن ١٣٧، دار القلم-القاهرة ١٩٦٥م.

(٥) د/ سعاد ماهر: الفنون الإسلامية ١٢٩- ١٣٠، ديماند: الفنون الإسلامية ١٤٦، ترجمة: أحمد محمد عيسى-دار المعارف-القاهرة ١٩٨٢م.

لطبقة الأثرياء، كما صنعوا أدوات مثلها من الحديد والمعادن الرخيصة الأخرى لاستعمال عامة الناس[١].

أتقن الصناع في مرو إنتاج المصنوعات المعدنية المختلفة من أكواب وغلايات وأهوان[٢] وغيرها، ومن أشهر هذه التحف المعدنية شمعدان كتب عليه اسم السلطان سنجر، وهو محفوظ في متحف الفنون الجميلة ببوسطن، ومؤرخ بعام ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م وعليه زخارف ورسومات آدمية وحيوانية[٣].

كما بلغت المعادن قمة ازدهارها وكمالها في العصر السلجوقي بفضل ابتكار صانعي مرو لأسلوب صناعة التكفيت والتي تقام أساسًا على التزيين والرسم معًا، وتعتبر مدينة مرو بلا مراء منبت صناعة التكفيت التي بلغت درجة عالية فيها وأصبحت الأساليب الفنية التي ابتكرها صناع المدينة مثلًا يُحتذى به في كل بلاد الشرق الأدنى، وقد أنتج هؤلاء الصناع أواني من البرونز والنحاس ثم كفتوها بالفضة، وكفتوا أيضًا المصنوعات الفضية بالذهب والعكس[٤].

ومن الصناعات المعدنية الأخرى في مدينة مرو صناعة الأقفال التي بلغت دقتها حيث صنع القفال المروزي قفلًا يصل وزنه إلى طسوج، فقام منافسه القفال الشاسي بصناعة قفل وزنه دانق[٥].

---

(١) دونالد ولبر: إيران ماضيها وحاضرها ٦٥.

(٢) البيروني: الجماهر في معرفة الجواهر ٢٦٤، حيدر أباد الدكن ١٩٥٨م.

Michael Herrson,The Art of gron ,London 1965,p. 88

(٣) دونالد ولبر: إيران ماضيها وحاضرها ٦٥، ديماند: الفنون الإسلامية ١٤٦.

(٤) أوقطاي أصلان: فنون الترك وعمائرهم ٢٦٣.

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان (٥/ ١١٦)، القزويني: آثار البلاد ٤٥٩.

٨- صناعة الزجاج

ازدهرت صناعة الزجاج في مدينة مرو خلال العصر السلجوقي، فقد استخدم صناع الزجاج في المدينة أساليب صناعية عديدة في زخرفة الزجاج؛ منها: الحفر والضغط والبرونز والأسلاك الملفوفة، ويعد هذا النوع من الزخرفة أرقى ما وصلت إليه صناعة الزجاج في آنذاك، حيث كان يزين بأسلاك الذهب، كما نجح الصناع أيضا في طلاء الزجاج بالمينا والتموية بالذهب[١].

وانتشر استعمال الأدوات الزجاجية في مدينة مرو؛ وذلك لكثرة إنتاجها وتنوعها، فكانوا يصنعون التحف المتنوعة كالقوارير والزهريات والأكواب والصحون والأباريق[٢] للاستعمال المنزلي أو لحفظ الزيوت والعطور.

٩- صناعة الخزف

تطورت صناعة الخزف تطورًا كبيرًا في مدينة مرو خلال العصر السلجوقي، فكان السلاطين السلاجقة من أكبر رعاة الفنون، فقد جمعوا بقصورهم في مرو الكثيرين من أهل الفن والصناعة، مما شجع الخزفيين على ابتكار أروع أنواع الخزف الإسلامي[٣] حيث إنهم استخدموا الزخارف المحفورة، والبارزة والمخرمة والمجسمة، كما عرفوا معظم أنواع الخزف، وصنعوا كافة الأحجام والألوان، كذلك برعوا في رسم الصور الآدمية والحيوانية والزخارف المعمارية على الصحون والأباريق والبلاطات

---

(١) قحطان الحديثي: التنظيمات الاقتصادية لخراسان الصناعة ٣٢، العدد ٣.

(٢) ديماند: الفنون الإسلامية ٢٣٠.

(٣) ديماند: المرجع السابق ذكره ١٨١.

وغيرها[١].

كما صنع الخزافون أيضًا أشكالًا جديدة كالتماثيل والمحاريب، وكانت هذه التماثيل تستخدم كآنية للزهور أو كشماعد أو كأباريق، وكانت كلها في غاية البساطة والدقة[٢]، ومما ساعد على ازدهار صناعة الخزف بمرو وفرة الخامات الجيدة لهذه الصناعة (الطينية) التي مكنتهم من إنتاج أدوات وأواني جيدة تمتاز بالرقة وخفة الوزن[٣].

ومن الثابت تاريخيًّا أن صناع مدينة مرو قد تجمعوا فيما يشبه النقابات حيث تجمع أصحاب كل حرفة أو صنعة مع بعضهم البعض في مكان خاص بهم وكان دائمًا بالقرب ورشهم[٤]؛ مما يوحي بوجود روح التكتل الجماعي البسيط والتقارب لأصحاب المهنة الواحدة، وقد أخذت معظم المحال السكينة بالمدينة أسماء حرف سكانها، فهناك محلة القلانس ومحلة الحدادين ومحلة البزازين وغيرهم الكثير[٥]، فقد أصبحت مدينة مرو قلعة صناعية في العهد السلجوقي.

---

(١) زكي محمد حسن: فنون الإسلام ٢٧٤- ٢٧٥.

(٢) جمال عبد الرحيم إبراهيم: الفنون الزخرفية الإسلامية في العصرين الأيوبي والمملوكي ٣- ٤ القاهرة ٢٠٠٠م، سعاد ماهر: الفنون الإسلامية ٢٩.

(٣) قحطان الحديثي: التنظيمات الاقتصادية لخراسان الصناعة ١٣٢، العدد ٣.

(٤) علي أصغر فقيهي: آل بويه وأوضاع زمان إيشان، جابخانة كيلان ٧٧٨- ٧٨٠، ١٣٥٧هـ.

(٥) قحطان الحديثي: المرجع السابق ذكره ١٣٩، العدد ٣.

ثالثًا: التجارة

تمهيد:

ازدهرت الحركة التجارية في مدينة مرو في العهد السلجوقي نيتجة لازدهار الزراعة وكثرة المحاصيل الزراعية، فضلًا عن تقدم الصناعة، كما كان لتشجيع سلاطين السلاجقة أثره في زيادة النشاط التجاري بالمدينة.

١- التجارة الداخلية

نشطت التجارة الداخلية بمدينة مرو التي كانت مركزها الأسواق[١]، ويعتبر السوق عنصرًا رئيسيًّا ممن مقومات مدينة مرو، وعادة كانت الأسواق تحيط بالمسجد، كما كانت أسواق مدينة مرو على باب المدينة بجوار المسجد العتيق[٢] ومع التطور العمراني وازدياد أعداد السكان نُقلت الأسواق إلى وسط المدينة وغرب نهر الماجان[٣].

وتمثل الأسواق مركز النشاط التجاري، فتقيم كل طائفة من التجار في قسم من هذه الأسواق حيث كانوا يمكثون إلى ما بعد الظهر، ولا يعودون إلى منازلهم إلا في الليل، حيث كانت الأسواق تفتح أبوابها صباح كل يوم فتكون مليئة بالحركة حتى المساء[٤]، ويعتبر السوق مركزًا هامًّا لاستقطاب التجارة ومجالًا حيويًّا للنشاط المالي، وبهذا يعد عنصرًا أساسيًّا في رخاء المدينة وازدهار حياتها الاقتصادية والاجتماعية، لذلك كان الاهتمام بالسوق أمرًا ضروريًّا

---

(١) الثعالبي: التمثيل والمحاضرة ٤٧٢، القاهرة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، الجاحظ: المحاسن والأضداد ٩١، القاهرة ١٩٧٨م، آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢/ ٣٢٥.

(٢) الأصطخري: المسالك والممالك ١٤٨، ابن حوقل: صورة الأرض ٤٢٥.

(٣) لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤١.

(٤) قحطان الحديثي: أسواق المدن الخراسانية ١١٥.

لإظهاره بشكل يناسب مكانة المدينة في النواحي الجمالية والتنظيمية[١]، ويذكر لنا الأصطخري عن أسواق مدينة مرو بأنها كانت من أنظف أسواق الأمصار وأحسنها تنظيمًا واتساعًا، ويؤيده في ذلك المقدسي[٢].

ومن مظاهر تنظيم الأسواق في مدينة مرو تخصصها، فكانت تنقسم إلى عدة أقسام حسب السلع التي تباع به[٣] حيث نجد سوقًا كبيرًا للفاكهة تباع به أنواع الفاكهة المختلفة[٤]، وكان بأسواق الفاكهة الفاميون الذين يبيعون الفواكه اليابسة[٥]، وأيضًا سوق البزازين وبه البزازون الذين يقومون بتجارة الأقمشة[٦]، كما يوجد به القماص الذي يبيع القمصان[٧]، ومن هذه الأسواق المتخصصة أيضًا سوق الأساكفة الذي يوجد به باعة الأحذية، ويطلق عليهم (الداغوني)[٨]، وأيضًا سوق لبيع الغلال وأهمها[٩] الحنطة.

ومن ضمن أسواق مرو أيضًا: سوق للزينة حيث يشمل عدة محلات للصناعة[١٠]، وكان لكثرة عدد الأسواق وتخصصها وازدياد عدد المتعاملين فيها أثره في وجود سوق الصرافين، كما وجدت بعض التجارات والبضائع

---

(١) قحطان الحديثي: أسواق المدن الخراسانية ١١٣.

(٢) الأصطخري: المسالك والممالك ١٤٨، المقدسي: أحسن التقاسيم ٣١٠.

(٣) أبو الفدا: تقويم البلدان ٤٥٧.

(٤) ابن بطوطة: رحلته ٢٠٢، ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥/ ١١٤.

(٥) السمعاني: الأنساب ٤/ ٣٤٣.

(٦) الذهبي: العبر ٢/ ٣١٠.

(٧) السمعاني: المصدر السابق ذكره ٤/ ٥٣٩.

(٨) السمعاني: المصدر السابق ذكره ٢/ ٤٤٥، قحطان الحديثي: أرباع خراسان ٣٣٩.

(٩) قحطان الحديثي: المرجع السابق ذكره ٣٣٥.

(١٠) قحطان الحديثي: أسواق المدن الخراسانية ١١٨.

التي تصنع في السوق نفسه، منها على سبيل المثال: صناعة الأواني والخزف، والمصوغات الذهبية في سوق الصاغة، وكذلك الصناعات الجلدية كالأسراجة والأحذية وبعض المصنوعات النسيجية والحياكة والملابس(١).

هكذا ازدهرت أسواق مرو بكافة المنتجات، ونشطت التجارة الداخلية خلال العهد السلجوقي، وذلك للازدهار الزراعي والصناعي الكبير في المدينة، وحرص سلاطين السلاجقة على توفير سبل الأمن والحماية للتجارة والمشترين على السواء، ومما يؤكد ذلك مجموعة الحراس الذين كانوا يجوبون السوق منذ الصباح مع فتح الدكاكين لحماية المشترين والتجار من خطر اللصوص، وتستمر حراستهم للسوق بعد إغلاقه فيطوفون به طوال الليل وحتى اليوم التالي، وكان أهم ما يميز هؤلاء الرجال اليقظة والقوة(٢).

وكانت الأسواق تخضع لإشراف المحتسب، ونظرًا لأهمية هذه الوظيفة حرص السلاطين السلاجقة على تكليف مَن يوثق فيهم من الرجال، وكان المحتسب يشرف على ضبط الموازين والمكاييل ويحدد الأسعار ويضبط عملية البيع والشراء حتى يمنع الغش(٣)، كما كان يراقب كل ما يجلب من الأطراف ويباع في الأسواق مراقبة شديدة؛ ليتأكد من سلامة البضائع الواردة، ويقوم بعمليات تفتيش مفاجئة على الأوزان حتى يقوم التجار بالقسط فيها، كذلك يمنع احتكار البائعين للسلع(٤)، وكان يقوم أيضًا بإرسال منادٍ في المدينة عند وقوع الغلاء حتى يحتاط الناس قبل وقوعه(٥)، ولا شك أن المحتسب قد حظي

---

(١) قحطان الحديثي: المرجع السابق ذكره ١١٨.

(٢) منتخب الدين الجويني: عتبة الكتبة ١٢٠.

(٣) نظام الملك: سياست نامه ٨٠، إبراهيم دسوقي الشهاوي: الحسبة في الإسلام ٨٣.

(٤) الشيرازي: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ١٤ - ١٥.

(٥) منتخب الدين الجويني: عتبة الكتبة ١٢٠.

برعاية وتأييد سلاطين السلاجقة، وذلك لشعورهم بأهمية وظيفته باعتبارها ركيزة من ركائز استتباب الأمن والعدل بالمدينة.

وإلى جانب هؤلاء الموظفين الموكلين من قبل الدولة لضبط عمليات البيع والشراء في الأسواق كان يوجد لكل طائفة من التجار نقابة، وقد تجمعت هذه النقابات في نقابة كبيرة تسمى نقابة التجار يرأسها تاجر عظيم عادة ما يكون أكبر التجار سنًّا ويعرف باسم (الشاهبندر)، وكان على معرفة بكل صغيرة وكبيرة وكافة العلاقات بين التجار[١]، وكان هذا الرجل ذا مكانة مرموقة عند الطبقة الحاكمة، حيث كان يزودهم بما يحتاجون إليه من البضائع، وفي الوقت نفسه كان يمثل حلقة الوصل بين التجار والحاكم[٢]، وكان يساعده عدد من التجار يتولون معه تصريف الأمور الخاصة بطوائفهم، حيث كان التجار مجموعة من التقاليد والأعراف يتمسكون بها في حياتهم ويحتكمون إليها عند وقوع أي خلاف فيما بينهم[٣].

ولا شك أن هذا النظام كان معروفًا في كل بلدان العالم الإسلامي، وبفضله نشطت التجارة ونالت رواجًا كبيرًا في مدينة مرو خلال العهد السلجوقي.

٢- التجارة الخارجية

ازدهرت التجارة الخارجية في مدينة مرو خلال العصر السلجوقي؛ ويرجع ذلك لوقوعها على طريق التجارة الرئيسي الذي يربط بين الشرق

---

(١) د/ حسين مؤنس: عالم الإسلام ٣٣١، القاهرة ١٩٧٣م.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ٢٤٠.

(٣) رحيم زاده صفوي: إيران اقتصادي م٢، ٣٧، جابخانة اتحادية طهران ١٣٠٩هـ.

والغرب[١]، كذلك لجهود سلاطين السلاجقة ووزرائهم الذين كان لهم دورٌ في انتعاش الحركة التجارية، فقد حرصوا على توفير الأمن في البلاد والطرق التجارية، كما اهتموا بإنشاء الطرق وتزويدها بالآبار والمحطات لتيسير الانتقال عبرها[٢]، كذلك أبطل السلطان ملكشاه المكوس والخفارات التي كانت تتحصل على التجارة في جميع البلاد[٣].

وحرص نظام الملك على إقامة العدل وتوفير الأمن في كل أنحاء البلاد حتى أصبحت الطرق آمنة، ومن ثم استمتع الناس بالأمن والطمأنينة في عهده، كما أبطل السلطان محمد بن ملكشاه المكوس من كافة المدن قبل وفاته[٤]، كذلك أزيلت كافة المواصير -ما يتحصل من أموال على التجارة وتجارة المرور- والمكوس في عهد السلطان سنجر، ونقشت الأوامر بذلك سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٩م[٥].

وقد ارتبطت مدينة مرو في العصر السلجوقي بشبكة كبيرة من الطرق التجارية الهامة، وكان أشهرها طريق الحرير العظيم[٦] الذي يمتد من بغداد إلى حلوان، حيث يبدأ من بغداد إلى همدان فقزوين والري ونيسابور ومرو وبخارى وسمرقند فيتفرع إلى طريقين الأول إلى خوارزم والثاني إلى الصين[٧].

ومن الطرق الرئيسية الأخرى التي تخترق مدينة مرو الطريق التجاري من

---

(١) مرتضى رواندي: تاريخ اجتماعي إيران م١، ٤٢٤، رينيه غروسيه: جنكيزخان ٣٠٨.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ٢٨٥.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٦٩.

(٤) ابن الوردي: تتمة المختصر ٢/ ٢٤.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٧٨، النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ٢٦/ ٣٧٢.

(٦) عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ١٥١، بغداد ١٩٤٨.

(٧) أرثر كريستن: إيران في عهد الساسانية ١١٥، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٧م.

شمال روسيا إلى الشرق عن طريق بحر قزوين، ومنه تنتقل التجارة إلى مرو وبلخ وبخارى وسمرقند ومنها إلى الصين[١]، وإلى جانب هذه الطرق الرئيسية وجدت طرق فرعية؛ منها الطريق الذي يبدأ من مرو ويحازي نهر مرو صاعدًا إلى مرو الروذ ثم يلتقي بطريق قادم من هراة، ثم يمضي إلى بلخ والحدود الشرقية فيما وراء نهر جيحون[٢].

أما وسائل النقل التي استخدمت في هذه الطرق فهي الإبل والخيول والبغال[٣]، وكان يصل عدد جمال القافلة إلى أربعة آلاف وسبعمائة جمل، وكانت القافلة تتوقف في طريقها حتى تنال قسطًا من الراحة ثم تواصل سفرها[٤].

ولما كانت مرو من المدن التجارية الهامة ومحطة من محطات التجارة الرئيسية في العهد السلجوقي فكان من الضروري إنشاء بعض المنشآت والمؤسسات التجارية حتى تستريح بها القوافل، ومن أهم هذه المؤسسات الخانات[٥]، والخان عبارة عن مبنى ضخم يتكون من مجموعة كبيرة من الحوانيت ومستودعات للبضائع ويشبه المركز التجاري في عصرنا الحالي، وبه أماكن لمبيت التجار ومكان لحفظ دوابهم ودورات المياه[٦]، وعادة ما يتكون

---

(١) د/ عصام عبد الرءوف الفقي: تاريخ الإسلام السياسي في جنوب غرب آسيا في العصر التركي ١٧٧.

(٢) لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٢٤.

(٣) طارق فتح سلطان: العلاقات التجارية بين العرب والصين ١٢٩- ١٣٠، مجلة آداب الرافدين، العراق، العدد ١٣.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ١٠٩.

(٥) أحمد توفيق: تاريخ العمارة ٢/ ٢٤٩.

(٦) أحمد توفيق: المرجع السابق ذكره ٢/ ٢٤٩، زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية ٥.

الخان من طابقين؛ يخصص الدور العلوي لمبيت التجار في حين يستخدم الدور الأول كمخزن لبضائعهم[١].

ومن المنشآت التجارية الهامة أيضًا الفنادق[٢]، ويسكن هذه الفنادق كبار التجار ميسورو الحال، ويتكون المبنى من حوش يحيط به مبان من الجهات الأربع، ويتكون الفندق من طابقين يخصص الطابق العلوي لمبيت التجار ويتكون من عدة غرف، أما الطابق الأرضي فيخصص لإيواء الحيوانات أو لتخزين التجار[٣].

وقد ارتبطت مدينة مرو بعلاقات تجارية قوية مع الكثير من المدن حيث قامت بتصدير ما يفيض من إنتاجها الزراعي والصناعي والمعدني، ومن أشهر صادراتها القطن الجيد[٤] والمنسوجات القطنية والحريرية[٥] والطنافس والبز والشبيرج والأدوات النحاسية والإشترغاز الذي يحمل إلى كثير من البلاد[٦] والأعناب[٧] والزبيب الذي يفضل على غيره من سائر البلاد[٨] والبطيخ المقدد الذي يصدر إلى العراق[٩].

---

(١) منظمة العواصم والمدن الإسلامية: ٤٧٧، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

(٢) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ٣٣٠.

(٣) أحمد توفيق: المرجع السابق ٢/ ٢٤٩.

(٤) أبو الفدا: تقويم البلدان ٤٤٦، رينيه غروسيه: جنكيز خان ٣٠٨.

(٥) أبو الفدا: المصدر السابق ذكره ٤٤٦.

(٦) بدر عبد الرحمن محمد: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق ٢٧٨، الجاحظ: التبصر بالتجارة ٣٧ دار الكتاب الجديد ١٩٦٦م، لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٧٢.

(٧) السمرقندي: جهار مقاله ٣٩.

(٨) الأصطخري: المسالك والممالك ٢٦٦، اليعقوبي: البلدان ٢٨٠.

(٩) ابن حوقل: المسالك والممالك ٣١٦، أبو الفدا: تقويم البلدان ٤٥٧.

واقتصرت واردات مرو على السلع التي لا تتوفر بها فكانت تستورد الإبل من بلاد التركستان لزيادة الطلب عليها لتردد القوافل التجارية العابرة والتي كانت تحتاج إلى استبدال إبل قوافلها حتى تواصل سيرها[١]، كما استوردت الرقيق لزيادة الطلب عليهم في العهد السلجوقي[٢]، واستوردت أيضًا السمور والثعالب والسنجاب والشمع والعسل والبندق والسيوف من بلاد بلغار[٣]، كذلك الأدوية والأحجار الكريمة والخشب والجلود والمسك والحرير الموشى من بلاد الصين[٤]، وأيضًا البورسلين الصيني الجيد، وكانت معظم البضائع التي استوردتها مرو من الصين تتميز بالأحجام الصغيرة، ومعظمها من الكماليات[٥].

كما ورد مدينة مرو سلع ومنتجات من البلاد الأخرى التي كانت تمر عبر أراضيها (تجارة المرور)، وكان أهمها أقمشة الحرير المعروف بالدقمش الموشى بالذهب من الصين[٦]، وكذلك أيضًا التوابل والقرنفل والعطور والأقمشة والجواهر والدارصيني والخزف الأبيض[٧] ومن بلاد الهند الفلفل والزنجبيل[٨].

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ١٠٩.

(٢) . Reuben Levy,The Social Structure of glon , Cambridge,1962 ,p.74

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣٢٥.

(٤) نظام الملك: سياست نامه ١٩٠.

(٥) Bosworth, The Ghoznavids, P.149

(٦) هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ٤/ ٢٠٨، ترجمة أحمد محمد رضا، القاهرة ١٩٩٤م.

(٧) القزويني: آثار البلاد ٥٤.

(٨) ابن بطوطة: رحلته ٤٠٧.

صفوة القول: قامت مدينة مرو خلال العهد السلجوقي بدور كبير في حركة التجارة الخارجية بفضل موقعها على طرق التجارة الرئيسية، وكذلك تشجيع سلاطين السلاجقة برفع المكوس وتأمين الطرق؛ مما أدى في نهاية الأمر إلى انتعاش التجارة وكثرة منتجاتها وتنوعها، ففاقت صادراتها ما تستورده، وانعكس ذلك على مستوى المعيشة وعم الرخاء ولا سيما في عهد سلاطين السلاجقة الأقوياء.

الموازين والمكاييل

ولما كانت حركة البيع والشراء لا تتم إلا بالوزن أو الكيل للبضائع والمنتجات لهذا كان يتم الإشراف على مقدارها بصفة دورية للتأكيد من صحة وزنها[١].

وكان لمدينة مرو أوزانها ومكاييلها؛ ومنها: الفقيز وهو من المكاييل التي تعارف أهلها عليها[٢]، والجريبي من المكاييل التي استعملها أهل مرو وقدره أربع أقفزة[٣]، والدانق وقدره سدس الدرهم والحبة سدس مثقال، والدينار يساوي ستًا وثلاثين حبة والشعيرة ثلث الحبة، والدينار مائة وثماني شعيرات[٤] والمثقال يساوي درهما ودانقين ونصفًا[٥]، أما الرطل فقد اختلف وزنه باختلاف الأماكن والمواضع، والرطل كما هو معروف اثنتا عشرة أوقية.

---

(١) الدمشقي: الإشارة إلى محاسن التجارة ٦٥، التنوخي: الفرج بعد الشدة ٢/ ٢١٢.

(٢) د/ محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية ٣٢٨.

(٣) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٤٢.

(٤) أحمد الشرباصي: المعجم الاقتصادي الإسلامي ١٩٤، دار الجيل، بيروت ١٩٧١م.

(٥) الدمشقي: المصدر السابق ذكره ٦٥.

رابعًا: المعاملات المالية

١ - العملة

كان أساس التعامل النقدي في مدينة مرو الدنانير والدراهم[١]، ولم يكن العرب المسلمون على معرفة بصناعة العملة حينما فتحوا البلاد، ومن ثم فقد أبقوا على العملة السائدة دون تغيير، وظلت صورة الصليب على النقود البيزنطية، وبيت النار على النقود الفارسية[٢]، وفي عهد عبد الملك بن مروان قام بتعريب العملة وإصلاحها وأمر بجمع هذه العملات من الأسواق وإعادة صهرها وصبغها بالصبغة الإسلامية[٣]، وقد ضربت بمرو عملة عربية خالصة[٤]، كما ضرب بها دنانير ودراهم الأمويين والعباسيين والطاهريين والسامانيين[٥]، وفي عهد السلاجقة ضرب ألب أرسلان نقوده في مرو عندما كان حاكمًا على خراسان سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م، وقد وصلتنا من هذه الفترة عملتان[٦].

وكان ينقش على هذه العملات بعض السور القرآنية ولفظ الجلالة واسم الرسول صلى الله عليه وسلم واسم ألب أرسلان ومكان وسنة الضرب على النحو التالي:

---

(١) انستاس الكرملي: النقود العربية وعلم النميات ٢٨- ٢٩، القاهرة ١٩٨٧م، حسان حلاق: تعريب النقود العربية في العصر الأموي ١٥، القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) الخوارزمي: المصدر السابق ذكره ٦٧.

(٣) حسني محمد بوصير: الآثار الإسلامية ٢٠٩- القاهرة ١٩٩٦م.

(٤) عبد الرحمن فهمي: فجر السكة العربية ٢٧٩.

(٥) Miles George,Rare islamic cains , New York 1950,p .38 .

(٦) محمد باقر الحسيني: نقود السلاجقة ٥٢، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

مركز الوجه	مركز الظهر
لا إله إلا الله	محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم
القائم بأمر الله	عضد الدولة وتاج الأمة
	ألب أرسلان
هامش داخلي	هامش
بسم الله ضرب هذا الدينار بمرو سنة ثلاث	محمد
وخمسين وأربعمائة	رسول الله
هامش خارجي	هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾
﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾	
سورة الروم الآية ٤	سورة الصف الآية ٩

كما ضرب السلطان ألب أرسلان نقوده في مرو أيضًا بعد توليه السلطنة، ووصلتنا عملتان من هذه الفترة[١] وقد حملتا النقوش السابقة.

وكان التغيير في سنة الضرب واللقب الذي تلقب به ألب أرسلان (شاهنشاه ملك الإسلام)، كذلك ضرب السلطان سنجر أول نقوده في مرو وكان لقبه قبل توليه السلطنة (ناصر الدين ملك المشرق)[٢].

وكانت عملة السلاجقة في بداية الأمر من الذهب حيث كان هناك شبه تعميم لاستعمال الدينار الذهبي في كافة المعاملات المالية[٣]، ولكن بعد أن تقلصت واردات الذهب استخدم السلاجقة العملات الفضية والنحاسية

---

(١) محمد باقر الحسيني: نقود السلاجقة ٥٢ - ٥٣.

(٢) Stanley Lone Poole, Catalogue of The colletion of Arabic coins,p.109

(٣) R.A.G Carson, Ancient Medieval and Modern coins,p. 48.

بصورة أكبر[١].

وقد اختلفت مسميات الدنانير في مرو خلال العهد السلجوقي، فنجد الدينار العوالي في عصر سلاطينها العظام، وكان وزنه ٤٥٠جم؛ وبالتالي فقد زاد عن الوزن الأصلي للدينار الإسلامي الذي كان وزونه ٤٢٥ جم[٢]، كما شاع استخدام الدينار الركني في عهد السلطان سنجر في مرو، وسائر خراسان، ومما يؤكد ذلك عندما عرض الغز على السلطان سنجر مائتي ألف دينار ركنية مقابل عفوه عنهم[٣].

وكان وزن الدينار ثابتًا في عهد سلاطين السلاجقة الأقوياء، لكنه تناقص أواخر العصر السلجوقي[٤]، والمراد بذلك: أن سلاطين السلاجقة الأقوياء قد حرصوا على سلامة عملتهم وراقبوا مراحل السك وتأكدوا من صحة عياره عند سكه في دار الضرب، وكانت طريقة ضرب النقود تتم بتنقية الذهب والفضة عدة مرات، ثم تقطع كل منهما قطعًا صغيرة ذات أوزان معينة ثم تطرق لتأخذ شكلًا دائريًّا وتطبع بحديدة منقوشة تسمى السكة حتى تظهر الكتابة عليها[٥].

ومما لا شك فيه أن معظم نقود السلاجقة كانت مثقوبة من إحدى جوانبها مما جعل النساء والأطفال يستخدمونها كنوع من التعاليق لما بها آيات

---

(١) إيرين خرانك: طريق الحرير ١١٧.

(٢) انستاس الكرملي: النقود العربية وعلم النميات ١٠٧، خواندمير: دستور الوزراء ٢٩١.

(٣) Miles George The Numismatic History of Rayy,p.108

(٤) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٢٥٨.

(٥) محمد باقر الحسيني: المركز العالمي للدنانير والدراهم الإسلامية ١٥٩، المجلة التاريخية العراقية العدد الأول ١٩٧١م.

قرآنية[١].

وقد حرص سلاطين السلاجقة على ذكر اسم الخليفة العباسي على إحدى وجهي العملة؛ لإضفاء الشرعية على حكمهم، وقد ازدهر الدينار السلجوقي ازدهارًا كبيرًا في حين قلَّت قيمة الدراهم[٢].

ومن الثابت تاريخيًّا أن العملة الإسلامية من أهم مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، فهي تلقي الضوء على الحوادث السياسية والتطورات الدينية والاقتصادية، كما وضحت العملات التي ضربها السلاجقة في مرو مدى النفوذ والسلطان الذي تمتعوا بها بدليل الألقاب التي نقشوها على عملاتهم، كما وضحت فترات النزاع والضعف التي وصلت إليه دولة السلاجقة أواخر أيامها، وأكدت أيضًا مكانة المدينة التجارية فكان لانتشار عملتها خارج حدودها أكبر دليل على نفوذها التجاري.

ولم يقتصر استخدام التجار على العملات النقدية فقط بل استخدموا أساليب مصرفية أخرى كالسفاتج والصكوك، والسفاتج[٣] عبارة عن رقاع يكتبها الجهابذة أو الصرافون بقيمة المبالغ التي تؤخذ منهم، وتكون قابلة للصرف في أي بلد من عملاتهم[٤]، وكان للسفتجة ميعاد عند صرف قيمتها كاملة، وكان الميعاد يحل بعد أربعين يومًا من تحريرها، وكان من حق صاحب السفتجة أن يصرف قيمتها دفعة واحدة أو على أقساط[٥]، ويمكنه أيضًا صرف

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ١٥٥، ابن خلدون: المقدمة ٢٦١.

(٢) محمد الباقر الحسيني: نقود السلاجقة ٣٥- ٣٦.

(٣) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ١٦٣.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢/ ٢٧٨.

(٥) فيصل السامر: نهضة التجارة في العصور الإسلامية ٧٥، مجلة المؤرخ العربي العدد ١٧، ١٩٨١م.

قيمتها قبل حلول موعدها بخصم يصل إلى ١/ ١٠ من قيمتها.

وقد شاع استخدام السفاتج في مرو خلال العصر السلجوقي، وكانت إحدى وسائل المعاملات المالية التي استخدمت وقتذاك، ولا شك أن المعاملات الضخمة تستدعي وسائل مأمونة من الضياع خفيفة الحمل بعيدة عن متناول اللصوص[١]، وأمكن لتجار مرو عن طريق السفاتج[٢] تسوية حساباتهم مع غيرهم من التجار[٣] في الولايات الإسلامية وغيرها، مثلها في ذلك مثل بلدان الدولة الإسلامية في ذلك الوقت[٤]، ومن ثم فقد استطاع تجار مرو نقل نقودهم من مكان إلى آخر بعيدًا عن خطر اللصوص، كما استعملوا السفاتج في مبيعاتهم ومعاملاتهم الخاصة في الداخل والخارج.

كما استخدم التجار الصكوك وهي وسيلة من وسائل دفع[٥] المال وهي أشبه ما تكون بالشيكات في الوقت الحالي يثبت فيه قيمة القرض وموعد صرفه، وكان الجهابذة يقومون بصرف هذه الصكوك لأصحاب الأموال المودعة لديهم نظير مبلغ معين من المال، وكان يشهد عليه اثنان ثم يختم، وأحيانًا كان يوقع عليه ضامن يتعهد بدفع قيمة الصك في حالة عجز المدين عن دفع قيمة الصك[٦]، وتعد الصكوك أرقى ما وصلت إليه المعاملات المالية

---

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ٨/ ٢٢٢.

(٢) Innamuddin Byat,Vol1, p.20

(٣) عبد العزيز الدوري: النظم الإسلامية ١٧٤، القاهرة ١٩٥٠م، د/ محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق ذكره ١٦٣.

(٤) عبد العزيز الدوري: النظم الإسلامية ١٧٤، بغداد ١٩٥٠م.

(٥) محمد جمال الدين سرور: الحضارة الإسلامية في الشرق ١٦٣، د/ عصام عبد الرءوف الفقي: الحواضر الإسلامية ١٥١ - ١٥٢.

(٦) د/ عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ١٤٥، بغداد ١٩٤٨م.

والتجارية في مدينة مرو في آنذاك.

وقد أدى التوسع في استعمال السفاتج والصكوك إلى قيام الصيارفة والجهابذة بدور كبير في الحركة التجارية؛ حيث كان الصراف في السوق يقوم بالكثير من أعمال البنوك، إذ يقوم بتغيير العملة، حيث جرت العادة أن التاجر إذا دخل السوق أودع ما معه من المال لدى أحد الصرافين وأخذ بدله رقاعًا، وبهذه الرقاع يشتري ما يريد ويعطي البائع منها ما يساوي قيمتها المادية[١]، كما قام الأهالي بمحاكاة التجار تفاديًا لخطر اللصوص، وفي النهاية يقوم التاجر بمحاسبة الصراف ويأخذ المتبقي له، أو يدفع الزائد عليه[٢].

أما الجهابذة[٣] فكانوا أوسع ثروة وأعلى مكانة من الصرافين حيث كانوا يقومون بمهمة الوكلاء الماليين لكبار التجار والحكام، ويعتبر الجهبذ مؤسسة مالية واسعة النطاق، وكان يساعده مجموعة من الكتبة والمحاسبين، وكان المحتسب يقوم بالإشراف على كافة الأعمال المصرفية التي يقوم بها الجهابذة والصرافون[٤].

وفي النهاية شهدت مدينة مرو انتعاشًا اقتصاديًّا في الزراعة والصناعة والتجارة، فنهضت الزراعة وتنوعت محصولاتها بفضل رعاية السلاجقة، كما تقدمت الصناعة فقد أصبحت مدينة مرو قلعة هامة من قلاع الصناعة، وأخذت منتجاتها تجوب البلاد، كذلك شهدت التجارة حركة واسعة سواء التجارة الداخلية أو الخارجية، وفاقت بضائعها شهرة عالمية بين مدن العالم في ذلك الفترة.

---

(١) د/ حسين مؤنس: تاريخ الفكر الإسلامي ١٣٨.

(٢) فيصل السامر: نهضة التجارة في العصور الإسلامية ٧٥.

(٣) د/ حسين مؤنس: عالم الإسلام ٣٤١.

(٤) ابن خلدون: المقدمة ٢٥٥.

المجاعات والأزمات الاقتصادية

تعرضت مدينة مرو أثناء العهد السلجوقي لعدة مجاعات وأزمات اقتصادية التي سببت خسائر بالغة في الإنتاج، فكانت الزراعة تتعرض أحيانًا لبعض الكوارث الطبيعية نذكر منها على سبيل المثال: ما وقع سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م عندما تعرضت المدينة لزلزال استمر عدة أيام؛ مما أدى إلى هلاك الكثير من أهل المدينة وهروب البعض الآخر إلى الصحراء للإقامة بها[١]، ونتج عن ذلك حدوث المجاعات، كذلك تسببت السيول والرياح الشديدة في تدمير محاصيل الحنطة والشعير في مدينة مرو وسائر مدن خراسان سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧١ م[٢]، كذلك شملت مدينة مرو أيضًا موجة من البرودة الشديدة سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م أدت إلى تدمير المحاصيل الزراعية فارتفعت الأسعار وتعذرت معها الأقوات ومات الكثير من أهل المدينة وانتشرت الأوبئة[٣].

وتعرضت التجارة في مرو أثناء العهد السلجوقي لبعض التهديدات الخطيرة، نذكر منها: تعرض القوافل التجارية لخطر الإسماعيلية الذين كانوا يهاجمون القوافل ويستولون على ما فيها[٤] فضلًا على قيامهم بقتل الكثير من أهل المدينة وسرقة الأسواق وإغلاق الطرق التجارية[٥].

أيضًا ألحقت الاضطرابات السياسية أضرارًا خطيرة بالحالة الاقتصادية في

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٧٧.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٦/ ١٣٩.
(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٤.
(٤) ميرخوند: روضة الصفا ٢٥٣.
(٥) ابن الوردي: تتمة المختصر ٢/ ٦.

المدينة، فقد كانت الحروب الطويلة التي نشبت بين سلاطين السلاجقة[١] تعتبر من أهم الأزمات، ففي عهد السلطان ملكشاه استولى تكش على مدينة مرو وأعلن العصيان على السلطان[٢]، وأطلق يد جنوده في المدينة فسلبوها ونهبوها عن آخرها، كذلك انتهز أرسلان أرغون بن ألب أرسلان الحرب بين ابني أخيه بركياروق ومحمود واستولى على مدينة مرو وخربها وقتل معظم أهلها[٣]، هكذا تجمعت كل من العوامل الطبيعية والبشرية السيئة في إلحاق أضرار خطيرة بالحالة الاقتصادية في مدينة مرو في العهد السلجوقي.

المستوى المعيشي

ارتبط الرخاء والرخص في الأسعار في كل العصور بالاستقرار السياسي، فكانت مدين مرو في عهد سلاطين السلاجقة الأقوياء تنعم بالرخاء وانحلال الأسعار[٤]؛ وذلك بفضل السياسية الحكيمة التي اتبعها هؤلاء السلاطين مع الأهالي بتخفيف الضرائب وأخذ الخراج على مرتين في السنة لعدم إرهاقهم[٥].

كما أصلح سلاطين السلاجقة ووزراؤهم ولاسيما الوزير نظام الملك حال التجار بأن رفعوا المكوس والضرائب على البضائع فهبطت الأسعار وعم الرخاء[٦]، وعاش الأهالي في مرو في أمن ورغد من العيش، وقد انتعشت

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ٤٩٣.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ٤٩٣.

(٣) الحسيني: زبدة التواريخ ١٣٣، النويري: نهاية الأرب ٢٦/ ٣٢٢.

(٤) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٢٣٦- ٢٣٧، الحسيني: المصدر السابق ذكره، ١٧٥- ١٧٦.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٦، نظام الملك: سياست نامه ٧.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٥٨٨.

الحالة الاقتصادية بتقدم الزراعة وتنوع المحاصيل[١]، فضلًا عن انتعاش الصناع وتقدمها فقد أخذت منتجاتها تجوب البلاد[٢]، كما نشطت التجارة الرئيسة[٣]، وتشجيع سلاطين السلاجقة برفع المكوس وتأمين الطرق التجارية[٤] مما أدى إلى تنوع منتجاتها ففاقت صادراتها وارداتها، ومن هنا عم الرخاء وارتفع مستوى المعيشة في المدينة.

صفوة القول: إن عهد السلاجقة الأقوياء هو عهد الرخاء والتقدم والرفاهية، أما فيما عدا ذلك فقد تعرضت المدينة في بعض الأحيان لبعض الأزمات الاقتصادية التي ترتب عليها موجات من الغلاء شملت المدينة وألحقت أضرارًا كبيرة بأهلها، وهكذا تفاوت مستوى المعيشة في مدينة مرو بين الارتفاع والانخفاض، ففي عهد سلاطين السلاجقة الأقوياء عاش أهل مرو في رخاء اقتصادي ورغد من العيش، بينما حدث العكس في أواخر الدولة السلجوقية والاضطرابات السياسية.

---

(١) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٧٠.

(٢) الثعالبي: لطائف المعارف ٤٢٠، ثمار القلوب ٥٤٢، القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٣٩٤، لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٢، رينيه غروسيه: جنكيزخان ٣٠٨.

(٣) مرتضى راوندي: تاريخ اجتماعي إيران م١ ٤٢٤.

(٤) ابن الوردي: تتمة المختصر ٢/ ٢٤، النويري: نهاية الأرب ٢٦/ ٣٧٢، ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٧٨.

الفصلُ الرابع
الحياةُ الثقافيةُ في مدينةِ مرو
في العهدِ السلجوقي

حظيت مدينة مرو أثناء العهد السلجوقي بنهضة ثقافية كبيرة واسعة، فهي من أكبر مراكز النهضة الثقافية في الشرق الإسلامي، فقد تخرج منها عدد من كبار العلماء والفقهاء والمحدثين واللغويين والشعراء والتصوف والفلاسفة وغيرهم، مما أصبحت معقلًا ومهبطًا للعلماء وطلاب العلم الذين يحضرون إليها من جميع الأمصار الإسلامية ليتلقوا العلم من علمائها.

وقد شجعت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة المسلمين على طلب العلم وتحصيل المعرفة، ومنها قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر: ٩]، وقال الله تعالى: ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ [طه: ١١٤] وقال-عَزَّ وجَلَّ: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا** ﴾ [فاطر: ١٢٨]، وقال صلى الله عليه وسلم: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض، حتى النملة في جحرها، حتى الحوت ليصلون على معلمي الناس**»، وردت الأحاديث في سنن الترمذي والنسائي.

وقد قام الحكام بتشجيع العلماء وتقديرهم[١] وإجزال العطاء لهم؛ مما كان له أثر كبير في التقدم والازدهار بالحركة الثقافية في مدينة مرو وقتذاك[٢]، فكان السلطان سنجر محبًّا لأهل العلم[٣]؛ فتدفق العلماء عليه وأصبحت مدينة مرو

---

(١) الراوندي: راحة الصدور آية السرور ٧٢

(٢) Reynold Nicholson: Ali Terory History of the Arabis p.276

(٣) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ١٢٥.

منهلًا ومقصدًا للعلم[١].

وكان للوزراء أيضًا دور هام في تقدم الحركة العلمية، فنذكر الوزير نظام الملك كان أعظمهم شأنًا فقد تمكن أن يجعل البلاط السلجوقي مركزًا ثقافيًّا، وكانت مجالسه عامرة بالعلماء والفقهاء والشعراء[٢]، كذلك الوزير عبد الدوام عبد الله بن علي بن إسحاق وزير السلطان سنجر كان متعمقًا ومتبحرًا في علوم الشرع، متكلمًا في الأصل والفروع، وصارت للفقهاء في زمانه مكانة كبيرة[٣]، وكذلك أيضًا الوزير نصير الدين المظفر الخوارزمي أحد وزراء السلطان سنجر، كان من أساطين العلوم العقلية والنقلية وخاصة في الفقه الشافعي[٤].

أيضًا من عوامل ازدهار النهضة العلمية اهتمام أهل مدينة مرو بتشجيع العلم والعلماء، فلم يبخل بعض العلماء ذوي الثروة في الإنفاق على العلم، فكان أبو الحسن علي بن الحسين الحفصوي المروزي كان كريمًا مع طلبة العلم والعلماء من المسلمين[٥]، كذلك أيضًا الإمام أبو المعالي عبد الله بن أحمد الحلواني المروزي الذي صرف الكثير على العلم واشترى بأمواله الكثير من الكتب ووقفها على أهل العلم، وأنشأ رباطًا للمحدثين بمدينة مرو[٦].

أيضًا من عوامل ازدهار الحركة الثقافية حركة الترجمة التي نشطت وجعلت العلوم العلمية والتجريبية في متناول المسلمين، فاستفادوا منها

---

(١) الراوندي: راحة الصدور ٢٦٠.

(٢) نظام الملك: سياست نامه ٥.

Micheel Broome: A Hand book of Islamic coins,p.84

(٣) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٢٤٥.

(٤) خواندمير: دستور الوزراء ٢٨٢- ٢٨٣.

(٥) السمعاني: الأنساب ٢/ ٤٩.

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١١٤- ١١٥.

وهضموا ما فيها ثم أخذوا يضيفون عليها؛ فظهرت مآثر المسلمين في كثير من العلوم كالطب والفلك والرياضة والفلسفة والجغرافيا والكيمياء[١].

كما كان لانتشار الفرق الدينية والمذاهب المختلفة التي اتخذت من العلم وسيلة وطريقة لتحقيق أغراضها السياسية والدينية عظيم الأثر في النهضة الثقافية، وقد ظهر ذلك في الآثار العلمية والأدبية التي خلفها رجال العلم من السنة والشيعة[٢].

كذلك كانت الرحلة في طلب العلم من سمات الحياة العامة في مدينة مرو في العهد السلجوقي، وقد ساعد على تيسير هذه الرحلة عدم وجود أي حواجز أو عوائق بين خراسان وما وراء النهر، فكانت مدينة مرو محل ترحال العلماء وحلهم، وكان طلاب العلم ينتقلون من بلد إلى آخر في حركة دائبة للوصول إلى المنبع الأصلي للعلم، فعلى سبيل المثال كانت رحلة أبي معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي[٣] (٤٣٧هـ/ ٤٤٤هـ، ١٠٤٥ م/ ١٠٥٢م)، وقد بدأت هذه الرحلة من مدينة مرو إلى أذربيجان وأرمينيا والشام وفلسطين ومصر والحجاز ونجد وجنوب العراق ثم عاد إلى إيران منتهيًا به المطاف إلى بلخ[٤]، وقد دون ناصر خسرو ما شاهده في هذه البلاد في كتابه سفرنامه[٥].

أيضًا من الطلاب الذين رحلوا في طلب العلم أبي الحجاج يوسف بن

---

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٩٠.

(٢) عبد النعيم حسنين: المرجع السابق ذكره ١٨٧.

(٣) ناصر خسرو: سفرنامه ١/ ٣٥، ترجمة يحيى الخشاب-القاهرة-مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥ م.

(٤) ناصر خسرو: سفرنامه ١/ ١- ٢، ترجمة يحيى الخشاب-القاهرة ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م، زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ٥٦، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٥) حاجي خليفة: كشف الظنون ٢/ ٩٩١.

محمد بن فارو الأندلسي الأشكري، وهو شاب حسن السيرة عارف بالحديث، خرج في طلب العلم من بلاد المغرب ورحل إلى العراق ثم إلى نيسابور ومرو وهراة وسمع الحديث، وانتهى به المطاف ببلخ حيث مات بها[١].

أيضًا كذلك الفقيه البسكري الذي نشأ وتربى في بلاد المغرب ثم رحل إلى مدينة مرو سنة (٥٤٢هـ/ ١١٤٧ م) وتوفي بها[٢].

كما اشتهر أبو سعد عبد الكريم السمعاني[٣] برحلاته العديدة في شتى البلدان والأمصار الإسلامية مما ساعده على تأليف كتاب (الإسفار عن

---

(١) السمعاني: الأنساب ١/ ١٦٨.

(٢) السمعاني: المصدر السابق ذكره ١/ ٣٥٤.

(٣) هو أبو سعد السمعاني الحافظ البارع العلامة تاج الإسلام عبد الكريم ابن الحافظ معين الدين أبي بكر محمد ابن العلامة المجتهد أبي المظفر منصور المروزي، ولد سنة ٥٠٦هـ في شعبان وعنى بهذا الشأن ورحل إلى الأقاليم، وسمع من أبي عبد الله الفراوي وزاهر الشحامي والطبقة وبلغت شيوخه سبعة آلاف شيخ، وصنف (الذيل) على تاريخ الخطيب، و(تاريخ مرو) و(أدب الطلب)، و(الإملاء والاستملاء)، و(معجم الشيوخ)، و(معجم البلدان)، و(الدعوات) و(صلاة التسابيح)، و(الأمالي)، و(الأنساب)، و(فضائل الشام)، ومن كنيته أبو سعد، وغير ذلك، مات في جُمادى الأولى سنة ٥٦٢هـ، عن ٥٦ عامًا.
انظر المزيد في: المنتظم ١٠/ ٢٢٤، الكامل في التاريخ ١١/ ٣٣٣، اللباب ١/ ١٣، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣١٦، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٥٦، المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثي للذهبي ٣/ ٦٧، دول الإسلام ٢/ ٧٦، العبر ٤/ ١٧٨، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ١٧٢، مرآة الجنان ٣/ ٣٧١، طبقات السبكي ٧/ ١٨٠، طبقات الإسنوي ٢/ ٥٥، البداية والنهاية ١٢/ ١٧٥، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٧٥، الأنس الجليل ٢٦٨، مفتاح السعادة ١/ ٢٠٦، كشف الظنون ٣٥، ٤٩، ٨٦، شذرات الذهب ٤/ ٢٠٥، روضات الجنات ٤٤٦، هدية العارفين ١/ ٦٠٨، إيضاح المكنون ٢/ ٣٠.

الأسفار)[١]، ومما لا شك فيه أن للرحلة في طلب العلم فوائد عظيمة في التعرف على ثقافات الأمم الأخرى والاستفادة منها للوصول إلى المنبع الأصلي للعلم، ومن ثم اتساع دائرة الثقافة بوجه عام.

كما كان توافر استعمال الورق في الكتابة من أهم عوامل تقدم النهضة الثقافية في مدينة مرو، فكانت مدينة سمرقند أكبر مركز لصناعة الورق حيث ينمو بها شجر الكاغد الذي يصنع من لبه الورق، ثم أخذت هذه الصناعة تنتشر في المدن الإسلامية ومنها مدينة مرو[٢] مما أدى إلى تقدم فن الوراقة وقيام الوراقين بنسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها[٣] وبيعها.

وقد انتشرت دكاكين الوراقين قرب المساجد في مدينة مرو، وأصبحت مراكز للأبحاث الراقية حيث يلتقي فيها الأدباء وتعقد فيها المناظرات وتدور فيها المناقشات[٤]، وقد ساعدت هذه الدكاكين على رفع المستوى الثقافي وإيجاد طبقة من المثقفين على درجة من النضج والوعي العلمي، وقد اشتغل بالوراقة علماء أجلاء منهم أبو عبد الله محمد بن أبي حامد أمير كابن أبي فيركا الجبيلي الروذباري الذي تقلد القضاء اكثر من ثلاثين سنة بالروذبار بنواحي مرو، وقد أخذ الفقه على والد السمعاني، وكان يتسم بحسن الخط فاشتغل بما يعنيه من نسخ الكتب بخطه، وتوفي بمرو حوالي سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥ م[٥].

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ١٨١ - ١٨٣.

(٢) د/ عصام عبد الرءوف: تاريخ الفكر الإسلامي ١٧٩.

(٣) د/ عصام عبد الرءوف: الدول المستقلة في الشرق ١٧٤ - ١٧٥.

(٤) د/ عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٩٠، محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام ٧٥، بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨ م، أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ٣٧٦.

(٥) السمعاني: الأنساب ٣/ ١٠١.

أيضًا من مظاهر التقدم في الحركة العلمية ظهور بعض البيوتات التي بلغت مكانة علمية مرموقة مثل أسرة السمعاني التي ينسب إليها أبو سعد عبد الكريم السمعاني الذي يعتبر بيته أرفع وأعظم وأقدم بيت في البلدان الإسلامية في العلوم الشرعية، وكان أسلاف هذا البيت قدوة العلماء[١]، هكذا تجمعت عدة عوامل وأسباب أدت إلى ازدهار الحركة العلمية والثقافية في مرو في العهد السلجوقي.

وهناك عدة أماكن ومؤسسات علمية في مدينة مرو نتيجة لاهتمام سلاطين السلاجقة بالفقهاء والعلماء والمفسرين، وقد تنوعت المؤسسات العلمية في مدينة مرو ويرجع هذا للخلافات المذهبية، حيث أسست لكل فرقة مؤسسة علمية لتدريس تعاليمها ومبادئها.

فنبدأ بالمؤسسة الأولى وهي (**الكتاتيب**):

وهي المرحلة الأولى من مراحل التعليم حيث يتلقى الصبيان فيها حفظ القرآن الكريم والكتابة والحساب والقراءة[٢] في سن صغير، وكانت الدراسة في الكتاب دراسة تشمل على ما يدرسه الطلاب في المدارس الابتدائية[٣]، وكان يقوم بتعليم الصبيان (معلم الصبيان) مقابل راتب ضئيل[٤]، أما عن وسيلة التعليم في الكتاب فكانت التلقين والحفظ.

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ١٨١.

(٢) البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام ٢٦، د/ عصام عبد الرءوف: الحواضر الإسلامية ٢٤٣، د/ عصام عبد الرءوف: تاريخ الفكر الإسلامي ١٨٠، د/ أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ٣٨- ٣٩ النهضة المصرية-القاهرة ١٩٦٦ م.

(٣) د/ عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية ١٥٨، د/ عصام عبد الرءوف الفقي: الحواضر الإسلامية ٣٤٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٦٧.

ومن أشهر مؤدبي مدينة مرو الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي بكر محمد بن عبد الله الأديب الأكافي النيسابوري، وهو مؤدب الشيخ أبي سعد عبد الكريم السمعاني المتوفى ٥٣٠هـ/ ١١٣٥ م[١]، وأيضًا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحسين المعلم الجيخني، كان شيخًا صالحًا من أهل القرآن يعلم الصبيان برأس سكة كارنلي بمدينة مرو المتوفى ٥٣٩هـ/ ١١٤٤ م[٢].

ومن المؤسسات والأماكن العلمية (**المساجد**):

تعتبر المساجد في مدينة مرو أثناء العهد السلجوقي من أكبر وأهم المؤسسات العلمية، فهي فضلًا عن الغرض الرئيسي لإنشائها وهو العبادة فقد قامت بدور كبير في نشر الثقافة الإسلامية والوعي الديني، فقد ضمت حلقات لتدريس مختلف العلوم الدينية من حديث وفقه وتفسير وقراءة القرآن وعلوم اللغة، ومن هذا يمكن القول: إن المساجد كانت أشبه بالجامعات يدرس فيها مختلف التخصصات، وكان يتولى التدريس فيها علماء اشتهروا بإتقانهم هذه العلوم[٣].

فكان الشيخ أبو بكر محمد بن منصور السمعاني المروزي يعقد مجالس إملائه بمسجد مرو حيث أملى به مائة وأربعين مجلسًا[٤]، وكان أيضًا أبو بكر محمد بن عبد الرحيم الأندغني يدرس الفقه بالجامع في رأس الصيارفة بمدينة مرو[٥].

---

(١) السمعاني: الأنساب ١/ ٢٠٢- ٢٠٣.

(٢) السمعاني: الأنساب ٢/ ١٤٠.

(٣) د/ عصام عبد الرءوف: تاريخ الفكر الإسلامي ١٨٢، السمعاني: الأنساب ١/ ٣٠٥.

(٤) السمعاني: الأنساب ١/ ٢١٦، وفيات الأعيان ٤/ ٢٠٢، ياقوت الحموي: معجم الأدباء ٢/ ١٧٧.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٧٢، السمعاني: المصدر السابق ١/ ٢١٦.

وقامت المساجد بدور كبير في ترويج العلوم المذهبية حيث قام أتباع كل فرقة بإلقاء علومهم على مريديهم، فكانت الدراسة مقتصرة على أتباع الفرقة والعلوم والمبادئ الخاصة بمذهبهم[١]، ولا شك أن هذه الخلافات المذهبية قد أثرت في الحياة الثقافية في المدينة، وقد اشتهرت جميع المساجد بقوة دروس العلم وكثرة المناظرات الدينية، ومن هذه المساجد: المسجد الجامع، ومسجد القفال بسكة القصادين[٢]، ومسجد الصاغة[٣]، كما وجد بقرى مرو مساجد كثيرة في خرق، وفرغول، وكمسان، وأندغن، وغير ذلك[٤].

وكان في كل جامع مكتبة حيث كان من عادة العلماء حينذاك أن يوقفوا كتبهم على الجامع ليستفيد منها طلاب العلم[٥]، وقد أدت المساجد في مرو رسالتها التعليمية بنجاح، وساهمت من خلال حلقات العلم ومجالس المناظرة في ازدهار الحياة الثقافية خلال العصر السلجوقي.

أيضًا من المؤسسات العلمية (**المدارس**):

كثرت في مدينة مرو الكثير من المدارس التي فاقت شهرتها في السماء[٦]، ولم يقتصر بناء المدارس على سلاطين السلاجقة ووزرائهم؛ بل قام سكان المدينة الأثرياء ببناء الكثير منها، ومن الجدير بالذكر أن الخلافات المذهبية قد سيطرت على العملية التعليمية في المدارس، حيث قام أتباع كل فرقة بنشر مبادئهم

---

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٨٢.

(٢) السمعاني: الأنساب ١/ ٣٠٥.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٣٦٢.

(٤) السمعاني: المصدر السابق ذكره ٢/ ٣٤٩، وجـ٥ ٩٤.

(٥) آدم متز: تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١/ ٢٤٣.

(٦) فامبري: تاريخ بخارى ١٨٠.

ودحض مبادئ الفرق المخالفة لهم[١].

وكانت المدرسة تتكون من صحن مكشوف يحيط به أربعة إيوانات متعامدة على شكل قاعات ذات قباب، كما كانت تشتمل على أماكن مخصصة للدراسة فضلًا عن أماكن مخصصة لإقامة المدرسين والطلبة[٢]، وقد كثرت الأوقاف التي وقفت على المدارس في مرو لعمارتها وصرف رواتب الأساتذة والمدرسين والطلاب وتوفير كل حاجتهم من مأكل وملبس وأدوات دراسية[٣]، وكان يقوم بالتدريس في هذه المدارس مدرسون ومعيدون متخصصون في العلوم الدينية والأدبية التي كانت أساس الدراسة؛ لأن سائر العلوم العقلية كانت مكروهة لدى علماء المسلمين[٤].

ومن أشهر المدارس التي اشتهرت في مرو المدرسة العميدية التي ترجع إلى عميد خراسان محمد بن منصور النسوي الذي بناها ووقفها على أبي بكر بن المظفر السمعاني وأولاده وقد درس تاج الإسلام أبو سعد بهذه المدرسة، وكانت تحتوي على خزانة كتب[٥].

والمدرسة الخاقانية التي بناها الخاقان محمد بن سليمان المسوسي المعروف بأرسلان خان[٦]، وقد تولى التدريس بها أبو الحسن علي بن مودود بن الحسين

---

(١) د/ عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٨٢.
(٢) أوقطاي أصلان: فنون الترك وعمائرهم ٤٦- ٤٧، زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية في الإسلام ٥٠، أبو صالح الألفي: الفن الإسلامي ٢٠٦.
(٣) النويري: نهاية الأرب ٢٦/ ٣٣٣، سعد زغلول عبد الحميد: العمارة والفنون في دولة الإسلام ٤١٢.
(٤) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ٣٧٦- ٣٧٧.
(٥) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٢٨، ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ١١٤.
(٦) السمعاني: الأنساب ٥/ ٦١٤.

بن الحسن الكشاني، وهو إمام (فاضل) و(مناظر) (فقيه) تفقه على يديه جماعة كثيرة من أهل العلم، توفي بمرو سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١ م[١].

ومن مدارس مرو المدرسة التي تنسب إلى القاضي محمد بن الحسين الأرسابندي الحنفي قاضي مرو وهو من العلماء الأجلاء، سمع منه أبو سعد السمعاني، وكان أبو الفضل عبد الرحمن بن محمد بن أميرويه الكرماني إمام أصحاب أبي حنيفة تفقه على الأرسابندي، وقد اشتغل بالعلم ونشره وتكاثر لديه الفقهاء وطلاب العلم، وانتشر أصحابه في الآفاق، وكانت وفاته بمرو سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م[٢]، والمدرسة الخازنية التي تولى التدريس بها أبو عمرو المستوفي الذي كان فقيهًا مناظرًا[٣].

أيضًا من المدارس؛ المدرسة النظامية: شهدت مدينة مرو خلال العصر السلجوقي عصر رواج للعلوم المذهبية والأدبية وانطلاقًا للحركة المدرسية في العالم الإسلامي التي قادها الوزير نظام الملك الذي يعد بحق المؤسس الأول لنظام الجامعات في العالم[٤] بإنشائه لنظامية مرو التي بلغت درجة عظيمة من التنظيم والدقة، فكانت أول نوع من المؤسسات العلمية بمعناها الصحيح، حيث هيأت لمدرسيها وطلابها كل سبل الحياة من مسكن ومأكل وراتب شهري ثابت[٥].

وكان ذلك بدون شك بفضل الأوقاف الكثيرة التي وقفها الوزير نظام

---

(١) ناجي معروف: علماء النظاميات ١٠٢، بغداد ١٩٧٣ م.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ٤/ ١١٤.

(٣) ناجي معروف: المرجع السابق ذكره ٩٧.

(٤) صادق نشأت ومصطفى حجازي: صفحات عن إيران ٧٢، القاهرة، ١٩٦٠ م.

(٥) إدوارد بروي: تاريخ حضارات العالم في العصور الوسطى ٣٣٩، ترجمة يوسف أسعد داغر-القاهرة ١٩٨٦ م.

الملك على هذه المدرسة، كما ساعدت في استمرارية العملية التعليمية بها وتقدمها في ذلك العصر[١]، ولم تقتصر الأوقاف على نظام الملك بل امتدت لتشمل أهل المدينة الأغنياء الذين قاموا برصد الكثير من الأوقاف لخدمة الحركة التعليمية، وكان يعين على الوقف شخص أمين يرعاه يسمى (ناظر الوقف) أو (متولي الوقف)[٢].

أما عن نظام الدراسة فقد انصب اهتمام نظام الملك ومن جاء بعده على اختيار أكفأ العلماء لينهضوا بالحركة العلمية[٣]، فكان لكل علم من العلوم مدرس متخصص يساعده معيد يقوم بإعادة الدرس وشرحه بعد فراغ المدرس من درسه[٤]، وكان منهج الدراسة يحتوي على القرآن والحديث والفقه على المذهب الشافعي، وعلم الكلام والنحو والبلاغة والعروض، ويتدرج المنهج من السهل إلى الصعب، وتبدأ الدراسة من الصباح إلى قرب الظهر، ثم تستأنف قبل صلاة المغرب وبعدها، وتنتظم في حلقات على شكل دائرة حول الأستاذ[٥].

ومن أمهر وأنبغ أساتذة المدرسة النظامية أبو المظفر السمعاني التميمي وحيد عصره، وقد وكل إليه أمر التدريس بعد دخوله مرو سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥ م، وتحوله من مذهب أبي حنيفة إلى المذهب الشافعي وكان

---

(١) د/ أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة ٣٧٥، د/ شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات ٥٢٣.

(٢) د/ أحمد كمال الدين حلمي: المرجع السابق ذكره ٣٧٦.

(٣) رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي ٦٨، ترجمة محمد هنداوي.

(٤) د/ عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية ١٦٣، د/ عصام عبد الرءوف: تاريخ الفكر الإسلامي ١٨٥.

(٥) د/ محمد محمود إدريس: تاريخ العراق والمشرق ٢٦٣.

لتحوله أثر كبير بالمدينة[١] وممن تفقه على يديه، وقام بالتدريس بالنظامية أيضًا أبو الفتح أسعد المهيمني ثم رحل إلى العراق ودرَّس بنظامية بغداد مرتين بعد الخمسمائة[٢].

كذلك أبو القاسم السمعاني كان إمامًا مفتيًا مناظرًا، تفقه على يد أخيه أبي بكر السمعاني وأخذ عنه العلم وتولى التدريس بالمدرسة النظامية، تُوُفِّيَ بمرو سنة ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م[٣]، وأيضًا عبد الله بن ميمون بن عبد الله المالكاني الكوفي قاضي أبيورد ونواحيها، تولى التدريس في نظامية مرو، وتدرج فيها حتى صار نائب أبو أسعد السمعاني، ثم عاد إلى أبيورد ومات بها سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م[٤]، كما عين أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني أستاذًا لنظامية مرو ومدارسها بأمر من السلطان سنجر[٥].

ظلت نظامية مرو مقصد طلاب العلم والعلماء من مختلف البلاد، وممن قصدها أيضًا أبو المجد فخر أوربن شهفور بن أبي هاشم بن أحمد الرازي من أهل الري، كان فقيهًا فاضلًا قدم إلى مرو ودرس في نظاميتها وذلك في سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٣م، وأيضًا أبو سعيد بن أبي القاسم البوشنجي الذي أتى إلى مرو وسمع الأحاديث بها ومات سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م[٦].

ومما زاد من أهمية نظامية مرو تلك المكتبة التي ألحقت بها وكانت تحتوي

---

(١) ناجي معروف: علماء النظاميات ٦١ ، ٩٣، الأسنوي: طبقات الشافعية ٢/ ٢٩، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٤/ ٢٠٣.

(٢) السبكي: المصدر السابق ذكره ٤/ ٢٠٣.

(٣) ناجي معروف: المرجع السابق ذكره ٦٢.

(٤) ناجي معروف: المرجع السابق ذكره ٦٢- ٦٣.

(٥) الجويني: تاريخ جهانكشاي ٨٧.

(٦) السبكي: المصدر السابق ذكره ٤/ ٢٠٥- ٢٠٦.

على المخطوطات والمؤلفات النادرة في كل علم وفن[١].

وهناك عوامل ودوافع حملت نظام الملك على تأسيس المدارس النظَّامية وهو التصدي للمذاهب الخارجة على الدولة السلجوقية ورفع لواء الدفاع عن المذهب السني ولا شك أن نظام الملك قد قاوم المذهب الإسماعيلي بأقصى جهده[٢]، فقد أدرك منذ الوهلة الأولى أن الدعوة الباطنية لا يمكن مقاومتها إلَّا بدعوة مضادة تستخدم نفس الأساليب، ولذلك أنشأ المدارس النظَّامية ليخرج منها علماء يدافعون عن مذهب أهل السُّنَّة ويقارعون الباطنية الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان[٣]، وبالتالي كان العلم هو أحد الوسائل لمحاربة التشيع، وتوجيه الناس وجهة دينية ترضي أصحاب المذهب السُّني وتعمل على توحيد عقائدهم على المذهب الشافعي الأشعري بصفة خاصة؛ لأن نظام الملك كان شافعيًّا وبفضله أصبح لهذا المذهب صفة رسمية[٤] وقد هدف نظام الملك أيضًا من تأسيسه المدرسة النظَّامية إعداد موظفين يؤمنون بمذهب الدولة وقوانينها وأنظمتها ويعملون على نشر مبادئها وتثبيت سلطانها[٥].

ومما لا شك فيه أن المدرسة النظَّامية قد أدت الغرض من إنشائها كمؤسسة علمية وتنظيمية، كما زودت الجهاز الإدراي للدولة بالموظفين الأكفاء وجعلت من المذهب الشافعي مذهبًا رسميًّا، كذلك رفعت لواء الدفاع

---

(١) عباس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة ٨٣.

(٢) محمد السعيد: دولة الإسماعيلية ٩٧.

(٣) نظام الملك: سياسة نامه ٧- ٨.

(٤) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ٢٢٤، توفيق أحمد عبد الجواد: تاريخ العمارة في العصور المتوسطة الأوربية والإسلامية ١/ ٣٢٨.

(٥) هاملتون: دراسات في حضارة الإسلام ٣١، زكي محمد حسن: فنون الإسلام ٨٩، حسين أمين: تاريخ العراق ٢٢٤.

عن المذهب السُّني، وبذلك يعتبر العصر السلجوقي بداية عصر جديد في الازدهار المدرسي، إذ أصبح السلطان ورجال الدولة مولعين بتأسيس المدارس.

أيضًا من المؤسسات العلمية التي ازدحمت بها مدينة مرو ولعبت دورًا عظيمًا في ازدهار الحياة الثقافية خلال العصر السلجوقي[١] وقد حفلت مرو بالعديد من المكتبات الكبرى الملحقة بالمساجد حيث كان من عادة العلماء في مرو أن يوقفوا كتبهم على المساجد، كما ألحقت بالمدارس مكتبات تحوي كتبًا في شتى أنواع العلوم والآداب[٢].

فضلًا عن المكتبات الخاصة المملوكة للعلماء والأمراء وكبار رجال المدينة[٣] فقد حرص أهل مرو الأثرياء المهتمون بالعلم على إنشاء المكتبات الخاصة والعامة وجمعوا فيها أعدادًا ضخمة من الكتب والمجلدات في جميع أنواع العلوم في هذا العصر وفتحوا أبوابها للراغبين من طلاب العلم[٤]، وقد أغرت هذه المكتبات ياقوت الحموي أثناء زيارته لمرو بالإقامة بها ثلاث سنوات لجمع مادة كتابه معجم البلدان وفارقها مكرهًا لزحف التتار، وقد وصف مكتباتها في الدنيا[٥]، منها خزانتان في الجامع إحداهما يقال لها العزيزية، وقفها رجل يقال له: عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني، أو عتيق أبي بكر وكان فقاعيًّا للسلطان سنجر، وكان في أول أمره يبيع الفاكهة والريحان بسوق

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ ٨٠.

(٢) عباس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة ٨٣.

(٣) البيهقي: حكماء الإسلام ١٣٢ - ١٣٣.

(٤) القفطي: تاريخ الحكماء ٤١٦، تاريخ الفكر الإسلامي ١٩٠.

(٥) مرتضى راوندي: تاريخ اجتماعي إيران ٣٠٠، زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ١٠٤، ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ١٧٠.

مرو ثم صار شرابيًّا له وكان صاحب مكانة رفيعة منه[١].

وتعتبر المكتبة العزيزية من أشهر مكتبات مرو، فقد حوت مؤلفات عديدة وكبيرة في شتى مجالات العلوم وتقدر عددها بحوالي اثني عشر ألف مجلد أو ما يقاربها[٢] أما المكتبة الأخرى فيقال لها الكمالية: وبها خزانة شرف الملك المستوفي أبي سعد محمد بن منصور في مدرسته وقد مات المستوفي سنة ٢٩٤هـ/ ١١٠٠م، وكان يعتنق المذهب الحنفي[٣].

وخزانة نظام الملك الحسن بن إسحاق في مدرسته، وخزانتان للسمعانيين وخزانة أخرى في المدرسة العميدية وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها والخزانة الخانوتية في مدرستها، والخزانة الضميرية في خانقاه مرو[٤] وقد سمح للعلماء وطلاب العلم بالاستفادة من هذه المكتبات فكانوا ينهلون من علومها مجانًا[٥] كما كانوا يستعيرون الكتب بسهولة، ومما يؤكد ذلك أن ياقوت الحموي كان لا يفارق منزله منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن مما مكنه من جمع مادة كتابيه (معجم البلدان) و(معجم الأدباء)[٦].

ومن الجدير بالذكر أن الخلافات المذهبية قد أثرت بشكل إيجابي في زيادة

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٥٠٧.

(٢) ياقوت الحموي: المصدر السابق ذكره ٤/ ٥٠٧، البيهقي: حكماء الإسلام ٦٨، لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٣- ٤٤٤.

(٣) ياقوت الحموي: المصدر السابق ذكره ٤/ ٥٠٧.

(٤) البيهقي: المصدر السابق ذكره ٦٨، ابن الفوطي: تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب جـ ٤ ق ١/ ٤١٩.

(٥) ابن طيفور: كتاب بغداد ١٠٧، آدم متز الحضارة الإسلامية ٢٤٣.

(٦) Sergeant The Islamic city. Paris 1980p .73

عدد المؤلفات الدينية بشكل لم يكن له مثيل[١] وكان للجدل والمناظرات التي قامت بين هذه الفرق أثر بعيد تجلى وبرز في المؤلفات التي خلفها رجال العلم من الشيعة والسُّنَّة[٢].

وقد ملئت مكتبات مرو في هذا العهد بثروة ضخمة من الكتب والمجلدات النادرة في شتى أنواع العلوم وبالتالي كانت هذه المكتبات أداة الثقافة ومنهلها العذب الذي أدى إلى ازدهار الحياة الثقافية في المدينة في العصر السلجوقي.

ثم ننتقل بالحديث عن العلوم النقلية والعقلية الموجودة في مدينة مرو حيث انقسمت العلوم إلى علوم نقلية وعلوم عقلية فالعلوم النقلية هي العلوم المنقولة عن السلف وأصلها من الكتاب والسُّنَّة وتشمل: علم التفسير، والفقه، والحديث، وعلم القراءات بالإضافة إلى العلوم اللغوية كعلم اللغة والنحو والأدب، بينما العلوم العقلية فهي التي تقوم بدراسة التاريخ والجغرافيا والطب والكيمياء وغيرها[٣] وهي العلوم التي يهتدي إليها الإنسان بفكره.

أولا: العلوم النقلية

١-علم القراءات

وهو جزء من علوم الدين التي تهتم بدراسة كيفية قراءة ألفاظ القرآن الكريم وذلك بتباين لهجات العرب والمسلمين من الشعوب المفتوحة مما أوجد

---

(١) قحطان الحديثي: مدن خراسان ٢٨٤- ٢٨٥.

(٢) د/ عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٨٧.

(٣) ابن خلدون: المقدمة ٤٨٢- ٤٨٣، د/ محمد جمال الدين سرور: الحضارة الإسلامية في الشرق ١٩٥، د/ عصام عبد الرءوف: تاريخ الفكر الإسلامي ٢٠٠.

اختلافًا في النطق بحروف القرآن[١] لعدم وجود الشكل والنقط في الكتابة أول الأمر، ثم وُضعا في النصف الثاني من القرن الأول الهجري[٢]، ومن ثم اتفق العلماء على سبع قراءات[٣] وكان القصد من تنوعها التسهيل وأصبحت هذه القراءات علمًا مدونًا توضع فيه للمصنفات، ومن أشهر القراء في مرو أبو تغلب عبد الوهاب بن علي المعروف بأبي حنيفة الفارسي، كان حافظًا للقرآن، عارفًا بالقراءات[٤].

ومن أشهر المقرئين أيضًا أبو حامد محمد بن أحمد بن على المقرئ الكركانجي الخوارزمي الذي رحل إلى الآفاق وهو من أشهر العلماء في علم القراءات وصنف فيها التصانيف ومات بمرو سنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م[٥].

وكذلك الإمام محمد بن أحمد بن علي أبو نصر المروزي الذي كان إمامًا في علم القراءات، رحل إلى العديد من البلاد في طلب هذا العلم وصنف الكثير فيه، مات ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م[٦] وكان أبو سعد محمد بن علي بن محمد الحجري من مقرئي مرو البارزين وكان يعرف (بسنك أنداز) بمعنى المقرئ حسن الصوت بالقرآن، سمع منه أبو سعد السمعاني بروايته عن العسال، وأمالي ابن محمد الخلال، مات بمرو سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م[٧].

---

(١) د/ عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية ١٦٩.

(٢) ناجي معروف: تاريخ الحضارة العربية ٢٠٥- ٢٠٦.

(٣) د/ علي حسني الخربوطلي: الحضارة الإسلامية ٣٦٥، د/ عصام الدين عبد الرءوف ٢٠١.

(٤) السمعاني: الأنساب ٥/ ٣٧٧.

(٥) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب ٣/ ٩٢- ٩٣، دار صادر-بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(٦) ابن كثير البداية والنهاية ١٢/ ١٣٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ١٣٠.

(٧) ابن خلدون: المقدمة ٤٥٦.

٢-التفسير

إن كتاب الله العزيز غني عن التعريف وهو المصدر الأول للشريعة الإسلامية وقد نزل بلغة العرب فكانوا يفهمون آياته ومقاصده[١] ويدركون معانيه وبالتالي لم يكونوا بحاجة إلى تفسير القرآن.

لكن في أواخر القرن الثالث الهجري أصبح المسلمون في حاجة ملحة لتفسير القرآن؛ وذلك لأنهم بعدوا عن وقت نزول القرآن، ودخول شعوب غير عربية في الإسلام، وكان التفسير في البداية معتمدًا على النقل عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين[٢] فكانوا ينقلون رواياتهم في التفسير دون تعليق أو مناقشة أو إبداء للرأي أو إبراز فكرة جديدة[٣] وقد سمي هذا التفسير بالتفسير النقلي أو المأثور، ثم أتبعه التفسير بالرأي وهو تفسير القرآن بالاجتهاد، وكانوا يعبرون عن آرائهم في الروايات المنقولة عن السلف ويجتهدون في تفسير الآيات ويناقشون هذه الروايات ويعلقون عليها وذلك بعد معرفة المفسر للغة ومعاني الألفاظ ومعرفة الآيات وسبب نزولها ومعرفة الناسخ والمنسوخ[٤].

ومن الجدير بالذكر أن الخلافات المذهبية قد سيطرت على هذا العلم في مرو خلال العهد السلجوقي، فحاولت كل فرقة إثبات عقائدها من خلال تفسير القرآن من وجهة نظرها وبالتالي كثر عدد المؤلفات التي صنفها الشيعة

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ذكره ١/ ٣٤٣.

(٢) د/ عصام عبد الرءوف، تاريخ الفكر الإسلامي ٢٠٢.

(٣) محمد حسين الذهبي، علم التفسير ٤٧ دار المعارف، القاهرة.

(٤) أحمد كمال الدين حلمي، السلاجقة ٣٧٨.

والسُّنَّة من الأشاعرة والمعتزلة[١] وغيرهم، ومن ثم صار علم التفسير من أهم العلوم الدينية في العصر السلجوقي الذي نال اهتمام علماء مدينة مرو وزاد إقبال الطلاب على دراسته[٢].

ومن أشهر علماء التفسير في مرو أبو عبد الله محمد بن أحمد المروزي الشافعي تلميذ القفال المروزي وقد صنف تفسير (المسعودي)، وأبو المظفر منصور بن محمد السمعاني صنف تفسير القرآن في ثلاثة مجلدات، مات سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م[٣] ومن كبار المفسرين أيضًا محمد بن الحسين بن علي الأزدي الزاغولي صنف كتاب (قيد الأوابد) في أكثر من أربعمائة مجلدة، وقد أقام واشتهر بمرو، مات سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م[٤].

٣-الفقه

هو العلم الذي يتناول القرآن والسُّنَّة لاستخراج الأحكام الدينية (العبادات) والدنيوية (المعاملات) فيدخل في الفقه تنظيم العبادات من صلاة وزكاة وصيام وحج وتنظيم أمور الدنيا وهي إمَّا عقوبات أو مناكحات أو معاملات:

فقسم العقوبات: يتناول الجنايات والجرائم؛ كالقتل والسرقة ومتفرعاتها كالقصاص والحدود والديات.

وقسم المناكحات: يشتمل الزواج والطلاق، وما تفرع عنه كالعدة والنفقة والوصاية والإرث.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير ١/ ١٤ بيروت ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦ م.

(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون ١/ ٤٤٩.

(٣) القزويني: التدوين في أخبار قزوين ٤/ ١١٩.

(٤) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب ١/ ١٤.

وقسم المعاملات[١]: ويتناول الأموال وما يتعلق بها من حقوق وعقود كأحكام البيوع والإجارة والكفالة والشركة ويدخل في الفقه أيضًا القوانين التي تنظم إدارة الدولة ودستورها وأمور الحرب.

وقد وضع الفقهاء قواعد الفقه بدقة وعناية؛ لكنهم اختلفوا في آرائهم الفقهية فنشأت المذاهب الفقهية الأربعة[٢] وهي:

١-مذهب الإمام أبى حنيفة[٣].

---

(١) ناجي معروف: تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٠٦، عبد العزيز الدوري: تاريخ الحضارة العربية ٢٢٦.

(٢) د/ عصام عبد الرءوف، الحواضر الإسلامية الكبرى، ٢٥٢- ٢٥٣.

(٣) هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت التيمي كوفي، فقيه أهل العراق، وإمام أصحاب الرأي، وقيل إنه من أبناء فارس، رأى أنسًا، وروى عن حماد بن أبي سليمان وعطاء وعاصم بن أبي النجود والزهري وقتادة وخلق، وعنه ابنه حماد ووكيع وعبد الرزاق وأبو يوسف القاضي ومحمد بن الحسن وزفر وخلائق.

قال العجلي: كان خزازًا يبيع الخزَّ، وقال ابن معين: كان ثقة لا يحدث من الحديث إلَّا بما يحفظه ولا يحدث بما لا يحفظه، وقال ابن المبارك: ما رأيت في الفقه مثله، وقال مكي بن إبراهيم: كان أعلم أهل زمانه، وما رأيت في الكوفيين أورع منه، وقال الشافعي: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة، ولد سنة ٨٠هـ ومات سنة ١٥٠هـ وقيل: سنة ١٥١هـ وقيل: أيضًا سنة ١٥٣هـ.

انظر المزيد في: البداية والنهاية ١٠/ ١٠٧، تاريخ بغداد ١٣/ ٣٢٣، تذكرة الحفاظ ١/ ١٦٨، تهذيب الأسماء ٢/ ٢١٦، تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٤٩، الجواهر المضيئة ١/ ٢٦، خلاصة تذهيب الكمال ٣٤٥، شذرات الذهب ١/ ٢٢٧، طبقات ابن سعد ٦/ ٢٥٦، طبقات الفقهاء ٨٦، طبقات القراء لابن الجزري ٢/ ٣٤٢، العبر ١/ ٢١٤، اللباب ١/ ٣٦٠، مرآة الجنان ١/ ٣٠٩، مفتاح السعادة ٢/ ١٩٥، ميزان الاعتدال ٤/ ٢٦٥، النجوم الزاهرة ٢/ ١٢، وفيات الأعيان ٢/ ١٦٣.

٢-مذهب الإمام مالك[١].

٣-مذهب الإمام الشافعي[٢].

---

(١) هو الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي الحميري أبو عبد الله المدني؛ شيخ الأئمة وإمام دار الهجرة.

روى عن نافع ومحمد بن المنكدر وجعفر الصادق وحميد الطويل وخلق. وعنه الشافعي وخلائق جمعهم الخطيب في مجلد.

وقال ابن المديني: له نحو ألف حديث؛ وقال عبد الله بن أحمد: قلت لأبي: مَنْ أثبت أصحاب الزهري؟ قال: مالك أثبت في كل شيء.

وقال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر؛ وقال الشافعي: إذا جاء الأثر فمالك النجم. مات بالمدينة سنة ١٧٩هـ وهو ابن تسعين سنة.

انظر المزيد في: الأنساب ورقة ٤١أ، البداية والنهاية ١٠/ ١٧٤، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٧، تهذيب الأسماء ٢/ ٧٥، تهذيب التهذيب ١٠/ ٥، جمهرة أنساب العرب ٤٣٥، حلية الأولياء ٦/ ٣١٣، خلاصة تذهيب الكمال ٣١٣، الديباج المذهب ١٧، الرسالة المستطرفة ١٣، شذرات الذهب ١/ ٢٨٩، صفوة الصفوة ٢/ ٩٩، طبقات ابن سعد ٥/ ٤٥، طبقات الفقهاء ٦٧، طبقات القراء لابن الجزري ٢/ ٣٥، طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٢٩٣، العبر ١/ ٢٧٢، الفهرست لابن النديم ١٩٨، اللباب ١/ ٥٥ و٣/ ٨٦، مرآة الجنان ١/ ٣٧٣، مروج الذهب ٣/ ٣٥٠، النجوم الزاهرة ٢/ ٩٦، وفيات الأعيان ١/ ٤٣٩.

(٢) هو الإمام الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب ابن عبيد بن عبد يزيد بن هشام بن المطلب بن عبد مناف القرشي المطلبي المكي، نزيل مصر إمام الأئمة وقدوة الأمة، ولد بغزة سنة ١٥٠هـ وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين، روى عن عمه محمد بن علي وأبي أسامة وسعيد بن سالم القداح وابن عيينة ومالك وابن علية وابن أبي فديك وخلق. وعنه ابنه أبو عثمان محمد والإمام أحمد بن حنبل وأبو ثور وأبو عبيد القاسم وأبو الطاهر بن السرح والمزني وحرملة بن يحيي والحسن بن محمد الزعفراني والربيع بن سليمان المرادي والربيع بن سليمان الجيزي وأبو الوليد المكي وأبو يعقوب البويطي ويونس ابن عبد الأعلى وخلق كثير، وقال الربيع بن سليمان: كان الشافعي يفتي وله خمس عشرة سنة وكان يحيي الليل إلى أن مات، وكان الحميدي يقول: حدثنا سيد الفقهاء الشافعي، مات سنة ٢٠٤هـ. =

٤-مذهب الإمام أحمد بن حنبل[١].

وقد انتشرت المذاهب الفقهية الأربعة في العالم الإسلامي وراج في مدينة مرو في العهد السلجوقي مذهبان هما: الحنفي والشافعي. وقد حظي هذا العلم باهتمام السلاجقة، فكثر عدد المؤلفين الذين خلفوا لنا العديد من الكتب

= انظر المزيد في: إرشاد الأريب ٦/ ٣٦٧، الأنس الجليل ١/ ٢٩٤، البداية والنهاية ١٠/ ٢٥١، تاريخ بغداد ٢/ ٥٦، تاريخ الخميس ٢/ ٣٣٥، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٦١، ترتيب المدارك ٢/ ٣٨٢، تهذيب التهذيب ٩/ ٣٥، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٤٤، حسن المحاضرة ١/ ٣٠٣، حلية الأولياء ٩/ ٦٣، خلاصة تذهيب الكمال ٢٧٧، الديباج المذهب ٢٢٧، الرسالة المستطرفة ١٧، شذرات الذهب ٢/ ٩، صفوة الصفوة ٢/ ٩٥، طبقات الحنابلة ١/ ٢٨٠، طبقات الفقهاء ٧١، طبقات القراء لابن الجزري ٢/ ٩٥، طبقات المفسرين للداودي ٣/ ٩٨، طبقات ابن هداية الله ١١، العبر ١/ ٣٤٣، الفهرست ٢٠٩، اللباب ٢/ ٥، مرآة الجنان ٢/ ١٣، النجوم الزاهرة ٢/ ١٧٦، الوافي بالوفيات ٢/ ١٧١، وفيات الأعيان.

(١) هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني أبو عبد الله المروزي ثم البغدادي الإمام الشهير صاحب (المسند) و(الزهد) وغير ذلك. ولد ببغداد سنة ١٦٤هـ ومات سنة ٢٤١هـ وطلب الحديث سنة ١٧٩هـ وطاف البلاد ودخل الكوفة والبصرة والحجاز واليمن والشام والجزيرة في طلب العلم. روى عن إبراهيم بن سعد وإسماعيل بن علية وبهز بن أسد وبشر بن المفضل وخلائق. وعنه البخاري ومسلم وأبو داود وإبراهيم الحربي وآخرون آخرهم أبو القاسم عبيد الله بن محمد البغوي. وكان من كبار الحفاظ الأئمة ومن أحبار هذه الأمة. قال وكيع وجعفر بن غياث: ما قدم الكوفة مثله. وقال ابن مهدي: هذا أعلم الناس بحديث سفيان الثوري.

انظر المزيد في: تاريخ بغداد ٤/ ٤١٢، تذكرة الحفاظ ٢/ ٤٣١، تهذيب التهذيب ١/ ٧٢، حلية الأولياء ٩/ ١٦١، خلاصة تذهيب الكمال ١٠، الرسالة المستطرفة ١٨، شذرات الذهب ٢/ ٩٦، طبقات الحنابلة ١/ ٤، طبقات الفقهاء ٩١، طبقات المفسرين للداودي ١/ ٧٠، العبر ١/ ٤٣٥، الفهرست ٢٢٩، مرآة الجنان ٢/ ١٣٢، النجوم الزاهرة ٢/ ٣٠٤، وفيات الأعيان ١/ ١٧.

الفقهية الخاصة بكل مذهب[١].

ومن أشهر فقهاء الشافعية في مرو في ذلك العصر أبو علي الحسين بن شعيب السنجي شيخ الشافعية في عصره وفقيه أهل مرو، وهو من تلاميذ أبي بكر القفال، تُوُفِّيَ حوالي سنة ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م[٢] و يعتبر السنجي أول من جمع في الفقه بين طريقتي خراسان والعراق[٣] وقد صنف كتاب المجموع الذي نقل عنه الغزالي في الوسيط[٤] وشرح الفروع لابن الحداد وشرح المختصر[٥] وكما شرح أيضًا كتاب التلخيص لأبي العباس ابن القاضي شرحًا كبيرًا[٦].

وكان يقال في عصره: الأئمة بخراسان ثلاثة: مكثر محقق ومقل محقق ومكثر غير محقق، وكان أبو علي السنجي هو المكثر المحقق[٧].

ومن كبار فقهاء مرو أيضًا أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الفوراني المروزي أحد أئمة الشافعية، صنف في الأصول والخلاف والجدل والملل والنحل[٨] ومن كتبه (الإبانة عن أحكام فروع الديانة) وكتاب (العمدة)[٩] وكتاب (شروح فروع ابن الحداد)، تُوُفِّيَ بمرو سنة ٤٦١هـ/ ١٠٦٨م[١٠].

---

(١) ذبيح الله: تاريخ أدبيات، م٢، ٩٨٩.

(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٢/ ١٥٦، ابن العماد: شذرات الذهب ٣/ ٢٠٧- ١٠٨.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ١٣٥، الزركلي: الأعلام ٢/ ٢٣٩.

(٤) الأسنوي: طبقات الشافعية ٢/ ٢٨.

(٥) الحسيني: طبقات الشافعية ٢٢٧.

(٦) السبكي: طبقات الشافعية ٤/ ٣٤٤- ٣٤٥، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٥٧.

(٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ١٣٥- ١٣٦.

(٨) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٩٨، الزركلي: الأعلام ٣/ ٣٢٦.

(٩) الحسيني: طبقات الشافعية ٢٣٤، ابن العماد: شذرات الذهب ٣/ ٣٠٩.

(١٠) حاجي خليفة: كشف الظنون ٣/ ١٢٥٧.

ومن أظهر علماء الفقه الإمام أبو الفضل محمد بن عبد الرزاق الماخواني، كان إمامًا فاضلًا متبحرًا، تفقه على يد أبي طاهر السنجي، مات سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م[١] والإمام أبي الظفر منصور السمعاني المروزي من أساطين الفقه، صنف (البرهان في الخلاف) جمع فيه ألف مسألة خلافية، تُوُفِّيَ سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م[٢].

ومن الفقهاء البارزين الحسين بن مسعود بن محمد البغوي المعروف بابن الفراء، كان من أساطين الفقه الشافعي، صنف (التهذيب في الفقه) و(الكفاية) و(ترجمة الأحكام) في الفروع، مات سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م[٣].

ومن كبار الفقهاء أيضًا علي بن مسكويه بن إبراهيم أبو الحسن المراغي، تفقه على يد الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وبرع في الفقه، مات بمرو سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م[٤] وأيضًا أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني، كان من ألمع فقهاء مرو، صنف (المناسك) و(الدعوات) و(تخفيف الصلاة) و(فضل يس)[٥].

وكان على رأس فقهاء الحنفية في مرو الإمام أبو نصر محمد بن عدنان بن عمرويه اللوكري[٦] كان فقيهًا حنفيًّا شهمًا، وجد وجاهة ومنزلة من السلاجقة، سمع أبا منصور السمعاني وأبا الفضل الجارودي وغيرهما، مات

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ٣/ ٣١٠.

(٢) حاجي خليفة: المرجع السابق ذكره ١/ ٢٤٢.

(٣) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٢٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ١٦٦.

(٤) السيوطي: بغية الوعاة ٢/ ١٥٥.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٦١- ٤٦٢.

(٦) ابن الأثير: اللباب ٣/ ١٣٥.

بمرو سنة ٥٠٢هـ/ ١١٢٦م[١] ومحمد بن محمد بن يوسف الفاشاني أبو نصر المروزي الفقيه المفتي الحنفي، صنف (أخبار العلماء) مات سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م[٢]. والقاضي أبو بكر محمد بن الحسين بن محمد الأرسابندي وهو إمام فاضل مناظر، انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بمرو، صنف (الأصول في الفقه) ومختصر تقويم الأدلة للدبوسي[٣] والفقيه عبد الرحمن بن محمد بن أميرويه بن محمد بن إبراهيم ركن الدين أبو الفضل الكرماني، ولد بكرمان وقدم مرو وتفقه بها وظهر نبوغه حتى صار إمام الحنفية بخراسان وله (شرح الجامع الصغير) و(التجريد) وشرحه بكتاب سماه (الإيضاح)، مات بمرو سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م[٤].

صفوة القول: لقد خرج من مدينة مرو عدد كبير من علماء الفقه الذين خدموا العلم وأثروا في الأمصار الإسلامية بمصنفاتهم ومؤلفاتهم.

٤-الحديث

هو المصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله العزيز[٥] وهو ما أثر عن الرسول ﷺ من قول وفعل[٦]، وينقسم الحديث إلى قسمين: المتن وهو نص الحديث، والسند ويقصد به الرواة الذين رووا الحديث حتى تنتهي الرواية بالمصدر الأصلي وهو الرسول أو الصحابي الذي روي عنه الحديث مباشرة، وكانت رواية الحديث طول القرن الأول الهجري شفوية وذلك لقول الرسول ﷺ:

---

(١) السمعاني: الأنساب ٥/ ١٤٥.

(٢) إسماعيل البغدادي: هدية العارفين ٢/ ٨٧.

(٣) السمعاني: المصدر السابق ذكره ١/ ٧٣.

(٤) الراوندي: راحة الصدور ٧٢.

(٥) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ٣٨٨.

(٦) د/ محمد بكر إسماعيل: الفقه الواضح من الكتاب والسنة، المجلد الأول ١٨.

«**ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**» رواه البخاري في صحيحه، لكن الحديث تعرض للتحريف والوضع[١] فظهرت الحاجة إلى تدوين الحديث الصحيح بمنهج علمي يقوم على الاهتمام بالرواة وكيفية اتصال الأحاديث بالرسول ﷺ من حيث السند اتصالًا وانقطاعًا، ومن حيث المتن التأكد من صحة صدورها عن الرسول[٢].

وقد تبنى الأئمة الستة جمع الحديث وتدوينه وتصحيحه وهم: البخاري[٣]، ومسلم[٤]،

---

(١) د/ عصام عبد الرءوف: تاريخ الفكر الإسلامي ٢٢٠.

(٢) ذبيح الله: تاريخ أدبيات در إيران م١، ٧٢- ٧٣.

(٣) هو البخاري أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي مولاهم الحافظ صاحب الصحيح ولد سنة ١٩٤هـ ومات سنة ٢٥٦هـ. روى عن الإمام أحمد وإبراهيم بن المنذر وابن المديني وآدم بن إياس وقتيبة وخلق. وعنه مسلم والترمذي وإبراهيم الحربي وابن أبي الدنيا وأبو حاتم والمحاملي والفربري وخلق آخرهم وفاة ورواية للصحيح أبو طلحة منصور بن محمد النسفي. وقال بندار: حفاظ الدنيا أربعة: أبو زرعة بالري، ومسلم بنيسابور، والدارمي بسمرقند، والبخاري ببخارى. وقال ابن عدي: كان ابن صاعد إذا ذكر البخاري يقول: الكبش النطاح. وللبخاري من المؤلفات (الجامع الصحيح)، و(التاريخ الكبير) و(الأدب المفرد) و(القراءة خلف الإمام). انظر المزيد في: البداية والنهاية ١١/ ٢٤، تاريخ بغداد ٢/ ٤، تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٥٥، تهذيب التهذيب ٩/ ٤٧، شذرات الذهب ٢/ ١٣٤، طبقات الحنابلة ١/ ٢٧١، طبقات السبكي ٢/ ٢١٢، طبقات المفسرين للداودي ٢/ ١٠٠، العبر ٢/ ١٢، الفهرست ١/ ٥٢١، مفتاح السعادة ٢/ ١٣٠، النجوم الزاهرة ٣/ ٢٥، هدية العارفين ٢/ ١٦، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٠٦، وفيات الأعيان ١/ ٤٥٥.

(٤) هو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري أبو الحسن النيسابوري. روى عن قتيبة وعمر والناقد وابن المثنى وابن يسار وأحمد ويحيي وإسحاق وخلق. وعنه الترمذي وأبو عوانة وابن صاعد وخلق. مات سنة ٢٦١هـ له عدة مصنفات منها (التمييز) و(العلل) و(الوحدان) و(الأفراد) و(الأقران) وغيرهم. انظر المزيد في: تاريخ بغداد ٣/ ١٠٠، تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٨٨، تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٨٩، خلاصة تذهيب الكمال ٣٢٠، الرسالة المستطرفة١١، شذرات الذهب ٢/ ١٤٤، العبر ٢/ ٢٣، وفيات الأعيان ٢/ ٩١.

والنسائي[١]، وأبو داود[٢]، والترمذي[٣]، وابن ماجه[٤]. وكان صحيح

---

(١) هو أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار الخراساني النسائي. القاضي الإمام الحافظ شيخ الإسلام أحد الأئمة المبرزين والحفاظ المتقنين والأعلام المشهورين، طاف البلاد وسمع من الخلائق. روى عنه ابن جوصا وابن السني وأبو سعيد ابن الأعرابي والطحاوي وأبو علي النيسابوري وابن عدي وابن يونس والعقيلي وابن الأخرم وأبو عوانة وآخرون. له عدة مصنفات منها (السنن الكبرى) و(الصغرى) و(خصائص علي) و(مسند علي) و(ومسند مالك) وغير ذلك ولد سنة ٢١٥هـ ومات سنة ٣٠٣هـ شهيدًا. انظر المزيد في: البداية والنهاية ١١/ ١٢٣، تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٩٨، تهذيب التهذيب ١/ ٣٦، الرسالة المستطرفة ١١، شذرات الذهب ٢/ ٢٣٩، طبقات السبكي ٣/ ١٤، طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٦١، العبر ٢/ ١٢٣، العقد الثمين ٣/ ٤٥.

(٢) هو أبو داود الطيالسي سليمان بن داود بن الجارود البصري الحافظ أحد الأعلام. روى عن ابن عون وأيمن بن نابل وهشام الدستوائي والثوري والحمادين وشعبة وابن المبارك وخلق. وعنه أحمد وابن المديني وبندار وإسحاق الكوسج والكديمي وخلق. وقال ابن المديني: ما رأيت أحفظ من أبي داود. وقال العجلي: ثقة كثير الحفظ، رحلت إليه فأصبته، مات قبل قدومي بيوم. وقال ابن سعد: ثقة كثير الحديث وربما غلط. مات سنة ٢٠٣هـ. انظر المزيد في: تاريخ بغداد ٩/ ٢٤، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٥١، خلاصة تذهيب الكمال ١٢٨، الرسالة المستطرفة ٦١، شذرات الذهب ٢/ ١٢، العبر ١/ ٣٤٥، ميزان الاعتدال ٢/ ٢٠٣.

(٣) هو أبو عيسى الترمذي محمد بن عيسى بن سورة بن الضحاك السلمي صاحب الجامع والعلل. روى عنه محمد بن المنذر شكر والهيثم بن كليب وأبو العباس المحبوبي وخلق. ذكره ابن حبان في الثقات وقال: كان ممن جمع وصنف وحفظ وذاكر. مات بترمذ سنة ٢٧٩هـ. انظر المزيد في: تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٣٣، تهذيب التهذيب ٩/ ٣٨٧، خلاصة تذهيب الكمال ٢٠٣، شذرات الذهب ٢/ ١٧٤، العبر ٢/ ٦٣٣، ميزان الاعتدال ٣/ ٦٧٨، النجوم الزاهرة ٣/ ٨٨، نكت الهميان ٢٦٤، وفيات الأعيان ١/ ٤٥٧.

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن يزيد الربعي مولاهم القزويني الحافظ صاحب كتاب (السنن) و(التفسير) سمع بخراسان العراق والحجاز ومصر والشام وغيرها. مات سنة ٢٨٣هـ روى عنه خلق منهم أبو الطيب البغدادي وإسحاق بن محمد القزويني وعلي بن سعيد العسكري=

البخاري من أشهر الكتب التي راجت في مرو، فكان المراوزة يحدثون به[١].

ومما لا شك فيه أن الخلافات المذهبية قد سيطرت أيضًا على علم الحديث، فحاولت كل فرقة جمع وتحقيق الأحاديث التي تبرر صحة مذهبها وتدعمه وتدحض آراء معارضيها من الفرق الأخرى.

وقد أخرجت مرو في ذلك العصر العديد من علماء الحديث الذين قاموا بدور بارز في هذا العلم والحفاظ على روايته. ومن أشهر المحدثين محمد بن الحسن بن أحمد بن محمد بن إسحاق أبو المظفر المروزي القرينيني، سكن بغداد وحدث بها عن زاهر بن أحمد السرخسي[٢] وأبو طاهر المخلص[٣] وغيرهما. كتب عنه أبو سعد السمعاني: وكان صدوقًا في رواية الحديث، مات سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م[٤] والإمام أبو الفتح ناصر بن الحسين بن محمد بن علي بن القاسم بن عمر بن يحيى الشريف العمري المروزي الشافعي المحدث، له تصانيف كثيرة منها (أماني في الحديث) مات سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م[٥]. والإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن فوران المروزي الفوراني روى الحديث عن أبي الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني، وروى عنه أبو المظفر

= ثقة، متفق عليه، محتج به، له معرفة بالحديث وحفظ ومصنفات في السنن والتاريخ والتفسير. انظر المزيد في: البداية والنهاية ١١/ ٥٢، تاريخ قزوين ١٦٥، تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٣٦، تهذيب التهذيب ٩/ ٥٣٠، خلاصة تذهيب الكمال ٣١٢، الرسالة المستطرفة ١٢، شذرات الذهب ٢/ ١٦٤.

(١) السبكي: طبقات الشافعية ٤/ ٣٠، التدوين في أخبار قزوين ٤/ ٧٦.

(٢) السبكي: طبقات الشافعية ٥/ ٣٥.

(٣) الخطيب: تاريخ بغداد ٢/ ٢٢٠.

(٤) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ٢/ ٢٢٠.

(٥) إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين ٢/ ٤٨٧.

عبد المنعم القشيري وغيره، مات سنة ٤٦١هـ/ ١٠٦٨م بمرو[١]. ومن كبار المحدثين أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني الذي جمع ألف حديث عن مائة شيخ[٢] وهي المعروفة بالأمالي[٣] وصنف في الحديث كتاب (الاستبصار لأصحاب الحديث) وهو مختصر في ثلاثة أبواب، فالباب الأول في الحث على السنة والجماعة، والثاني في فضل الحديث، والثالث في شجرة العلم[٤] وكتاب (منهاج أهل السنة)[٥] مات بمرو سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م وأيضًا الإمام الحسين ابن مسعود بن محمد الفراء أو ابن الفراء أبو محمد البغوي محدث، وله (شرح السنة) في الحديث و(مصابيح السنة) و(الجمع بين الصحيحين)، مات سنة ٥١٠هـ/ ١١١٦م[٦]. والإمام أبو محمد عبد الرحمن بن الجوباري البوبنجي المروزي المعروف بجويبار يونيك، روى لنا (شرف أصحاب الحديث) لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب عن أبي محمد بن عبد الله بن أحمد السمرقندي الحافظ عن المصنع سمع منه السمعاني ولقاه بجوبار، مات بعد سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م[٧].

أيضًا ومن علماء الحديث البارزين أبو منصور الطيب بن أبي سعيد بن الطيب الخلال البنسارقاني من بنسارقان إحدى قرى مرو، كان صالحًا سمع

---

(١) ابن الأثير: اللباب ٢/ ٤٤٤.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق ذكره ١/ ١٣ - ١٤.

(٣) الذهبي سير أعلام النبلاء ١٩/ ١١٦.

(٤) حاجي خليفة: كشف الظنون ١/ ١٧٣.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٢١١.

(٦) الزركلي: الأعلام ٢/ ٢٥٩.

(٧) السمعاني: الأنساب ٢/ ١٠٦.

الحديث ورواه، مات سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م[١] والإمام أبو المعالي عبد الله بن أحمد بن أحمد بن محمد الحلواني المروزي سمع الحديث عن أبي بكر بن علي بن خلف الشيرازي وسمع منه السمعاني ومات سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م[٢]. ومن كبار المحدثين أيضًا محمد بن الحسين بن محمد بن علي الزاغوني حافظًا للحديث له كتاب (قيد الأوابد) وقد أقام واشتهر بمرو ومات سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م[٣].

والإمام أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني الذي سافر في طلب الحديث[٤] إلى العديد من البلاد، فرحل إلى ما وراء النهر وبلاد الجبل وأصفهان والعراق والموصل والجزيرة والشام وغير ذلك من البلاد، والتقى بالعلماء وأخذ منهم وجالسهم وروى عنهم[٥] فكان وافر الهمة في طلب الحديث، فقد صنف معجمًا لشيوخه في عشر مجلدات كبار وصنف (الإسفار عن الأسفار) و(الإملاء والاستملاء) وكتاب (الأمالي) ومات بمرو سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م[٦].

كما كان الإمام محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الكشميهني أبو عبد الرحمن المروزي من كبار المحدثين بمرو، فقد حدث بصحيح مسلم عن

---

(١) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب ١/ ١٨١.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١١/ ١٠٣.

(٣) الزركلي: الأعلام ٦/ ١٠١.

(٤) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات: تاريخ ابن الفرات م٤ ج١، ١١ بغداد ١٩٦٧م.

(٥) ابن الأثير: اللباب ١/ ١٤.

(٦) ابن النجار البغدادي: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ١٩/ ١٧٢- ١٧٣.

الفراوي، مات بمرو سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م[١].

أيضًا من النساء المحدثات بمرو أم الكرام كريمة بنت أحمد بن محمد المروزية، روت صحيح البخاري عن الكشميهني[٢] وعتبي الهلالية التي سمعت (الأربعين) التي جمعها الشيخ أبو بكر أحمد بن محمد النسوي، وروى عنها تلك (الأربعين) أبو عبد الله الخلوفي بمرو، وماتت بعد سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م[٣].

وخلاصة القول: اهتم علماء مدينة مرو بعلم الحديث؛ لأنه المصدر الثاني للتشريع ورحلوا في طلبه إلى العديد من البلاد للتأكد من صحة المتن والإسناد.

نقطة أخرى: أن مرو كانت قبلة الراغبين في طلب الحديث، فقد نزلها أبو الخطاب العليمي الدمشقي لطلب الحديث وسمع المشايخ وجمع شيئًا كثيرًا[٤] وأبو الحجاج يوسف بن محمد بن فارو الأندلسي، جاء مرو وسمع كثيرًا من الأحاديث بها، مات سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م[٥].

٥-علم الكلام

هو العلم الذي يبحث في العقائد على نمط منطقي وكانت مباحثه مندرجة في مباحث الفقه فكان البحث في الدين بأحكامه يسمى فقهًا، أما تسمية علم

---

(١) الذهبي: ذيل تاريخ بغداد ١٥/ ٦٨-بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
(٢) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ٩ دار الفكر-القاهرة ١٩٩٣م.
(٣) السمعاني: الأنساب ٥/ ٦٥٨.
(٤) ابن الفوطي: تلخيص مجمع الآداب ٤/ ٤٠٨.
(٥) السمعاني: الأنساب ١/ ١٦٨.

الكلام قد ظهرت في عصر المأمون[١] وهناك أكثر من تسمية لهذا العلم: منها أنه علم الفقه الأكبر في مقابل علم الفقه الأصغر، ومنها علم التوحيد وعلم أصول الدين[٢]، وترجع تسمية هذا العلم بعلم الكلام؛ لأن أول خلاف وقع في كلام الله: هل هو مخلوق أم غير مخلوق؟ فتكلم فيه الناس[٣] وكان للمعتزلة الأثر البارز في تطور علم الكلام، فقد قالوا بخلق القرآن ونادوا بنفي الصفات مخالفين في ذلك أهل السنة فراجت المسائل الكلامية بين الفرق الدينية، وقد انبرى علماء الكلام للذب عن عقيدة المسلمين والدفاع عنها.

ومما لا شك أن علم الكلام قد بلغ كمال قوته في مرو أثناء العصر السلجوقي حيث راجت المسائل الكلامية بين الفرق المذهبية التي لم تكن قاصرة على السنة والشيعة بل كانت قائمة بين الفرق السنية فيما بينها، فكان الخلاف والجدل حول المسائل الكلامية بين هذه الفرق أشد ضراوة بينهم وبين الشيعة[٤] وكان الأشاعرة من أهم المذاهب الكلامية في هذا العصر، وكان النزاع بينهم وبين المعتزلة الذين كانوا يتفوقون عليهم في إثبات صحة أقوالهم[٥].

ومن أشهر علماء الكلام بمدينة مرو الإمام أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين المروزي الخرقي، كان إمامًا عالمًا بأحكام علم الكلام وأقام على الإفتاء

---

(١) علي الشابي: مباحث في علم الكلام والفلسفة ١٠، القاهرة ١٩٧٧م.

(٢) علي الشابي: المرجع السابق ذكره ١٠- ١١.

(٣) السمعاني: الأنساب ٥/ ١٩٠.

(٤) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ٢٤٣، القزويني: آثار البلاد ٣٧٦، الخونسكي: روضات الجنات ١٠٦- ١٠٧.

(٥) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة ٣٨٦- ٣٨٧.

والوعظ إلى أن مات سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م[١] ومن أبرز علماء الكلام أيضًا أبو الفتح ناصر، مناظر فاضل، له باع طويل في علم الكلام وقد خلَّف الكثير من المؤلفات وأهمها (هدية العارفين) مات سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧[٢].

٦-التصوف

التصوف منهج سلوكي يقوم على ركائز روحية ووجدانية تؤدي إلى صفاء القلب ونقاء السريرة[٣] بملازمة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والزهد في الدنيا، فيقول السبكي عن الصوفية: إنهم أهل الله سبحانه وتعالى وخاصته الذين ترتجى الرحمة بذكرهم وينزل الغيث بدعائهم[٤]. وقد تعددت الآراء عند مؤرخي الفكر الإسلامي حول حقيقة المصدر الذي اشتقت منه كلمة صوفية، فعزوا التسمية إلى الصُّفَّة وهي فناء ملحق بمسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة، وانتسب بعض المسلمين إليه فعرفوا بأهل الصُّفَّة وقد امتازوا بالزهد والإعراض عن الدنيا والانقطاع للعبادة، والصوفة هم الذين كانوا يقومون على خدمة الكعبة في الجاهلية، والصوف نسبة إلى لبس الصوف والصفاء والصف أي صفاء القلوب[٥] فالتصوف إذًا طريقة للمعرفة قوامها المجاهدة التي تليها المشاهدة.

وقد ازدهر التصوف في مرو في العهد السلجوقي؛ وذلك لانتشار التعصب والمنازعات الدينية بين الفرق الإسلامية من سُنَّة وشيعة[٦] وقد

---

(١) الأسنوي: طبقات الشافعية ١/ ٤٨٣- ٤٨٤.

(٢) الأسنوي: المصدر السابق ذكره ١/ ٦٥.

(٣) أسعد السحمراتي: التصوف منشأه ومصطلحاته ٣٠ بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٤) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ١٧٢، القاهرة ١٩٧٤م.

(٥) السهروردي: عوارف المعارف ١/ ٤٥.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٤٧٠.

استخدمت كل فرقة من هذه الفرق العلم والمعرفة كوسيلة للتفوق على الفرق المخالفة لها، وفي ظل هذه الظروف لم يتدخل المتصوفة بل التزموا الحياد مع كافة الفرق[١].

ومن العوامل التي ساعدت على ازدهار التصوف في مرو مظاهر البذخ والخلاعة التي كانت تميز حياة سلاطين السلاجقة وكبار رجال الدولة وتسلطهم على الخلفاء العباسيين، كما كان لبداوة السلاجقة وغلبة الصبغة القبلية عليهم دور بارز في ازدهار التصوف، فقد كانوا يعجبون بالمظاهر البراقة حيث راقهم مظاهر الصوفية وما يظهرونه من زهد وما يقومون به من ذكر، ومن ثم فقد حظي شيوخ الصوفية بالإجلال والتعظيم وارتفع شأنهم وعظم تأثيرهم في حياة الناس[٢]. وانتشرت المنشآت الصوفية من ربط وخانقاوات[٣] في مرو، وكان لهذه المنشآت نظام معماري خاص فهي تشتمل على الخلوات والجامع والمطبخ والحمام ومكان يرسم ضيافة الواردين[٤] وقد سُمي كبير الصوفية قطب أو شيخ الشيوخ وأتباعه بالمريدين أو الفقراء[٥].

هكذا ازدهر التصوف بمرو في العصر السلجوقي وسار سمة بارزة للحياة وظهر تأثيره واضحًا في الشعر حيث استعمل شعراء هذا العصر ألفاظًا ومصطلحات للصوفية فتوطدت الصلة بين الشعر والتصوف[٦] وأصبح التصوف علمًا مدونًا، له علماؤه الذين ينشرون مبادئ التصوف وتعاليمه

---

(١) قاسم غني: تاريخ التصوف في الإسلام ٦٦٦- ٦٦٧ ترجمة صادق نشأت-القاهرة ١٩٧٢.

(٢) حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي ٥٤٨.

(٣) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة ٣/ ٩٢.

(٤) د/ عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية ١٨٦- ١٨٧.

(٥) السبكي: معيد النعم ١٧٦- ١٧٨.

(٦) قاسم غني: تاريخ التصوف ٦٦٣- ٦٦٤.

ويدعون له.

ومن أشهر علماء التصوف في مرو الشيخ محمد بن محمد العالقاني المروزي الذي استوطن مدينة صور منذ عام ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م حتى مات بها، وسمع كتاب (الطبقات) لأبي عبد الرحمن السلمي[١].

والشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن علي الخياقي الصوفي من أهل مدينة خياق بمرو، كان شيخًا صالحًا سديد السيرة كثير العبادة، صحب المشايخ الكبار وسافر إلى بلاد الشام ومات بمرو سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥م[٢]، وأيضًا من أشهر شيوخ التصوف الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الرحمن بن محمد المروزي الكشميهني كان إمام عصره في علم التصوف وللناس فيه محبة واعتقاد حسن، مات سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م[٣]. والشيخ يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسن الهمذاني أبو يعقوب كان زاهدًا متصوفًا، تفقه في بغداد ووعظ بها، ثم رحل إلى مرو وسكنها، وله عدة مصنفات في الصوفية منها (منازل السالكين) و(زينة الحياة) ومات سنة ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م[٤] والشيخ أبو سعد عبد الكريم السمعاني له في التصوف كتاب (عز العزة) وكتاب (سلوة الأحباب)[٥].

وقد عظم شأن الصوفي في مرو خلال العصر السلجوقي، فحرص سلاطين السلاجقة على زيارتهم ولقائهم[٦] والتبرك بهم فكان السلطان سنجر

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٧.

(٢) السمعاني: الأنساب ٢/ ٣١٧.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ٢٦١.

(٤) الزركلي: الأعلام ٨/ ٢١٩- ٢٢٠.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٦١.

(٦) الراوندي: راحة الصدور ١٦٠- ١٦١.

حريصًا عل زيارة الشيخ قطب شالوسي في صومعته وارتداء خرقته[١].

وصفوة القول: إن الاضطربات السياسية والصراعات المذهبية التي عانى منه أهل مرو في ذلك العصر أدت -بما لا يدع مجالا للشك- إلى ازدهار التصوف هربًا من متاعب الحياة الدنيا، كما كان لميل السلاجقة إليهم واحترامهم كبير الأثر في ارتفاع شأنهم، فبرز منهم علماء عظماء في التصوف خلَّفوا مصنفات عظيمة، أثْرَت المكتبة الإسلامية وأصبح التصوف علمًا مدونًا له مؤلفاته وبالتالي أصبحت مرو من أكبر مراكز التصوف.

الثانية: العلوم اللغوية والأدبية

١ -علم اللغة

كانت اللغة الفارسية هي اللغة السائدة في مرو قبل الفتح الإسلامي، ولكن بعد الفتح الإسلامي تدريجيًّا أصبحت اللغة العربية أكثر انتشارًا وأصبحت اللغة الرسمية في مرو؛ وذلك لأن اللغة العربية هي لغة الإسلام فكان القرآن عربيًّا خالصًا وقد أقر إلى الأبد صفة الأولوية الدينية والأدبية للغة العربية[٢].

وقد أدى الفتح الإسلامي لمرو إلى إدخال تغيرات جوهرية على لغة الفرس فتغيرت الحروف التي كانت تكتب بها اللغة الفارسية وأصبحت تكتب بحروف عربية، كما انتقلت إلى اللغة الفارسية آلاف من المفردات

---

(١) محمد بن حسن بن أسفنديار: تاريخ طبرستان ١٣١- ١٣٢ ترجمة أحمد أبو المجد هلال، القاهرة ١٩٩٧م.

(٢) بطروشوفسكي: الإسلام في إيران ٧٧- ٧٨، ترجمة السباعي محمد السباعي، دار الثقافة، بدون تاريخ.

العربية التي أصحبت تشكل قسمًا جوهريًّا من لغة الفرس[١].

وفي القرن الرابع الهجري أصبحت اللغة الفارسية شريكة للغة العربية[٢] ثم صارت لغة الدولة الرسمية في عهد السامانيين وظلت هكذا في عهد الغزنويين والسلاجقة[٣] ولما جلس آلب أرسلان على العرش أصدر أوامره بأن تكون لغة الكتابة في الدواوين بالفارسية فقطعت هذه اللغة شوطًا كبيرًا في طريق الرقي والكمال[٤].

ورغم ذلك ظلت اللغة العربية منتشرة في مرو خلال هذا العصر، فكان بيت السمعاني التميمي من أشهر البيوتات العربية الذائعة الصيت في مرو وخارجها، فقد اشتهر بمن أخرجهم من الرجال البارزين في العلم ومناصب التدريس والقضاء والإفتاء، وكان محمد بن منصور بن عبد الجبار التميمي المروزي -والد تاج الإسلام أبي بكر أبي المظفر السمعاني- معتنيًا باللغة وصنف كتاب (التهذيب في اللغة)[٥].

ومن أشهر علماء اللغة بمرو علي بن مسكويه بن إبراهيم أبو الحسن المراغي كان بارعًا في علم اللغة، مات سنة ٥١٦ هـ/ ١١٢٢م بمرو، ومحمد ابن عزيز العارض أبو القاسم الخوارزمي شمس المشرق، كان من أفاضل

---

(١) محمد عبد السلام كفافي: أدب الفرس وحضارتهم ٩- ١٠.

(٢) Frye Islamic Iran and centarl Area (6- 12C enturies) London,1979 , p.131

(٣) أحمد محمود السادات: تاريخ الترك في شبه القارة الهندي ٢/ ٣٥٩، د/ حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي ٦٩، القاهرة ١٩٦٨م.

(٤) د/ أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة ٢٥٠.

(٥) القفطي: إنباه الرواة ٣/ ٢١٦، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.

عصره في علم اللغة رحل إلى مرو ومات بها سنة ٥٢١ هـ/ ١١٢٧م[١].

كما كان الحسن بن علي بن محمد بن إبراهيم القطان أبو علي المروزي البخاري الأصل من كبار اللغويين في عصره، مات بمرو سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م[٢]، وكان أيضًا الإمام أبو عبد الله محمد بن الحسين المروزي الذي كتب عن علم اللغة في موسوعته (قيد الأوابد) مات سنة ٥٥٩هـ/ ١٢٦٠م[٣].

٢- علم النحو

هو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقًا، بمقاييس مستنبطة من استقرار كلام العرب وقوانين مبنية عليه[٤] أي إن علم النحو هو علم القواعد التي تضبط الكلام وذلك لنطق اللغة نطقًا صحيحًا.

ومن أشهر علماء النحو في مرو محمود بن جرير الضبي الأصبهاني أبو مضر النحوي، كان فريد عصره في علم النحو، توفي عام ٥٠٧هـ/ ١١٧٤م بمرو[٥]، والإمام أحمد بن محمد بن القاسم بن خذيو أبو رشاد الأخسيكني الملقب بذي الفضائل، قدم مرو وسكنها إلى أن مات بها سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٣م وكان من أئمة النحويين[٦].

أيضًا من كبار النحويين أيضًا أحمد بن محمد بن عبد الله بن أحمد الأنصاري

---

(١) السيوطي: بغية الوعاة ٢/ ٢٧٩.

(٢) البيهقي: لباب الأنساب ١/ ٦١.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٩٣.

(٤) السكاكي: مفتاح العلوم ٧٥، بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٥) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١١/ ٥٩- ٦٠، القفطي: إنباه الرواة ١/ ١٣٢.

(٦) القفطي: المصدر السابق ذكره ١/ ١٣٢.

المروزي البلنسي الأصل، كان من أشهر علماء عصره في علم النحو، فكان بارعًا في فهم أغراض أهله متحققًا بكتاب سيبويه[١]، والإمام محمد بن سعد ابن محمد الديباجي أبو الفتح المروزي النحوي ابن النحوي، كان شيخًا جليلًا عالمًا حَسَن العشرة، أخذ النحو عن والده، وشرح المفصل، ولد سنة ٥١٠هـ/ ١١١٦م ومات سنة ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢م[٢].

٣-الأدب

نهضت مرو أثناء العهد السلجوقي نهضة أدبية واسعة ذات ألوان متعددة ما بين نثر وشعر، وكتب كثير من الأدباء باللغتين العربية والفارسية[٣]، وقد بلغ النثر قمة تطوره في مرو خلال العصر السلجوقي لاتخاذه أسلوبًا جديدًا هو أسلوب النثر الفني المتكلف[٤]، حيث صب الكتاب أفكارهم في قوالب جميلة من الألفاظ المزخرفة والمحسنات والتشبيهات والاستعارات والكنايات وما شابهها، كما كثرت الاستشهادات المأخوذة عن النظم العربي، والاستدلال بالآيات القرآنية الشريفة وضرب الأمثال وإيراد الحكايات العربية[٥]، وقد بلغ اعتقاد الكتاب خلال هذا العصر أن النثر البسيط البعيد عن التكلف نثر ركيك

---

(١) السيوطي: بغية الوعاة ١/ ٣٦٧.

(٢) الذهبي: ذيل تاريخ بغداد ١٥/ ٢٩.

(٣)رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي ٩٣، دار الفكر العربي، القاهرة ١٣٦٦ هـ/ ١٩٤٧م، عبد العزيز مصطفى بقوش: تطور النثر الفارسي في إيران والهند ١٣ دار الثقافة العربية، القاهرة ١٩٨٦م.

(٤) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة ٢٥٧، على الشابي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي ٣٥٩، تونس ١٩٦٥م.

(٥) علي الشابي: المرجع السابق ذكره ٣٥٩، عبد العزيز مصطفى بقوش ١٨.

لا جدوى منه[١]، ولم يقتصر هذا الاعتقاد على الكتاب فقط بل شمل أهالي مرو وحكامها الذين راقتهم هذه الزخارف واستحسنتها أذواقهم[٢] فأكثر الكُتَّاب منها في آثارهم ومن ثَم عبر النثر عن كافة الموضوعات، ومن أهم هذه الموضوعات ظهور مؤلفات عرفانية نثرية خاصة بالصوفية[٣]، كما راجت في المدينة سوق المناقشات المذهبية، فكان الصراع على أشده بين السنة والشيعة والسنة أنفسهم (الحنفية والشافعية) وحاول كل فريق إثبات وجهة نظره ومهاجمة الفرق الأخرى، فكتب بعضهم كتبًا في التفاسير الدينية والمذهبية[٤].

كذلك أُلِّفت عدة كتب في التاريخ، والخاص من بينها كتاب (سياست نامه) الذي ألفه الوزير نظام الملك وزير ألب أرسلان وملكشاه[٥] وتناول فيه الآداب العامة والنظم الملكية وسير الملوك والعظماء، ومن هذه الوجهة يعتبر الكتاب كتابًا في التاريخ والسياسة والاجتماع[٦] ومن موضوعات النثر أيضًا المنشآت والرسائل وهي نوعين: **الأولى**: تكتب في شئون الدولة، **والثانية**: إخوانية ممن لم يتولوا مناصب رسمية، بل كانوا من عامة المشتغلين بالأدب[٧]، وممن قام بالعمل في ديوان السلاجقة مؤيد الملك منتخب الدين بديع علي بن أحمد الكاتب الجويني الذي كتب مجموعة الرسائل التي عرفت بعتبة الكتبة،

---

(١) عبد العزيز بقوش: المرجع السابق ذكره ١٨.

(٢) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٩٧- ١٩٨.

(٣) د/ أحمد كمال الدين حلمي، السلاجقة: ٦٠.

(٤) د/ أحمد كمال الدين حلمي، المرجع السابق: ٦٣- ٦٤.

(٥) إحسان عباس: عهد أزدشير، تهران ١٣٤٨هـ ١٦٨- ١٦٩، نظام الملك: سياست نامه ١١- ١٥.

(٦) بطروشوفسكي: الإسلام في إيران ١٥٧، طه ندا: تاريخ الحضارة الإسلامية ١٤٥-بيروت ١٩٧٦م.

(٧) مصطفى الشكعة: بديع الزمان الهمذاني ٦٧- ٦٨ القاهرة ١٩٥٩م.

وكان منتخب الدين صاحب ديوان الرسائل في عهد السلطان سنجر وقد دونت هذه المجموعة ما بين ٥٢٨ - ٥٤٨ هـ/ ١١٣٣ - ١١٥٣م وكان هدفها كيفية تعلم الكتابة والإنشاء[١].

كما عني أدباء مرو بسرد القصص القومية والملاحم الشعبية التي تصور البطولات الفارسية وتمجد سلوك الفرس وتحيي أمجادهم القديمة، وكان يطلق على هذه الملاحم اسم (الشاهنامه) وقد حظيت بمكانة عظيمة في مرو، فهي سجل لتاريخ أهلها منذ أقدم العصور، وكان للمدينة السبق في شعر الشاهنامه[٢] التي كتبها المسعودي المروزي أواخر القرن الثالث الهجري[٣].

ومن أشهر أدباء مرو أبو حفص عمر بن محمد بن الحسن بن إبراهيم الفرغولي، ولد بدهستان ونشأ بجرجان وسكن مرو، برع في الأدب وتوفى بها[٤]، ومن أئمة الأدب أيضًا أحمد بن محمد بن القاسم بن أحمد بن خذيو أبو رشاد ذو الفضائل الأخسيكني، كان أديبًا بارعًا من الكتاب المترسلين في دواوين السلاطين، مات في مرو[٥].

كما كان أبو الحسن بن أبي علي المنتخب من أهل مرو كاتبًا فصيح العبارة بليغًا في غاية الحسن، اجتمعت فيه أسباب المنادمة والكتابة وصحبة الملوك، ومن مؤلفاته (تعلة المشتاق إلى ساكني العراق) مات سنة

---

(١) محمد عوفي: لباب الألباب ١/ ٧٨- ٧٩، ليدن ١٩٠٦م.

(٢) طه ندا: دراسات في الشاهنامه ٥٨ الإسكندرية ١٩٥٤م، على الشابي: الأدب الفارسي ١١٠، السباعي محمد السباعي: النثر الفارسي ٤٦.

(٣) د/ طه ندا: المرجع السابق ذكره ٥٨.

(٤) ابن الأثير: اللباب ٢/ ٤٢٣.

(٥) الزركلي: الأعلام ١/ ٢١٥.

٥٣٦هـ/ ١١٤١م[١].

أما الشعر فهو كلام موزون[٢] وهو لسان الأمة المعبر عن آمالها وآلامها فهو كالكائن الحي ينمو في وجدان الشعب ومع نمو فكر الأمة فلا يمكن فصله من روح الشعب وطبيعته[٣]، وقد حظي الشعر والشعراء على اهتمام كبير من قبل سلاطين السلاجقة حتى أصبحت مرو مركزًا أدبيًّا هامًّا، ولاسيما في عهد السلطان سنجر[٤] الذي ازدان بلاطه بالعديد من الشعراء وكان الشعر في بداية العصر السلجوقي يتميز بمحاكاة الشعر الغزنوي ثم نجح شعراء السلاجقة في ابتكار أساليب شعرية جديدة تعد سمة بارزة لهؤلاء الشعراء[٥] وكانت هذه الأساليب انعكاسًا لمضامين الشعر العربي وأفكاره وأسلوبه[٦] كذلك اتسعت موضوعات الشعر الفارسي واتجهت إلى أبسط الأساليب وأقربها إلى الطبيعية، كما ركز شعراء السلاجقة أيضًا على لغة التخاطب والحوار وسهولة القصائد وسلاستها[٧]، وقد تعددت موضوعات الشعر في المدينة في ذلك العصر، فقد طرق الشعراء أبواب المدح والهجاء والوعظ والحكمة والمسائل العرفانية والغزل[٨] وكان المديح أهم هذه الموضوعات الشعرية التي راجت في المدينة حيث أقبل الشعراء[٩] عليه لينالوا العطاء من

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٥/ ٥٨- ٥٩.

(٢) السكاكي: مفتاح العلوم ٥١٥.

(٣) عباس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة ٤٣٨.

(٤) السكاكي: المصدر السابق ذكره ٥١٥.

(٥) ذبيح الله: تاريخ أدبيات در إيران م٢، ٢٩٠- ٢٩١.

(٦) مصطفى الشكعة: الأدب في موكب الحضارة الإسلامية: ١٥٩- ١٦٠.

(٧) ذبيح الله: المرجع السابق ذكره م٢، ٣٣٣.

(٨) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة ٢٩١- ٢٩٢.

(٩) محمد محمدي: الأدب الفارسي، ١٧٨ – ٢٠٤، بيروت ١٩٦٧م.

قبل السلاجقة[١]، وكان من كبار الشعراء في مرو المعزي وهو ابن عبد الملك البرهاني بلبل الملكشاهي وأمير الشعراء في بلاط السلطان سنجر[٢]، وكان المعزي من أعذب شعراء الفرس قولًا وأجملهم إنشادًا، كما امتاز شعره بالفصاحة[٣]، ووصلت أشعاره إلى خمسة عشر ألف بيت، وله أيضًا ديوان يبلغ حوالي ثمانية آلاف بيت من قصائد وغزليات ورباعيات وامتدح في قصائده السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك والسلطان سنجر[٤].

وسبب وفاة المعزي أن السلطان سنجر أطلق سهمه ذات يوم فأخطأ فأصابت رميته المعزي فجرح جرحًا مميتًا، وقال المعزي بعد هذه الإصابة:

المنة لله وحده..فإني بسهم الأمير..لم أقتل بغير ذنب كبير.

وتوفى الشاعر المعزي متأثرًا بجراحه سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م[٥]، ومن أشهر شعراء مرو أيضًا أديب صابر وهو شهاب الدين بن إسماعيل الترمذي، من شعراء السلطان سنجر، وامتازت أشعاره بالرقة والجودة والفصاحة، كما كان له غزل رقيق فاق به بعض معاصريه، وقد جرت بينه وبين شعراء عصره مناظرات ومنهم الوطواط[٦]، وتوفى أديب صابر بعدما أرسله السلطان سنجر إلى خوارزم يستطلع وجهة عدوه (أتسز) في الحرب لكن أتسز كشف أمره فأمر

---

(١) ذبيح الله: تاريخ أدبيات در إيران م٢، ٢٩٧.

(٢) جرانفيل براون: تاريخ الأدب في إيران ٤١٣، ترجمة الشواربي، مطبعة السعادة، مصر ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

(٣) جرانفيل براون: المرجع السابق ذكره ٤١٣.

(٤) رضا شفق: المرجع السابق ٩٠- ٩١.

(٥) رضا زاده: تاريخ الأدب الفارسي ٩٠- ٩١، براون: المرجع السابق ذكره ٤١٤- ٤١٥.

(٦) رضا زاده: المرجع السابق ذكره ١١١، أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة ٣٢٦.

بقتله سنة ٥٤٦ هـ/ ١١٥١م[١].

كما يعتبر الشاعر محمود بن علي سمائي المروزي من كبار شعراء العهد السلجوقي، فقد أطرب السلطان سنجر بشعره الغزلي، فكان شعره جيدًا يشتمل على مضامين لطيفة ومعان بديعة، مات بعد النصف الثاني من القرن السادس الهجري[٢]، كذلك كان الشاعر أثير الدين شرف الحكماء فتوجي المروزي من شعراء السلطان سنجر، وامتازت أشعاره بالرقة والسلاسة وكانت غزلياته جيدة[٣].

كما تعد الشاعرة مهستي من أبرز شعراء السلطان سنجر، وقد نظمت شعرًا يتسم بالصراحة في التعبير عن عواطفها[٤]، ووجدت مهستي الحظوة عند السلطان سنجر وذلك لسلامة طبعها ورقة شاعريتها، وحضور بديهتها، ومما يعد مصداقًا لذلك أنه ذات يوم كان الثلج غزر هبوطه ذات يوم فسألها السلطان عن رأيها في الثلج فقالت على البديهة ما ترجمته[٥]:

أيها الملك ... أسرع الفلك غرس السعادة لك.

ومن الشعراء المشهورين تاج الملوك علي بن مرادويج الذي عاش في كنف السلطان سنجر في مرو، وتزوج من أخت السلطان[٦] كان بارعًا في الشعر وبلغت أشعاره من المقطوعات والرباعيات تتجاوز أكثر من مجلد[٧]، ومن

---

(١) رضا زاده: المرجع السابق ذكره ١١١، براون: المرجع السابق ذكره ٣٨٥.

(٢) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة ٣٤٥- ٣٤٦.

(٣) محمد عوفي: لباب الألباب ٢/ ١٤٨- ١٥٠.

(٤) د/ شيرين عبد النعيم حسنين: نساء شهيرات في السياسة ٦٥.

(٥) د/ شيرين عبد النعيم: المرجع السابق ذكره ٦٥- ٦٦.

(٦) محمد بن إسفنديار: تاريخ طبرستان ١١٤، ترجمة أحمد أبو المجد هلال ٤.

(٧) محمد بن إسفنديار: المرجع السابق ذكره ٣٦٣.

أشهر شعراء مرو أوحد الدين محمد الأنوري الذي ذاعت شهرته في حياة السلطان سنجر، وكان الأنوري ممن يحيطون بدقائق اللغة وغوامضها كما كان من أعظم شعراء القصيدة في عصره، ويشهد له بطول الباع في اللغتين الفارسية والعربية[١]، وقد اصطحبه السلطان سنجر في حملته الثانية على خوارزم سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م، حتى يقضي على عصيان أتسز وحاصر عاصمتها هزاراسب، عندئذ أنشد الأنوري رباعية تناسب الموقف وسجلها على سهم ثم وجهه إلى معسكر أتسز وهي:

أيها المليك حسبك ملك الأرض لك

وكانت وفاته ما بين سنة ٥٨٥- ٥٨٧هـ/ ١١٨٩- ١١٩١م.

صفوة القول: شهدت مرو خلال العصر السلجوقي نهضة أدبية واسعة شملت النثر والشعر فقد أنجبت مرو نخبة من الأدباء والشعراء الذين حظوا بشهرة واسعة وخلَّفوا لنا مؤلفات عظيمة.

ثالثًا: العلوم العقلية

علم التاريخ

وهو من العلوم التي لاقت رواجًا كبيرًا في مدينة مرو خلال العصر السلجوقي، ومن كبار المؤرخين أبو بكر السمعاني الذي برع في علم التاريخ والأنساب مات سنة ٥١٠هـ/ ١١١٦م[٢].

ومن أبرز مؤرخي مرو أيضًا أبو علي الحسن بن علي بن محمد المروزي، له

---

(١) محمد بن إسحاق: سنخوران إيران ٢٨٥، رضا زاده شفق، تاريخ الأدب الفارسي ٩٣.

(٢) الذهبي: العبر ٢/ ٣٩٦.

كتاب (الدوحة في الأنساب)[١] كما ألف كتابًا في نسب أبي طالب، مات سنة ٤٥٨هـ/ ١١٥٣م[٢].

كذلك يعد أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني من أشهر مؤرخي مرو في العهد السلجوقي، ومن أهم مؤلفاته كتاب (الأنساب)[٣] نحو ثمانية مجلدات اختصره ابن الأثير في كتاب (اللباب في تهذيب الأنساب) في ثلاثة مجلدات، كما اختصره السيوطي في (لب اللباب)[٤]، كما ألف السمعاني (ذيل تاريخ بغداد) لأبي بكر الخطيب في خمسة عشر مجلَّدًا[٥]، ثم جاء عماد الدين أبو عبد الله بن محمد بن حامد الكاتب وألف ذيلًا على ذيل السمعاني وذكر ما أغفله وسماه (السيل على الذيل) وهو في ثلاثة مجلدات[٦]، كذلك ألف السمعاني كتاب (تاريخ مرو) في عشرين مجلدًا[٧].

والخلاصة: لقد تنوعت الكتابة التاريخية في مرو في العصر السلجوقي في التاريخ والأنساب والسير والتراجم والمدن.

٢- علم الجغرافيا

هو علم تقويم البلدان والجغرافيا هي كلمة يونانية تعني وصف الأرض بما فيها من تضاريس وأجواء[٨]، وقد نال علم الجغرافيا اهتمامًا كبيرًا في مرو

---

(١) البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام ١٥٧، الزركلي ٢/ ٢٠٢.

(٢) السيوطي: بغية الوعاة ١/ ٥١٣.

(٣) ابن غازي الأزدي: أخبار الدولة المنقطعة ٢٩٠.

(٤) السمعاني: الأنساب ١/ ٩، جورجي زيدان: أدب اللغة العربية ٣/ ٧٤- ٧٥.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٢١٠، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢١٠.

(٦) حاجي خليفة: كشف الظنون ١/ ٢٨٨.

(٧) حاجي خليفة: المرجع السابق ١/ ٣٠٣.

(٨) د/ عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة ٢٣١.

فقد حفلت بعدد من الجغرافيين والرحالة.

ومن كبار الجغرافيين بها أبو معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي الذي قام برحلة استغرقت سبع سنوات[١] ٤٣٧ - ٤٤٤هـ/ ١٠٤٥ - ١٠٥٢م، مبتدئًا بمرو مارًّا بأذربيجان وأرمينية والشام وفلسطين ومصر والحجاز ونجد وجنوبي العراق، ثم عاد على إيران ومنها لبلخ[٢]، وقد دون ناصر خسرو ما شاهده في هذه البلاد في كتابه (سفر نامه)[٣]، كما اشتهر أبو سعد عبد الكريم السمعاني برحلاته العديدة في كثير من بلدان المشرق الإسلامي مما مكنه من تأليف كتابه (معجم البلدان) وأيضًا كتاب (الإسفار عن الأسفار)[٤].

٣- الفلسفة

كلمة يونانية ومعناها محبة الحكمة، فهي مطالعة عقيدة خالصة للوجود عن طريق الاستدلال والمنطق، وقد شهدت مرو خلال العصر السلجوقي حركة فلسفية بارزة، وكان من أشهر الفلاسفة قطب الزمان محمد بن أبي طاهر الطبسي المروزي، وهو أحد تلامذة الأديب أبي العباس، وكان والده من حكماء مرو، وكان قطب الزمان بارعًا في علوم الحكمة وذاع صيته في مرو ومات سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م[٥].

كما كان أبو العباس فضل بن محمد اللوكري المروزي أكبر رواد هذه

---

(١) عبد الله رازي: تاريخ كامل إيران ١٩٥.

(٢) زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ٥٦.

(٣) حاجي خليفة: كشف الظنون ٢/ ٩٩١.

(٤) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ١/ ١٨١- ١٨٣.

(٥) البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام ١٢٨- ١٢٩.

الحركة وهو تلميذ بهمن أحد تلامذة ابن سينا، كما تتلمذ علي يديه عدد كبير من العلماء والفلاسفة في هذا العصر، عنه انتشرت علوم الحكمة بخراسان، وله الكثير من المؤلفات أهمها (بيان الحق بضمان الصدق) وله أيضًا جلساته ومختصراته ومحاوراته[١].

كذلك أيضًا كان الحسن بن علي بن محمد القطان أبو على عين الزمان المروزي بارعًا في الحكمة، وهو من تلامذة أبي العباس اللوكري، مات سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م[٢].

٤- علم الفلك

ويطلق عليه علم الهيئة، وهو علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة، ويستدل بكيفيات تلك الحركة على أشكال وأوضاع للأفلاك لزمت عنها هذه الحركات بطرق هندسية[٣]، فأصل هذا العلم هو معرفة الكواكب والأفلاك والبروج[٤] وقد ازدهر هذا العلم في مرو خلال العهد السلجوقي.

وكان الفلكيون يسمون مؤلفاتهم عادة (زيج)[٥] ومن كبار علماء الفلك في مرو الإمام شمس الدين أبي بكر محمد بن أحمد بن أبي بشر المروزي المعروف بالخرقي ذاع صيته في علم الهيئة، وله مؤلفات كثيرى منها: (التبصرة في علم

---

(١) البيهقي: المصدر السابق ١٢٦- ١٢٧، أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة ٣٩١.

(٢) الزركلي: الأعلام ٢/ ٢٠٢.

(٣) د/ عصام عبد الرءوف: الحواضر الإسلامية الكبرى ٢٨٤.

(٤) شريف محمد شريف: الجغرافيا، حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، مجلد ١٠ عام ١٩٦٧م، ص ١٦٥.

(٥) د/ عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٢٨.

الهيئة)[١] و(منتهى الإدراك في تقسيم الأفلاك)، وقد اقتدى الخرقي بابن الهيثم في تقسيم الأفلاك بالأكر المجسمة دون الاقتصار على الدوائر المتوهمة، وقسم كتابه إلى قسمين: قسم في الأفلاك والآخر في الأرض، مات سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م[٢]، وكان الحسن بن علي بن محمد القطان من أشهر علماء الفلك وهو أحد تلامذة اللوكري، كان له باع طويل في علم الهيئة وألف بالفارسية (كيهان سياحت) مات سنة ٤٥٨ هـ/ ١١٥٣م[٣].

ومن المهتمين بعلم الفلك أيضًا عبد الرحمن الخازن أبو الفتح، كان غلامًا روميًّا لعلي الخازن المروزي وصنف (الزنج) المسمى (بالمعتبر السنجري) نسبة إلى السلطان سنجر[٤].

كما كان أبو الفتح محمد بن أبي حنيفة النعمان بن محمد بن أبي عاصم البالقاني شيخًا عالمًا بالنجوم قابله السمعاني بمرو، مات سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦١م[٥].

٥- الرياضيات

اهتم علماء مرو بدراسة الرياضيات بفروعها الحساب والجبر والمقابلة والهندسة[٦]، وراجت هذه العلوم في مرو، وممن اشتهر بها عماد الدين أبو الثناء محمود بن أحمد بن الزكي محمد المروزي المستوفى، كان ضابطًا عارفًا بالحساب

---

(١) البيهقي: المصدر السابق ذكره ١٥٥.

(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون ١/ ٣٣٨- ٣٣٩، محمد محمود إدريس: السلطان سنجر ١٣٨.

(٣) د/ أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة ٢٨٨- ٢٨٩.

(٤) البيهقي: المصدر السابق ذكره ١٦٢.

(٥) السمعاني: الأنساب ١/ ٢١٦.

(٦) رسائل إخوان الصفا ١/ ٤٩.

واستيفاء الأموال[١].

ومن كبار علماء الرياضيات عبد الرحمن الخازن أبو الفتح بارعًا في علم الهندسة مات سنة ٥٥٠ هـ/ ١١٥٥م[٢]، وكان أيضًا أبو بكر فضل الله بن محمد ابن إبراهيم الدلغطاني المروزي، متبحِّرًا في الحساب، مات سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦١م[٣]، ومن المهتمين أيضًا بعلم الرياضيات بهاء الدين محمد الخرقي الذي كتب إلى تلاميذه أن الرياضيات تسمى التعاليم الأربعة؛ لأن موضوعها الكمية وهي إما أن تكون متصلة أو منفصلة[٤].

٦- الطب

وكلمة الطب في أبسط معانيها تعني فن معالجة المرضى والمتألمين والمصابين، ومن هنا كانت مهنة الطب مهنة إنسانية بالدرجة الأولى[٥]، ومن الشروط التي ينبغي أن يتحلى بها الطبيب أن يكون رفيق الخلق حكيم النفس جيد الحدس[٦]، ولقد شهدت مرو في العصر السلجوقي تقدمًا كبيرًا في علم الطب وتميز الأطباء بالتفوق في ممارستهم الطب.

وقد مارس الأطباء هذه المهنة في البيمارستانات[٧]، وهي إحدى المنشآت التي أسست للعلاج معًا[٨]، وكانت البيمارستان تسير وفقًا لنظام وترتيب معين

---

(١) ابن الفوطي: تلخيص مجمع الأدب ٤/ ٨٥٨.

(٢) الزركلي: الأعلام ٣/ ٣٠٥.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٢٤٦.

(٤) البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام ١٥٥.

(٥) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ٧، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٧م.

(٦) السمرقندي: جهار مقاله ٧٤.

(٧) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ٤، دمشق ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٩م.

(٨) شوكت الشطى: موجز تاريخ الطب عند العرب ٩، دمشق ١٣٧٩ هـ/ ١٩٥٩م.

حيث قسمت إلى قسمين منفصلين بعضهما عن بعض: قسم للذكور وآخر للإناث[١]، وكل قسم يشتمل على عدة قاعات لمختلف الأمراض، فقسم للعمليات وقسم للكحالة وآخر للجراحة[٢] وهكذا، وكانت القاعات فسيحة حسنة البناء، وكان الماء فيها جاريًا، ولكل قسم من أقسامه رئيس، كما كان للبيمارستان صيدلية تسمى (شرابخانة) كما ألحق بالبيمارستان حمام عام، وأشرف على نظافة البيمارستان الفراشون من الرجال والنساء[٣]، وكانت البيمارستان نوعان: ثابت ومحمول[٤]، والثابت ما كان بناء ثابتًا في جهة من الجهات لا ينتقل منها، أما المحمول فهو الذي ينتقل من مكان لمكان بحسب ظروف الأمراض والأوبئة وانتشارها وكذلك الحروب[٥].

وكانت البيمارستانات أهم الأماكن التي يدرس فيها الطب حيث كان طلبة الطب[٦] يتلقون علومهم على أساتذتهم فيها، إذ كانت تهيأ لهم الإيوانات الخاصة المعدة والمجهزة بالآلات والكتب أحسن تجهيز، فيقعدون بين يدي معلمهم بعد أن يتفقدوا المرضى وينتهوا من علاجهم[٧].

وقد ضم البيمارستان مكتبة كبيرة زخرت بالكثير من المؤلفات الطبية التي تساعد الطلبة على معرفة ما يحتاجون إليه في تشخيص الأمراض[٨]، وقد نبغ

---

(١) د/ عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية ١٠٩.

(٢) عبد الله عبد الرازق: المستشفيات الإسلامية ٧٥، دار الضياء، الأردن ١٩٨٧م.

(٣) أحمد عيسى: المرجع السابق ذكره ١٩- ٢٠.

(٤) شوكت الشطى: المرجع السابق ذكره ١٠.

(٥) أحمد عيسى: المرجع السابق ذكره ١٠- ١١.

(٦) ولد ديورانت: قصة الحضارة ج٢ (١٩٠)، ترجمة محمد بدران.

(٧) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات ٣٨.

(٨) إوارد جي براون: الطب العربي ٤٧، ترجمة داود سليمان علي - بغداد ١٩٦٤م.

نخبة من علماء الطب بالمدينة؛ منهم العالم إسماعيل بن الحسن بن محمد بن أحمد العلوي الجرجاني أحد تلاميذ ابن الصادق، وقد طار صيته في علم الطب، وقد انتقل إلى خوارزم وأقام بها مدة ثم انتقل إلى مرو فأقام بها إلى أن مات سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٦م، وكان قد عاش في كنف السلطان سنجر، وترجع أهميته في الطب إلى كونه أول شخص بعد ابن سينا ناقش كل موضوعات علم الطب بالصورة التي فكر فيها القدامى ودونها مع أبحاث وتحقيقات جديدة، كما أبرز أهم الآثار الطبية في لغة فارسية، وله فيه تصانيف حسنة منها (زبدة الطب) و(الطب المملوكي) و(التذكرة الشرفية في الصناعة الطبية)[١].

ومن كبار أطباء مرو أيضًا الحسن بن علي بن محمد القطان أبو علي عين الزمان المروزي طبيب ماهر، له مؤلفات عديدة وأهمها رسائل في (الطب)، مات سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م[٢].

كما كان قطب الدين محمد المروزي الملقب بالطبسي وهو أستاذ أبي الحسن علي بن زيد البيهقي في الطب، كما كان من أساتذة الطب في سرخس[٣].

٧- علم الصيدلة

هو العلم الذي يبحث الأدوية من حيث تركيبها وتحضيرها وهو علم وثيق الصلة بالطب، فقد ألحق بكل بيمارستان صيدلية تعرف بـ(شرابخانة) أي: خزانة الشراب، وكانت تحتوي على أنواع من الأشربة والمعالجين النفيسة والمربيات الفاخرة وأصناف الأدوية والعطريات الفائقة[٤].

---

(١) برنهارد دارن: الانتخابات البهية ١٨، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية ١٣٧٤هـ، ص١٨.

(٢) البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام ١٥٦- ١٥٧.

(٣) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة ٣٩٨- ٣٩٩.

(٤) عبد الله بن العباس الجراري: تقدم العرب في العلوم والصناعات ٧٤.

وكان يشرف على الصيدلية رئيس يسمى شيخ صيدلي البيمارستان، وهو المسئول عن تركيب الأدوية ووصفها للمريض[١].

ومن أشهر العلماء المهتمين بعلم الصيدلة إسماعيل الجرجاني الذي قام بدور مهم في إحياء علم الطب والعلاج، فمن مؤلفاته (التذكرة الشرفية في الصناعة الطبية)[٢]، وكان أيضًا الحسن بن علي بن محمد بن القطان أبو علي عين الزمان المروزي طبيبًا بارعًا، له عدة مؤلفات منها: رسائل في الطب، وأكثر معالجاته تئول على تقليل الطعام وتلطيفه، وربما كان ينهى المريض عن الدواء الغذائي فضلًا عن الغذاء[٣]، وجدير بالذكر أن الأطباء كانوا يقومون بعمل الصيادلة فضلًا عن عملهم.

٨- الفنون والعمارة

ارتقى الفن في مرو رقيًّا ملحوظًا خلال العصر السلجوقي؛ نتيجة لتشجيع سلاطين السلاجقة، فقد نشأ تحت رعايتهم طراز (قائم) بذاته يتميز بضخامة العمائر واتساعها ومظهرها القوي واستخدام رسوم الكائنات الحية المحورة عن الطبيعة وكثرة الزخارف[٤] التي غلب عليها الرسوم الآدمية ورسوم الحيوانات والطيور والرسوم النباتية[٥].

ولم تكن هذه النهضة العمرانية قاصرة على القصور فقط، بل شملت المدارس والمساجد وكذلك الأضرحة والمقابر التي تؤكد ازدهار العمارة

---

(١) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ١١، شوكت الشطي: موجز تاريخ الطب عند العرب ٤٧.

(٢) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة ٣٩٨- ٣٩٩.

(٣) البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام ١٥٦- ١٥٧.

(٤) زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية في الإسلام، ١٩.

(٥) زكي محمد حسن: فنون الإسلام، ٦٣١- ٦٣٣.

وتطورها في مرو، فكانت مقبرة السلطان سنجر أعظم شاهدًا على ذلك[١]، كذلك برع فنانو مرو في صناعة التحف المعدنية والزجاجية التي تتميز بجمالها ورقتها وتنوعها كالأكواب والأباريق والغلايات والأهوان والصناديق، كما قاموا بتزيينها برسوم آدمية وحيوانية وكتابات كوفية[٢].

وأيضًا نجح فنانو المدينة في زخرفة الزجاج بأساليب عديدة وطلائه بالمينا والتمويه بالذهب[٣] كالقوارير والزهريات والأكواب والصحون والأباريق[٤]، كما نبغ فنانو المدينة في زخرفة الخزف، فقد ابتكروا أروع أنواع الخزف الإسلامي[٥] كالتماثيل والبلاطات والمحاريب والشماعد والأباريق التي تميزت بالبساطة والكمال[٦]، كذلك نالت زخرفة النسيج شهرة واسعة في المدينة فقد تميزت المنسوجات بخفة وزنها وجمال رسوماتها وبساطة زخرفتها[٧]، وهكذا كان سلاطين السلاجقة من أكبر رعاة الفنون، فقد جمعوا بقصورهم في مرو الكثيرين من أهل الفن والصناعة.

خلاصة الحقيقة: أن مدينة مرو شهدت خلال العصر السلجوقي نهضة علمية وأدبية وفنية واسعة، فقد أنجبت العديد من العلماء في مختلف العلوم الذين ذاع صيتهم في الآفاق، كما كان لمؤلفاتهم عظيم الأثر في إثراء المكتبة الإسلامية، ولا شك أن مرو كانت قبلة للعلم والعلماء من أنحاء العالم الإسلامي في ذلك العصر.

---

(١) أوقطاي أصلان: فنون الترك وعمائرهم ٤١.

(٢) Michael Herson, The Art of gron p.p.88 92

(٣) Alxander Poulo islam and Muslim Art pp.78 81

(٤) ديماند: الفنون الإسلامية ٢٣٠.

(٥) ديماند: المرجع السابق ذكره ١٨١.

(٦) زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية ٢٤٨.

(٧) د/ سعاد ماهر: الفنون الإسلامية ٢٩.

الفصلُ الخامس

الحياة الاجتماعية لمدينة مرو في العهد السلجوقي

ضمت مرو عناصر جنسية متعددة أثناء العهد السلجوقي، وكان لكل عنصر أثره في الحياة الاجتماعية، ونذكر من أهم هذه العناصر:

١ - الترك

هو العنصر الذي تكونت منه السلطة الحاكمة في مرو خلال العصر السلجوقي، وقد زاد توافدهم وإقامتهم في المدينة في ذلك بشكل كبير ملحوظ[١] على الرغم من أن العنصر التركي لم يكن أكبر العناصر البشرية عددًا، إلا أن أهميته ترجع إلى أنهم أول هجرة حقيقية إلى الشرق الإسلامي، كما كان العنصر الذي تقلد أعلى المناصب وأسندت إليه كافة المناصب السياسية، ليس ذلك فحسب بل فتحوا الباب على مصراعيه لسيادة عنصرهم على الشرق[٢].

وينسب السلاجقة إلى واحدة من هذه القبائل التركية التي عرفت باسم الغز، الذين اضطروا بسبب ازدحام ديارهم وضيق مراعيهم أن ينزحوا من أقصى سهول التركستان إلى ما وراء النهر[٣] في موضع بينه وبين بخارى مسافة

---

(١) عطية القوصي: تاريخ الدولة العباسية ١٦٧ - ١٦٨.

(٢) د/ عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٨ - ١٩.

(٣) ابن العبري: مختصر تاريخ الدول ٨٧، بيروت ١٩٨٦م، الفخري: الآداب السلطانية والدول الإسلامية ٢٩٢، عبد الرحمن زكي: السيف في العالم الإسلامي ٦٨، القاهرة ١٩٥٧م، طه ندا: تاريخ الحكم التركي ٣٧.

عشرين فرسخًا[١].

وكانت مساكنهم في الشتاء في نور بخارى، وفي الصيف في صغد سمرقند[٢]، وقد أطلق على هذه القبيلة اسم السلاجقة نسبة إلى زعيمها سلجوق بن دقاق[٣]، وكان هؤلاء السلاجقة يمتازون بالشجاعة وكثرة العدد وإجادة المراوغة[٤]؛ مما جعل حكام المنطقة يستعينون بهم في حروبهم كالسامانيين الذين سمحوا لهم مقابل مساعدتهم أن يقيموا داخل حدود دولتهم، وأعطوا لهم مدينة جند مقرًا لهم[٥].

وقد أدى استقرار السلاجقة في بلدان الدولة الإسلامية إلى اعتناقهم الإسلام على المذهب السني[٦]، وقد ظل سلجوق يعمل على إعلاء شأن السلاجقة حتى توفي، فخلفه ابنه أرسلان الملقب بإسرائيل الذي سار على نهج أبيه في تقوية السلاجقة وإعلاء شأنهم حتى صاروا في عهد الغزنويين قوة يخشى بأسها[٧] حينئذ بدأ السلطان محمد الغزنوي يفتح عينيه على خطر السلاجقة الكامن على حدود بلاده وانتابته المخاوف فعول على محاربتهم والقضاء عليهم[٨]، وأراد أن يتبين بنفسه مدى قوة السلاجقة وعددهم

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ١٥٥، يوحنا أبكاريوس: قطف الزهور في تاريخ الدهور ١/ ١١٠، القاهرة ١٩٧٣م.

(٢) الراوندي: راحة الصدور ١٤٥.

(٣) سيد مهدي معين: تاريخ إيران ١٠٦.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ١٥٥.

(٥) عباس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة ٢٩- ٣٠.

(٦) ابن العبري: مختصر تاريخ الدول ٨٧.

(٧) عبد النعيم حسنين: السلاجقة ٢٢.

(٨) عباس إقبال: المرجع السابق ذكره ٣٠- ٣١.

فاجتمع بزعيمهم إسرائيل ولما تأكد له تعاظم قوتهم وكثافة عددهم أراد أن يكسر شوكتهم، فاعتقل زعيمهم وألقاه في السجن في قلعة كالنجر ببلاد الهند، وظل إسرائيل في السجن حتى مات(١).

كما رأى السلطان محمود أن يسمح للسلاجقة بالعيش داخل حدوده حتى يظلوا خاضعين لرقابته فأنزلهم في نواحي خراسان؛ ومن ثم كان انتقال السلاجقة إلى خراسان واستقرارهم بها بداية لمرحلة جديدة حيث أخذوا يتحينون الفرص للانقضاض على الدولة الغزنوية(٢)، وقد أتاحت الفرصة بموت السلطان محمود وأصبحوا قوة تهدد كيان الدولة الغزنوية في عهد ابنه السلطان مسعود وتمكنوا من اكتساح المشرق الإسلامي والقضاء على الدولة الغزنوية والسيطرة على كافة أملاكها(٣).

وكانت مرو واحدة من أهم هذه الممتلكات، وقد كثر توافد الأتراك السلاجقة وإغارتهم على المدينة أثناء حكم السلطان مسعود، ثم نجح جغري بك في الاستيلاء عليها؛ وأصبح بذلك السيد الفعلي على كل شمال خراسان(٤).

لم يؤثر العنصر التركي في مرو أثناء هذا العصر؛ لأنهم كانوا أهل بداوة وأقل تحضرًا من سكان المدينة الأصليين لكن صفاتهم العسكرية التي منحتهم إياها بيئتهم القبلية قد جعلتهم يتميزون بالقوة الجسدية، وتغلبت عليهم الصفات الحربية من فروسية وشجاعة وغيرها(٥)؛ مما جعلهم يستأثرون

---

(١) الراوندي: راحة الصدور ١٤٩- ١٥١، محمد الخضري: تاريخ الأمم الإسلامية ٤١٤- ٤١٥، أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ٣١٤.

(٢) د/ عصام عبد الرءوف: الدول الإسلامية المستقلة ١٥٥.

(٣) الراوندي: المصدر السابق ذكره ١٥٧- ١٥٨، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٥- ٦.

(٤) فامبري: تاريخ بخارى ١٣٣.

(٥) محمد جمال الدين سرور: الحضارة الإسلامية في الشرق ١٦٩، أحمد أمين: ظهر الإسلام ١/ ١٩.

المناصب السياسية بالمدينة[١]، وأدى افتقار هذا العنصر للحضارة إلى انبهارهم بما وجدوه في المدينة من تقدم ومدنية جعلهم يحاكون أهل المدينة في الكثير من عاداتهم وتقاليدهم في كافة شئون حياتهم[٢].

ولقد مثلهم العنصر التركي في العهد السلجوقي الإرستقراطية السياسية الحاكمة بحكم سيطرتهم على كافة مقاليد الأمور، وجدير بالذكر أن هؤلاء الأتراك عاشوا في عزلة اجتماعية، فلم يندمجوا مع باقي العناصر السكانية وغلب عليهم طابع القسوة والغلظة في معاملاتهم للعناصر الأخرى، كما مارسوا أعمال الفساد والتخريب منذ قدومهم المدينة[٣]، وازداد خطرهم أواخر العهد السلجوقي بصفة خاصة عندما فقد سلاطين السلاجقة قوتهم، فكانوا من الضعف بحيث لم يتمكنوا من السيطرة على مماليك جنودهم[٤].

٢- الفرس

يمثل الفرس غالبية سكان مرو، وهم أهل البلاد الأصليون[٥]، وهم أهل حضارة عريقة، فقد ورثوا مدينة قديمة وطبعوا عليها ولهم قدرة كبيرة على تنظيم الحكم وكيفية زيادة الأموال، واهتموا بتشجيع العلم والعلماء[٦]، وظل الفرس محتفظين بجذورهم وأصولهم الفارسية القديمة فلم يختلطوا بالعناصر الجنسية المختلفة الموجودة في المدينة.

---

(١) د/ عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ١٧٥.

(٢) د/ عبد النعيم حسنين: المرجع السابق ذكره ١٧٦.

(٣) البيهقي: تاريخ البيهقي ٥٨١.

(٤) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ١١، رشيد الدين: جامع التواريخ م٢ جـ٥، ٦١- ٦٢.

(٥) اليعقوبي: البلدان ٢٧٦.

(٦) David Talbot Rice,islamic Art , New York,p .47

وينبغي أن نشير إلى محاولات الفرس المتكررة للسيطرة على السلطة وتكوين دول مستقلة، وكانت أولى هذه الدول المستقلة الدولة الظاهرية ثم الدولة السامانية التي قامت على أنقاض الصفاريين سنة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢م[١]، ورغم أنهم لم يحققوا انتصارًا على المسرح السياسي إلا أنهم حققوا التفوق في المجالين العقلي والإداري، وقد حرص سلاطين السلاجقة على إرضائهم وإشراكهم في تسيير أمور الحكم بالمدينة، فأسند إليهم بعض المناصب السياسية، كما كانوا يختارون من بينهم بعض الرؤساء والوزراء[٢].

وقد تميز الفرس بالأمانة والعفة والنزاهة والقناعة والصبر على الخدمة[٣] والنجدة وحسن السياسة والمقدرة العسكرية والمالية والإدارية والعلمية[٤].

٣- العرب

هو العنصر الذي قامت على أكتافه الدولة العربية الإسلامية بقيادة رسول الله ﷺ في المدينة، وبعد انتشار الإسلام في الجزيرة العربية حمل القادة المسلمون لواء الإسلام إلى البلدان المجاورة، ففتحوا العراق والشام وفارس وخراسان، وكان انتشارهم فيها تبعًا للضرورات السياسية والعسكرية، ثم تتابعت هجرة القبائل العربية إلى مرو بأعداد كبيرة[٥].

وبدأ الاستقرار الكامل للعرب في مرو في عهد أمير بن أحمر[٦]، وكانت

---

(١) رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي ٢٣، ترجمة محمد مرسي هنداوي دار الفكر العربي ١٩٤٧م.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٧٨.

(٣) الجاحظ: مناقب الترك ١٩.

(٤) القرماني: آثار الدول ١٤٥، البيهقي: تاريخ البيهقي ٢٣، ٣٩.

(٥) اليعقوبي: البلدان ٢٧٨.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان ٤٠٠، قدامة بن جعفر: الخراج وصنعة الكتابة ٤٠٤.

أكثر القبائل العربية في مرو من قبيلة تميم من شمال شبه الجزيرة العربيـة وقبيلـة بكر من ربيعة، وقبيلة الأزد من جنوب شبه الجزيـرة، وقبائـل قـيس وخزاعـة وقريش والأنصار من المدينة[١]، ومما ساعد على انتشار القبائل العربيـة في مـرو أن أغلب الذين تولوا إمارة خراسان طوال عصر الراشـدين والأمـويين كـانوا عربًا ثم أشرك العنصر الفارسي في الحكم في العصر العباسي إلى جانب العنـصر العربي، وذلك حتى قيـام الدولـة الطاهريـة، فمنـذ اسـتقلالها عـن الخلافـة في الشرق أصبح الحكم بيد غير العرب[٢].

ولا شك أن دور العرب بمرو كان دورًا حيويًّا هامًّا فقد قاموا بـدور بـارز في نشر الإسلام واللغة العربية، كما يرجع إليهم الفضل في تمصير المدينة وكثـرة عـدد المـسلمين بهـا، وكـان ذلـك نتيجـة طبيعيـة لاخـتلاط العـرب بـالفرس وانصهارهم معهم.

وإذا كان العنصر العربي قد حظي عـلى الـسيادة وأسـندت إليـه المناصـب الـسياسية الرفيعـة[٣] إلا أنـه لم يحـظ بـأي مـن هـذه المناصـب في العـصر السلجوقي[٤]، ومع ذلك فقد سـاهم العـرب في نـشر الحـضارة الإسـلامية في ذلك العصر، فقد قامت بيوتـات عربيـة في مـرو كـان لهـا كبـير الأثـر في نـشر المعارف والعلوم الإسلامية بما أنجبت من علماء أفاضل برعوا في علوم وفنـون كثيرة، ومنها بيت السمعاني أحد بيوت بني تميم[٥]، وهو مـن أشـهر البيوتـات

---

(١) اليعقوبي: البلدان ٢٧٩.

(٢) زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود ٧٥.

(٣) أحمد أمين: ظهر الإسلام ١/ ١١٩.

(٤) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٢/ ٣٩٨.

(٥) السمعاني: الأنساب ١/ ١١.

العربية الذائعة الصيت[١].

ومن الجدير بالذكر أن سلاطين السلاجقة كانوا يخافون من العنصر الغربي لاعتقادهم بأنهم أصحاب الحق في الحكم؛ لذلك أقصوهم عن المناصب الهامة وعن الجيش وفي نفس الوقت سعوا إلى مصاهرة الخلفاء العباسيين على اعتبار أن المصاهرة تمكنهم من أخذ الخلافة في أولادهم الذين يتصلون بالقرابة إلى الخلفاء، مما يكسب حكمهم الشرعية، ولذلك تسموا بأسماء عربية إلى جانب أسمائهم التركية[٢] والفارسية، كما جاءت معظم الكتابات التأسيسية على عمائرهم ونقودهم وأغلب مصنوعاتهم مدونة باللغة العربية.

وفي النهاية رغم أن العنصر العربي قد فقد قيمته السياسية خلال العهد السلجوقي في مرو إلا أن مؤثراته الحضارية كانت واضحة ومؤثرة في ذلك العصر.

فضلًا عن العناصر الرئيسية التي كان يتكون منها المجتمع في مرو خلال هذا العصر كانت هناك أقليات تقطن المدينة مثل الديلم الذين اقتصر دورهم في العصر السلجوقي على أعمال الحراسة في قصر السلطان، فكان يختار منهم مائة شخص تبعًا لتميزهم وقوتهم وجمال وجوههم[٣]، ولم يكن للديلم أي تأثير حضاري، بل كان يغلب عليه القسوة وغلظة الطباع[٤] وقد وصفهم المقدسي بأنهم رجال في القتال[٥]، ومن ثم فقد تميزوا بالشجاعة والقوة والمقدرة العسكرية.

---

(١) السمعاني: المصدر السابق ١/ ١١.

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٥/ ٩٢.

(٣) نظام الملك: سياست نامه ١٣١.

(٤) البيهقي: تاريخ البيهقي ٢١.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣٦٩.

ومن ضمن هذه الأقليات التي سكنت المدينة ولم يكن لهم وجود قبل هـذا العصر الأرمن، الذين كانوا يجلبون من أرمينية للخدمة في الجيش الـسلجوقي، فكثر توافدهم وإقامتهم في مرو، وكانوا دائـمًا مـصدر للفـتن والاضـطرابات؛ لتعرضهم لسكان المدينة بالسرقة والأذى[١]، ولم يكن لهم حضارة فقـد غلبـت عليهم الصفات الحربية مما جعلهم يستأثرون بالخدمة في الجيش.

طبقات وطوائف المجتمع السلجوقي

تميز المجتمع في مرو خلال العهد السلجوقي بظهور عدة طبقـات متفاوتـة من حيث السلطة والثروة والحجم، وقد عاشت كل طبقة في عزلة عـن الطبقـة الأخرى، ولم تكن طبقات المجتمع في المدينة منغلقة عـلى نفـسها بـل سـمحت التقاليد والفرصـة لأبنـاء الطبقـات الـدنيا في المدينـة لـصعود الـسلم الطبقـي والارتقاء إلى الطبقات العليا عن طريق العلم[٢]، وقـد ضـمت كـل طبقـة مـن طبقات المدينة فيما عدا طبقة الحكام كافة الفئـات والعنـاصر الجنـسية والدينيـة بها، وشملت طبقات عديدة ومتنوعة؛ هي:

أ- طبقة السلطة والحكام

تتمثل هذه الطبقة في الفئة الحاكمة من السلاطين والأمـراء وكبـار رجـال الدولة، وقد تربع أفراد هـذه الطبقـة عـلى قمـة الهـرم الطبقـي ومثـل أفرادهـا الإرستقراطية السياسية[٣] وتمتعت هذه الطبقة بدرجة عالية من البذخ والـترف والنعيم[٤] نظرًا لثرائهم وكثـرة ممتلكـاتهم، فكـان الـسلطان سـنجر مـن أكثـر

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٢٨.

(٢) نظام الملك: سياست نامه ٤٦.

(٣) د/ عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق في العصر السلجوقي ١٧٦.

(٤) حسن الباشا: الألقاب الإسلامية ٦٢، القاهرة ١٩٧٩م.

السلاطين ثروة حيث وجد بخزانته الكثير من الأموال وبلغت جواهره ألفًا وثلاثين رطلًا[١]، كما تمثلت عظمة وأبهة الحياة في سلاطين السلاجقة في سكناهم القصور الفخمة التي كانت مضرب المثل في الروعة والجمال.

وقد عمل سلاطين السلاجقة دائمًا على التمسك بكافة مراسم السلطنة والبلاط إظهارًا لعظمة وجاه سلطانهم[٢] حيث كان لكل سلطان تخت وتاج وخاتم توقيع خاص به يوقع به على المراسلات والمكاتبات، كما كان يضرب للسلطان في المدينة نوبة حمراء، ويضرب له الطبل عند النزول أو القدوم[٣]،كما كان السلاطين يضعون القباء المرصعة بالجواهر على رءوسهم[٤].

وكان لكل سلطان وكيل خاص يشرف على القصر وعلى شئون السلطان ومطبخه وإصطبله ومراقبة الموظفين المكلفين بهذه الأعمال، ومنهم أمير أخور ووظيفته العناية بالخيول والإصطبلات[٥]، والجامدار[٦] وهو المسئول عن ملابس السلطان، والطشتدار وهو المسئول عن صب الماء للسلطان[٧]، وكان للوكيل رأي مسموع على كافة العاملين بالقصر السلطاني[٨]، وكان قصر السلطان مكتظًّا دائمًا بالمماليك والخدم ممن يقومون بأمور السقاية والشراب

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٤٢٧، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ١٢٤- ١٢٥.

(٢) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ١٢٢.

(٣) الراوندي: راحة الصدور ١٦٣- ٢٢٠.

(٤) الراوندي: المصدر السابق ذكره ٢١٧.

(٥) البيهقي: تاريخ البيهقي ٦٦٣، بدر عبد الرحمن محمد: رسوم الغزنويين ونظمهم الاجتماعية١٢٢، القاهرة ١٩٨٧م.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى ٥/ ٤٥٩.

(٧) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ٢٠٥.

(٨) نظام الملك: سياست نامه ١٢٥.

واللباس[١].

وكذلك عدد من الغلمان الذين بلغوا أمير حجاب، كما شهدت هذه القصور كافة الحفلات ومجالس الغناء والموسيقى التي كانت تعقد ويستمتع بها السلطان مع ندمائه، كذلك كانت تعقد فيها جلسات الوعظ[٢] ودروس العلم والدين، كما تمتع الوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة بدرجة عالية من الثراء، فقد شيدوا قصورًا فخمة حيث كانت تحاكي قصور السلاطين، كما قلدوا سلاطين السلاجقة في مظاهر حياتهم اليومية فعقدوا مجالس للوعظ والغناء والرقص، كما كان لسلاطين السلاجقة دور خاصة بنسائهم وبناتهم ملحقة بالقصر السلطاني، وكان يقوم بخدمتهن العديد من الخصيان والجواري، وكانت هذه الدور تخضع لنفس الترتيبات التي عليها قصر السلطان[٣].

ب-الطبقة الوسطى

تمثل هذه الطبقة قلب النظام الطبقي في مرو في العصر السلجوقي، وقد ضمت العلماء والدهاقين[٤] والصناع وأصحاب الثروات وكبار التجار، وكان معظم هؤلاء من سكان المدينة الأصليين، وقد مثلت هذه الطبقة الإرستقراطية المالية في مرو[٥]، وتمتع أفراد هذه الطبقة بالثراء وامتلاك الضياع والأملاك الكثيرة؛ وبالتالي عاشوا في رغد من العيش في بيوت فخمة مليئة بالخدم، وقد

---

(١) عبد النعيم حسنين: إيران في ظل الإسلام ٤٣- ٤٤، دار الوفاء، القاهرة ١٩٨٨م.

(٢) نظام الملك: المصدر السابق ذكره ٩٦- ٩٧، د/عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق١٨٤.

(٣) الرواندي: راحة الصدور ٣٠٢.

(٤) السمعاني: الأنساب ٢/ ٥١٦.

(٥) البيهقي: تاريخ البيهقي ١٩.

تمتع العلماء في مرو في العصر السلجوقي بمكانة هامة فكان لهم جلالهم واحترامهم عند سلاطين السلاجقة ووزرائهم وكبار رجال الدولة[١]، فكان من مآثر هذا العصر تشجيع العلم والعلماء في كافة المحافل؛ لذلك عاش العلماء في رغد من العيش، ومن العلماء الذين حظوا بمكانة كبيرة لدى السلاطين أبو بكر محمد بن منصور السمعاني المتوفى ٥١٠هـ/ ١١١٦م[٢] وأبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني المتوفى ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م[٣].

وقد حرص سلاطين السلاجقة ووزراؤهم على تقريب العلماء وعقد مجالس العلم بقصورهم، كما أحاطوا أنفسهم بنخبة عظيمة من العلماء والشعراء الذين قاموا بتأليف الكتب والمصنفات ونظم القصائد لمدحهم، وقد أغدق عليهم السلاطين الأموال الكثيرة تشجيعًا لهم[٤]، وكان سلاطين السلاجقة ووزراؤهم يحترمون العلماء وخاصة علماء الدين لجذبهم للدولة لما يتمتعوا به من احترام بين طبقات الشعب وتأثير على عقول العامة[٥].

وقد صارت مرو مقصد العلماء والشعراء في عهد السلطان سنجر الذي احترم علماء الدين وجمع حوله الشعراء والأدباء وأغدق عليهم الأموال والعطايا الكثيرة[٦]، وقد حظي الصوفية بمكانة رفيعة لدى جميع الطبقات وارتبطوا بطبقة السلاطين وداروا في فلكهم[٧] حتى إن السلاطين اتخذوا منهم

---

(١) نظام الملك: سياست نامه ٤٦ - ٤٧.

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٧.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٢٠٩.

(٤) اليزدي: العراضة في الحكاية السلجوقية ١١٨ و ١٥٨.

(٥) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٦٨.

(٦) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ٥٥ - ٥٦.

(٧) ابن العماد: شذرات الذهب ٥/ ٢١.

رسلًا لقضاء بعض مصالح الدولة، ومنهم أبو منصور بن أردشير العبادي المتوفى ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م، وكان رسولًا من قبل السلطان سنجر إلى بغداد[١] ولم يكن العلماء في عزلة عن المجتمع في مرو خلال العصر السلجوقي بل اندمجوا في المجتمع، وأثروا فيه تأثيرًا كبيرًا من خلال مجالسهم في المساجد والمدارس لتدريس علوم الدين وتعريف الناس أحكامه، وكذلك بثهم الآراء السياسية والدينية الخاصة بهم، وقد تمتع العلماء بمكانة رفيعة وثروة طائلة، فكانت أسرة السمعاني تمتلك الكثير من الأراضي في قرى مختلفة من مرو مثل قرية شوال وأنداق وزبونة[٢].

كما تميز العلماء بلباس خاص بهم يميزهم عن غيرهم فكانوا يلبسون الطيلسان الأسود[٣] والمبطنة[٤] والدراعة السوداء[٥] والصوف الأبيض، ولا يلبسون الحرير أو الملون إلا في بيوتهم، وكانوا يضعون على رءوسهم العمائم السوداء المصقولة[٦]، هكذا أنجبت مرو من العلماء والأدباء والشعراء ما لم تنجبه مدينة أخرى.

صفوة القول: لقد تمتع علماء مرو في العهد السلجوقي بمكانة بارزة وتقلدوا المناصب القضائية والعلمية، فكان منهم القضاة والخطباء في المساجد، ومنهم أصحاب الصوفية والمذاهب الدينية، ومنهم الشعراء والأدباء والكتاب، وهم بذلك كانوا يمثلون أعلى فئة من المفكرين والمثقفين في مرو، كما

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ٢١٢، السمعاني: الأنساب ٤/ ١٢٣.

(٢) السمعاني: الأنساب ٤/ ٢١٥.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ٣/ ٢٨٧.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٤٤.

(٥) ابن منظور: لسان العرب ٨/ ٨٢.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٤٤.

امتلكوا الثروات الطائلة وعاشوا خلال العهد السلجوقي في رغد من العيش.

أما الدهاقين فقد تمتعوا بمكانة بارزة قبل الفتح الإسلامي لمرو، وبعد الفتح شاركهم العرب نفوذهم، ومع ذلك ظلوا يتمتعون بمنزلة عظيمة لما امتلكوه من أراضي وثروات طائلة حتى إنهم صاروا على عهد السلطان سنجر كالملوك والأمراء[١].

كما تمتع الصناع وأرباب الحرف بالثروات والأموال الكثيرة وعاشوا في مستوى مرتفع نتيجة للازدهار الاقتصادي الذي شهدته المدينة في هذا العصر، ولاسيما أن أغلب مصنوعاتهم كانت لأفراد الطبقة الحاكمة، وقد أكد الغزالي أهميتهم حين قال: إن الصناعات من ضرورات ومستلزمات الحياة وخاصة مع تنوعها وتعددها والتفنن بها[٢].

وقد تعددت الصناعات والحرف في مرو في العصر السلجوقي مثل: الحدادون الذين يعملون في صناعة الأدوات الحديدية[٣] والنحاسون الذين يصنعون الأدوات النحاسية[٤]، وأيضًا الصاغة الذين يصنعون الحلي[٥].

وأهم ما يتميز به الصناع وأرباب الحرف أن أصحاب كل حرفة كانوا يتكتلون في مكان معين، وكانت هذه التكتلات بسيطة لا تعني وجود نقابات بالشكل المعروف الآن، كما كانوا يجتمعون مع بعضهم البعض في السكن[٦] مما

---

(١) الجويني: تاريخ جهانكشاي ١/ ١٥١.

(٢) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ٢٣٠، القاهرة ١٣٥٨هـ.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٠٠، السمعاني: الأنساب ٢/ ١٨٢.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٥٠.

(٥) ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد ٢/ ٢١٠.

(٦) حسن كريمان: ري باستان م١، ١٩٦- ٢٠٣.

أدى إلى خلق نوع من التقارب الاجتماعي والمودة والألفة، ومما أكد هذه العلاقات الطيبة اعتناقهم لمذهب ديني واحد؛ فأدى ذلك إلى خلق وحدة اجتماعية بين أرباب الحرفة الواحدة[١]، ولكل حرفة رئيس عادة ما يكون أكبرهم سنًّا يمثل مصالحهم ويحمي أعضاءهم ويحفظ النظام بين أعضاء فرقته.

هكذا كانت مرو قلعة صناعية هامة في العصر السلجوقي وجالت منتجاتها سائر الآفاق بفضل صناعها المهرة.

كما تمتع التجار بمكانة هامة في مرو، وقد ساعدهم في ذلك موقع المدينة على طريق القوافل الرئيسية[٢] مما ساعدهم على جني ثروات كبيرة من وراء تجارتهم سواء الداخلية أو الخارجية.

وقد قامت هذه الطبقة بدور حيوي ومؤثر في حياة المدينة الاقتصادية مما جعل سلاطين السلاجقة يحرصون على إرضائهم، حتى إنهم كانوا يمثلون السلاطين في عاصمة الخلافة العباسية[٣]، وقد ضمت هذه الطبقة كافة العناصر الجنسية والطوائف الدينية من مسلمين ويهود ونصارى ومجوس، وأخيرًا تعرض أفراد هذه الطبقة لبطش الغيارين الذين كانوا يقومون دائمًا بسرقتهم وسلب أموالهم ونهب دورهم[٤].

٣-الطبقة الدنيا

تمثل هذه الطبقة غالبية المجتمع في المدينة، وكانت تضم العامة والرقيق فهي خليط من مختلف الأجناس الموجودة آنذاك، فكان من بينهم العربي والتركي

---

(١) حسن كريمان: المرجع السابق م١، ١٩٦- ٢٠٣.

(٢) مرتضى الراوندي: تاريخ اجتماعي إيران م١، ٤٢٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٩٢- ٩٣.

(٤) القزويني: آثار البلاد ٣٧٦.

والفارسي والديلمي وغيرهم من الأجناس الأخرى، وكان أغلبهم من المسلمين وقليل منهم من أهل الذمة[١].

ولم يكن للعامة مكانة خاصة في المجتمع، فقد وصفهم البعض بالجهل في الأمور الدينية وفي النواحي الثقافية، وأطلق عليهم المؤرخون أسماء مختلفة منها السفلة والغوغاء والسقاط والجماهير والدهماء والأوباش والحرافيش إلى غير ذلك من النعوت[٢]، وقد عاشت العامة حياة بسيطة يكاد الحال يصل ببعضهم إلى حد الحرمان من متطلبات الحياة سوى القليل من الطعام والملبس والمسكن[٣].

وفي الحقيقة لقد لعب دورًا هامًّا في الخلافات المذهبية التي كانت سائدة في مرو في هذا العصر، فعندما تحول الشيخ أبو المظفر بن محمد السمعاني المتوفى ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م اضطرب أهل مرو، وقامت الفتن بين العامة[٤] حتى وصلتهم كتبٌ من البلدان المجاورة بالتشديد عليه وإخراجه من مرو[٥] فذهب إلى نيسابور حيث استقبله الوزير نظام الملك استقبالًا كبيرًا[٦].

وقد ضمت العامة الغيارين والشطار الذين ساهموا بدور كبير في إثارة الفتن والاضطرابات والفوضى في مرو في ذلك العصر[٧]، وكانت هذه الجماعة

---

(١) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٤/ ٦٢٥.

(٢) محمد محمود إدريس: تاريخ العراق والمشرق الإسلامي ٢٤١- ٢٤٢.

(٣) د/ أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة ٢٠.

(٤) السبكي: طبقات الشافعية ٤/ ٢٠٣.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ١١٦.

(٦) القزويني: التدوين في أخبار قزوين ٤/ ١١٩.

(٧) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٤٨.

تقوم بسرقة الأغنياء ونهب دورهم[١]، ولم يقتصروا على جنس معين أو دين معين، بل ضموا بين صفوفهم مختلف الأجناس والديانات، وكان لهذه الجماعة عادات وتقاليد وطقوس معينة لكل مَن ينضم إليها، وكان لهذه الجماعة رئيس يتولى تنظيمها والإشراف عليها[٢].

أما الرقيق: فقد عرفت مرو نظام الرق من مصدرين؛ أحدهما: غنيمة الحروب التي خاضها المسلمون في خراسان وما وراء النهر إبان الفتح الإسلامي لتلك البلاد، وكان ضمن الغنائم أعدادًا كبيرة من الأسرى الذين كانوا يوزعون على الجنود[٣]، أما المصدر الآخر فكان يأتي بالرقيق عن طريق التجارة بواسطة النخاسين الذين لعبوا دورًا هامًّا في تجارة الرقيق[٤]، ومما ساعد على ذلك أن مرو كانت محطة لتجارة الرقيق في طريقها من الشرق إلى الغرب.

وقد زاد الرقيق في مرو خلال العصر السلجوقي بصفة عامة وعهد السلطان سنجر بصفة خاصة؛ لكونها حاضرة الدولة السلجوقية؛ فقد زخرت قصور السلاطين والأمراء وكبار رجال الدولة بالكثير من الرقيق وعلى الأخص الجواري وأحسن المماليك[٥] وقد شارك الرقيق في مرو في العصر السلجوقي في مختلف الأعمال فكان لهم دور في الحياتين الاجتماعية والسياسية، فمن الناحية الاجتماعية فقد خدم هؤلاء الرقيق في قصور السلاطين والأمراء

---

(١) عصام عبد الرءوف: تاريخ الفكر الإسلامي ١٥٦ - ١٥٧.

(٢) د/ حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ٣١- ٣٣.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ٣٨٦، آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢٣١.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسم ٢٦١.

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض ٩٢- ٩٤.

والأغنياء[١]. ومن الناحية السياسية شارك الرقيق كجنود وقواد وأمراء وقد بلغ نفوذهم درجة كبيرة في العصر السلجوقي، فكان جوهر المعروف بالمقرب المتوفى ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م قد بلغ مكانة هامة لدى السلطان سنجر وتدخل في شئون دولته وكثرت إقطاعاته وثرواته، وكان لديه مماليك كثيرون، وقد قتل على يد الباطنية وحزن السلطان سنجر كثيرًا عليه[٢] ولا شك أن هذا الانقلاب الاجتماعي للمماليك يرجع إلى السلاطين السلاجقة أنفسهم، وخاصة السلطان سنجر الذي رفع بعضهم إلى درجة عالية وقربهم إليه ومنحهم الإقطاعيات والأموال[٣].

وجدير بالذكر أن كثرة أعداد الرقيق قد أدى إلى انتشار الفساد والرذيلة بين طبقات المجتمع.

أما الطوائف الدينية: فظهر في مرو طوائف دينية عديدة خلال العصر السلجوقي كانت هي قوام المجتمع الذي انقسم إلى مسلمين وأهل الذمة:

١-المسلمون

يمثل المسلمون غالبية سكان مرو، وكانوا يتمتعون بمكانة سياسية واجتماعية رفيعة، وانقسم المسلمون إلى فرق وأحزاب صار لهم نظريات عقائدية تشمل كلًّا من الدين والسياسة، وهم فرقتا السُّنَّة والشيعة. وقد شهد هذا العصر سلسلة طويلة من الصراعات والفتن بينهم[٤] ولم تقتصر الصراعات

---

(١) الأصفهاني: الأغاني ٨/ ٢٤٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣١٥.

(٣) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ١٤٦، خواندمير: دستور الوزراء ٢٨٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ١٧٤، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ١٧١.

بين الشيعة والسُّنَّة بل امتدت لتشمل أهل السُّنَّة أنفسهم[١] الحنفية[٢] والشافعية[٣] وبلغ الصراع حدته؛ فكان أشد ضراوة مما كان بينهم وبين الشيعة[٤].

وكان المذهب الشافعي منتشرًا في معظم مدينة مرو، ويرجع الفضل إلى أحمد بن سيار الذي أدخل هذا المذهب إلى المدينة؛ أما المذهب الحنفي فقد دخل المدينة قبل المذهب الشافعي بكثير، وكان سلاطين السلاجقة الأوائل يعتنقون المذهب الحنفي وهو مذهب الخلافة العباسية الذي أخذوه عن الدولة السامانية[٥].

وقد زاد أتباع المذهب الحنفي في مرو في بداية عصر السلاجقة لتسامحه الديني في دراسة العلوم العقلية؛ إلا أن شوكة الشافعية سرعان ما قويت نظرًا لاهتمام بعض الوزراء الشافعيين بالناحية العلمية، وعلى رأسهم الوزير نظام الملك الشافعي المذهب، الذي بنى المدرسة النظامية في مرو وجعل التدريس فيها وقفًا على فقهاء الشافعية أصلًا وفروعًا[٦].

وقد ظلت العلاقة بين أنصار المذهبين تتصف بالتوتر والمنافسة والتشدد طوال العصر السلجوقي[٧] بل كانوا يكفر بعضهم البعض وكان يشعل نار هذه

---

(١) بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ١١٨. ترجمة حمزة طاهر-دار المعارف القاهرة ١٩٦٤م.

(٢) سيد مرتضى: تبصرة العوام ٨٩.

(٣) سيد مرتضى: المرجع السابق ١٤٣.

(٤) القزويني: آثار البلاد ٣٧٦.

(٥) القزويني: آثار البلاد ٣٧٦.

(٦) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى ١٠٨.

(٧) السيوطي: تاريخ الخلفاء ٢٧٨، ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٧٢، الذهبي: العبر ٢/ ٣٤٤، ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ١٦٥.

الفتنة أحيانًا سلاطين السلاجقة ووزراؤهم، ومما ساعد على تأجج نار الفتنة في مرو انتقال أبي المظفر السمعاني عن المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م، مما أدى إلى اضطراب أهل مرو وتشوش العوام بها واحتدام الخصومة بين أتباع المذهبين وإغلاق باب الجامع القديم، وترك الشافعية صلاة الجمعة[١] واضطرمت نار الفتنة بين الفريقين حتى كادت تملأ خراسان والعراق[٢] ولم تكن هذه الفتنة هي الوحيدة التي حدثت بمرو بل اشتعلت صراعات مذهبية بين الحنفية والشافعية بلغت ذروتها في عهد السلطان سنجر[٣].

وقد بلغت حدة التعصب الديني خلال العصر السلجوقي إلى حد لعن بعض الفرق على المنابر، ومن أهم هذه الفرق الأشاعرة[٤] وذلك بناء على أوامر أصدرها السلطان طغر لبك سنة ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م عندما أمر بلعن الرافضة ومعهم الأشاعرة على المنابر؛ حيث اعتبر الأشعري مبتدعًا يزيد على المعتزلة[٥] لأن المعتزلة أثبتوا أن القرآن في الصحف، والأشعري نفاه؛ ولكن هذا التعصب الذي كان ضد الأشاعرة سرعان ما تغير في عهد السلطان ألب أرسلان الذي كان يأخذ بالعقيدة الأشعرية[٦] ومنذ ذلك الوقت صار سلاطين السلاجقة على العقيدة الأشعرية وحاربوا المعتزلة حربًا شديدة فضعفت المعتزلة في ذلك

---

(١) الأسنوي: طبقات الشافعية ٢/ ٢٩، السبكي: طبقات الشافعية ٤/ ٢٠٣، الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ١١٦.

(٢) الأسنوي: طبقات الأسنوي ٢/ ٢٩، السبكي: طبقات الشافعية ٤/ ٢٠٣.

(٣) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ٢٢٣.

(٤) سيد مرتضى: تبصرة العوام ١٠٩.

(٥) الشهرستاني الملل والنحل ١/ ١٥٣.

(٦) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٠٩- ٢٣٣، وفيات الأعيان ٥/ ١٣٨.

العصر[١].

والواقع أن الصراعات المذهبية لم تقتصر على سكان مرو خلال العصر السلجوقي، بل تدخل السلاطين في هذه الصراعات المذهبية، وذلك بعقد المجالس ومتابعة المناقشات المتبادلة بين الفرق المختلفة، هكذا اتسمت مرو خلال هذا العصر بالاضطراب المذهبي، وقيام سلسلة طويلة من الثورات والفتن بين كافة الفرق الدينية مما نتج عنه انتشار الفوضى والخوف بين الناس[٢].

٢-الشيعة

ولما كان السلاجقة سُنيِّين متعصبين للمذهب الحنفي فقد قاموا بمطاردة عنيفة للشيعة، وشملت المطاردة الشيعة بصفة عامة سواء المعتدلة أو الغلاة[٣] وكان أغلب الشيعة في مرو خلال هذا العصر من الزيدية والاثني عشرية؛ وكان أتباع الزيدية أقرب فرق الشيعة إلى السُّنَّة وهم ينتسبون إلى إمامهم زيد بن علي زين العابدين بن الحسين، وكان مبدؤهم يقوم على جواز ولاية المفضول على المسلمين مع وجود علوي؛ ولم يطعنوا في الصحابيين الجليلين أبي بكر وعمر ولا في ولايتهما، كما أنهم لا يؤمنون بنظرية الإمام المختفي مثل الاثنا عشرية ولا بنظرية الإمام المستور كالإسماعيلية؛ لذلك فقد كانت الزيدية من فرق الشيعة المعتدلة[٤].

أما فرقة الاثنا عشرية فكان أتباعها يؤمنون بأن الإمامة في أولاد موسى

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٥٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٧٤.

(٣) بطروشوفسكي: الإسلام في إيران ٢١٩.

(٤) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٦٢.

الكاظم بن جعفر الصادق وهو علي الرضا ثم محمد التقي إلى أن تصل إلى الحسن العسكري الزكي[١] ثم ابنه محمد القائم وهو الإمام المهدي المنتظر عندهم وهو الثاني عشر، ينتظرون عودته ليملأ الأرض عدلًا ونورًا، وكان أتباع هذه الفرقة يؤمنون بعصمة الإمام وأنه نقي من الذنوب والعيوب[٢].

كما شهدت مرو فرقة من أخطر فرق الشيعة على الإطلاق وهي فرقة الإسماعيلية[٣] الذين بدأ نفوذهم في الازدياد في عصر نصر بن أحمد الساماني ٣٣١هـ- ٣٤٣هـ/ ٩٤٢م- ٩٥٤م بفضل بعض الدعاة ومنهم الداعي الحسين ابن على المروزي الذي دعا أهل خراسان لهذا المذهب.

ولما رأى الأمير نوح الساماني ازدياد نفوذهم أعلن عليهم حربًا شعواء؛ فظل هذا المذهب مستورًا[٤] وفي العهد الغزنوي عمل السلطان محمود على القضاء عليهم وكذلك في عهد ابنه السلطان مسعود؛ وفي عصر السلاجقة تعرضت هذه الفرقة لبطش واضطهاد سلاطين السلاجقة، ويبدو أن هذا الاضطهاد لم يفت في عضدهم، على العكس فقد اشتدت مقاومتهم وعنفهم وزاد عددهم[٥] حتى أصبحوا مصدر خطر يهدد كيان الدولة السلجوقية؛ وقد أخذت الإسماعيلية تنتشر بشكل سريع ومخيف على يد مؤسسها الحسن الصباح[٦] الذي نجح في تنظيمها عسكريًا؛ وتكمن خطورة هذه الفرقة في

---

(١) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات ٥٠٧.

(٢) د/ علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٢/ ٢٩ دار المعارف القاهرة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ٤٢١، البغدادي: الفرق بين الفرق ٣٩.

(٤) محمد السعيد: دولة الإسماعيلية في إيران ٧٦- ٧٧.

(٥) ناصر خسرو المروزي: جامع الحكمتين ٢٧ ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا.

(٦) ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية ٣٠٠.

استخدامها العنف والقوة وسفك الدماء؛ للتخلص من الخصوم والمعارضين وكل من يقف أمامها، وانتشر فدائيوها في مرو وغيرها من أقطار الدولة الإسلامية يغتالون السلاطين والوزراء، ويبثون الرعب في أرجاء العالم الإسلامي[١]. ومن أشهر الأمثلة على ذلك اغتيال الوزير نظام الملك بيد أحد الفدائيين[٢].

وقد انتهز الحسن الصباح النزاع الذي وقع على العرش بعد وفاة ملكشاه لتثبيت أقدامه وبث دعاته[٣] ورغم ما تعرضت له الباطنية من عمليات إبادة وقتل على نطاق واسع من قبل سلاطين السلاجقة إلا أن عددهم أخذ في الزيادة في مرو ولا سيما في عهد السلطان سنجر؛ حيث توطدت العلاقة بينه وبينهم، ومما يؤكد هذه العلاقة عهد المودة الذي عقد معهم، وأطلق أيديهم في النواحي التي امتلكوها، ولم يقبل أهل مرو هذا الصلح واتهموا السلطان سنجر بتحالفه معهم[٤]، ومما يؤكد هذا التحالف أيضًا موقفه السلبي إزاء قتلهم مملوكه المقرب جوهر.

وفي النهاية نقول: لقد شهدت مدينة مرو سلسلة طويلة من الاضطرابات والثورات بين السُّنَّة والشيعة بلغت حد الحرق والقتل؛ مما كان له تأثيره الخطير على حياة الناس الدينية التي أصبحت مضطربة ومهددة دائمًا؛ ما نتج عنه شيوع التعصب والخرافات والميل للعزلة والانزواء، كما ساعد هذا الوضع المضطرب على نشاط فرقة الباطنية التي وجدت في صراعات سلاطين السلاجقة المناخ المناسب لتنفيذ خططها وقيامها بعمليات الاغتيال.

---

(١) ميرخوند: روضة الصفا ٢٤٤.

(٢) بطروشوفسكي: الإسلام في إيران ٢٧١.

(٣) محمد السعيد جمال الدين: دولة الإسماعيلية في إيران ١٠١.

(٤) ميرخوند: روضة الصفا ٢٤٦، عباس إقبال: السلاجقة تاريخ إيران بعد الإسلام ٢٧٧.

٣-أهل الذمة

عاش أهل الذمة في مرو خلال العصر السلجوقي في جوٍّ من التسامح والحرية[١] فكان لهم ما للمسلمين من حقوق وواجبات، ومارسوا شعائرهم الدينية في أمن ودعة دون أدنى تدخل من سلاطين السلاجقة، كما لم يتدخلوا في خصوماتهم فكان لهم محاكمهم الخاصة التي تفصل بينهم[٢].

وقد حفلت مرو بعدد كبير من النصارى واليهود قبل الإسلام، ومع الفتح الإسلامي شهدت مرو تحول جماعات كبيرة من النصارى إلى الإسلام[٣] ومن ثم فقد حوت مرو خلال هذا العصر أعدادًا كبيرة من اليهود، وعددًا قليلًا من النصارى[٤].

أما المجوس فقد اعترف بهم رسميًّا كأهل ذمة في القرن الرابع الهجري إلى جانب اليهود والنصارى؛ ولا شك أن العصر السلجوقي كان عصرًا ذهبيًّا لأهل الذمة لما تمتعوا به من حرية وتسامح.

٤-اليهود

تمتع اليهود في مرو بكثير من ضروب التسامح الديني، وكثر عدد اليهود في مرو وكان لهم رئيس عام وهو رأس الجالوت، وكان هذا المنصب وراثيًّا، وتمتع اليهود بحرية انتخاب رؤسائهم، وكان الخليفة العباسي يقر هذا الانتخاب؛ وذلك بمنحه ختم الرئاسة على أبناء ملته، وكان هذا المنصب من الأهمية بحيث

يسري نفوذه على جميع طوائف اليهود المنتشرين بالدولة الإسلامية[١] وقد ترك سلاطين السلاجقة لهم حق القضاء بين رعاياهم دون تدخل منهم؛ وقام اليهود بجميع الأعمال التي تدر عليهم الأرباح الوفيرة، فاشتغلوا بالصيرفة والتجارة، وكان لهم نشاط ملموس في الحياة الاقتصادية في مرو، كما اشتغلوا بصناعة الذهب واستبدال العملة[٢] وكان لليهود لباس خاص بهم يتميزون به عن المسلمين: فكانوا يرتدون البراطل الطويلة[٣] وقد أدى اليهود الجزية، وقد بلغ مقدارها في هذا العصر دينار ذهب عن كل فرد بلغ الخامسة عشر من عمره[٤] وكان السلطان يأخذ نصف الجزية والنصف الآخر يأخذه رؤساء اليهود لدفع مرتباتهم منه[٥].

٥-النصارى

تحوي مرو عددًا قليلًا من النصارى الذين عاشوا في حرية خلال هذا العصر، كما مارسوا شعائرهم الدينية في حرية تامة؛ وكانت مرو مركز مطارنة النصارى وكانت لهم فيها كنيسة وأديرة للرهبان[٦].

والنصارى في مرو طائفتان: اليعاقبة ورئيسهم البطريق؛ والنساطرة ورئيسهم الجاثليق النسطوري[٧] وكان المذهب النسطوري هو الأكثر انتشارًا

---

(١) بنيامين: رحلته ١٣٦- ١٣٧.

(٢) عطية القوصي: الحضارة الإسلامية ٩٧.

(٣) ترتون: أهل الذمة في الإسلام ٢٠١ ترجمة حسن حبشي.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية ١/ ٨٤.

(٥) بنيامين: رحلته ١٥٤.

(٦) ابن منظور: لسان العرب م١، ٢٦٠ طبعة دار المعارف القاهرة والأصطخري: المسالك والممالك ١٨٠، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٧/ ١٧٣.

(٧) المقدسي: أحسن التقاسيم ٢٧٤- ٢٧٥.

بين نصارى مرو منذ العصر الساساني[١] وتمتع النصارى بحرية انتخاب رؤسائهم، كما تُرك لهم حق القضاء بين رعاياهم وكان للنصارى زي خاص بهم، فقد كانوا يلبسون البرانس ثم لبسوا بعد ذلك القلانس الطويلة[٢].

وقد شارك النصارى المسلمين في وظائف الدولة وفي وممارسة المهن الحرة كالتجارة والصناعة، كما شاركوا المسلمين في النواحي العلمية والأدبية، فمنهم من كان طبيبًا ومهندسًا وصرافًا وتاجرًا وبزازًا؛ ولم ينفصل المسلمون عن النصارى إلا في ممارسة الطقوس الدينية ومناطق السكن[٣]. وهكذا كانت كافة الأعمال متاحة للنصارى وكان النصارى مثل باقي أهل الذمة في مرو يدفعون الجزية المقررة عليهم[٤].

٦-المجوس

وهم سكان المدينة الأصليون الذين بقوا على دينهم الممثل في الديانة الزرادشتية وهي عقيدة الفرس القديمة الرئيسية[٥] وقد عاش المجوس في جوٍّ من التسامح والحرية الدينية في ممارسة شعائرهم الدينية، وكان للمجوس رئيس يمثلهم مثل غيرهم من طوائف أهل الذمة، ويتم انتخابه من بينهم ممن له الشرف والسيادة[٦] كما كان لهم حق القضاء فيما بينهم، فكان لهم قاضٍ خاص بهم يعرف بالموبذ[٧] كما كانوا يؤدون الجزية المقررة عليهم مثلهم مثل باقي أهل الذمة[١].

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية ١/ ٨٤.

(٢) بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٠، إبراهيم العدوي: النظم الإسلامية ٣٨٩.

(٣) أرثر كريستسن: إيران في عهد الساسانية ١٣٢.

(٤) آدم متز: المرجع السابق ذكره ٥٨.

(٥) أرثر كريستس: المرجع السابق ذكره ١٩٧.

(٦) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٥٨.

(٧) أرثر كريستسن: إيران في العهد الساسانية ١٩٧.

ومارسوا أيضًا كافة الأعمال التي تدرُّ عليهم الربح الوفير؛ فاشتغلوا بالزراعة والصناعة، كما بلغوا درجة عالية بفضل نبوغهم[٢] كما كان لهم زيٌّ خاص بهم تمييزًا لهم عن غيرهم.

خلاصة القول: لقد عاش أهل الذمة في مرو خلال العصر السلجوقي في أمن ودعة، وتمتعوا بحياة هادئة مستقرة فلم يشهد هذا العصر أي فتن بين أفراد أهل الذمة، وبلغ من تسامح سلاطين السلاجقة نحو أهل الذمة أنهم كانوا يشاركونهم في الاحتفال بأعيادهم.

ومن الجدير بالذكر أن الطوائف الدينية قد انفصلت عن بعضها البعض تمام الانفصال، فلم يكن اليهودي يتحول إلى النصرانية ولا العكس، واقتصر تغيير الدين على الدخول في الإسلام، كما امتد هذا الانفصال ليشمل أمور الزواج فيما بينهم وأمور الميراث.

مظاهر الحياة العامة

١-الأعياد

اهتم أهالي مرو كغيرهم من الشعوب بالاحتفال بكافة الأعياد التي تمر مناسبتها عليهم، فاحتفلوا بالأعياد الدينية، كما احتفلوا بالأعياد القومية الخاصة بهم والموروثة منذ القدم، وظلوا متمسكين بها ومحتفظين بقدسيتها في العصر العباسي[٣].

---

(١) آدم متز: المرجع السابق ذكره ٦٠، د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية ١٧٢.

(٢) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ٤٢٦.

(٣) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ٤٥٢- ٤٥٣.

أ-الأعياد الرسمية

اهتم أهل مرو خلال العصر السلجوقي بالاحتفال بالعيدين: عيد الفطر وعيد الأضحى[١] شأنهم شأن سائر المسلمين في العالم الإسلامي، وبالنسبة لعيد الفطر كان الناس يحتفلون به برؤية هلال شهر شوال؛ ويسمى يوم الرحمة لأن فيه يرحم الله عباده بالفطر بعد صيام شهر رمضان[٢] وتقام في هذا العيد الزينات في جميع أنحاء المدينة ابتهاجًا لهذه المناسبة السعيدة، فتضاء فيها الأنوار، وينشر فيها الورود والرياحين، ويلبسون الثياب الجديدة؛ وفي الصباح يخرج الناس لصلاة العيد ودائمًا كان السلطان السلجوقي يحضر صلاة العيد ويستمع إلى خطبة العيد، وغالبًا تشتمل على عدد من المواعظ وما يجب على المسلمين من الالتزام به من كريم الأخلاق، والمحافظة على شعائر الإسلام[٣] وبعد الصلاة يتبادل المسلمون التهاني فرحين بإتمام شهر رمضان ثم يخرجون لزيارة الأصدقاء وتناول الأطعمة التي أعدت خصيصًا لمثل هذا اليوم[٤].

أما عيد الأضحى فكان يبدأ الاحتفال به من ليلة التاسع من ذي الحجة يوم عرفة ويوم العيد يخرج المسلمون لأداء صلاة العيد ويلقي عليهم الخطبة في فضائل العيد[٥] ثم يضحيِّ المسلمون تقربًا إلى الله، واقتداء بسنة الرسول ﷺ[٦].

---

(١) الكرديزي: زين الأخبار ٣٤٩، النويري: نهاية الأرب ١/ ١٨٤.

(٢) البيروني: الآثار الباقية ٣٢٩.

(٣) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢٣٦، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ٤٥٢.

(٤) البيهقي: تاريخ البيهقي ٢٩٩.

(٥) النويري: نهاية الأرب ١/ ١٨٤.

(٦) الكرديزي: المصدر السابق ذكره ٣٦١، جلال الدين همائي أصفهاني: تاريخ أدبيات إيران جلد دويم ٢١٦.

ومن المناسبات الدينية أيضًا الاحتفال بحلول شهر رمضان، والاحتفال برأس السنة الهجرية، ويوم عاشوراء، ويوم المولد النبوي، ويوم الإسراء والمعراج، وليلة القدر، ويوم عرفة[١].

كما احتفل الشيعة بأعيادهم الخاصة بهم والتي من أهمها عيد غديرخم[٢] (مكان بين مكة والمدينة بينه وبين الجحفة ميلان) وهو أعظم أعيادهم ويوافق الثامن عشر من ذي الحجة ويعتقد فيه الشيعة أن الرسول عهد فيه إلى عليٍّ بن أبي طالب بالوصاية بعد عودته من حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة، ولما نزل بغديرخم أخذ بيد علي وقال (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه)[٣].

ويركز الشيعة على هذا الحديث باعتباره تصريحًا ومبايعة علنية من الرسول ﷺ لعلي[٤]، ويعلق الشيعة في هذا اليوم الزينات، وتفتح الأسواق، وتضاء الأنوار، ويذبحون الذبائح[٥].

واتخذ الشيعة يوم عاشوراء مناسبة لإظهار حزنهم وفزعهم، وقاموا بالبكاء لمقتل الحسين بكربلاء[٦] ويقام العزاء بكافة المساجد، ويلقي الخطباء والأئمة خطبًا تذكر سوء أفعال الأمويين وتلعن معاوية[٧].

---

(١) الكرديزي: زين الأخبار ٣٤٩.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ١٨٨.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ٢/ ٤٤٤- ٤٤٥، تاريخ اليعقوبي ١١٢.

(٤) د/ محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر ٨١ دار الفكر العربي-القاهرة ١٩٤٧.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٤٠٧.

(٦) الكرديزي: زين الأخبار ٣٥.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى ٢/ ٤٤٤- ٤٤٥، عبد الجليل الرازي: النقض ٤٠٢.

ب-الأعياد الفارسية

وهي أعياد فارسية موروثة منذ القديم، وتعرف بالأعياد القومية، وظل أهل مرو متمسكين بها، فقد كانت تمجد قوميتهم، وتشعرهم بتميزهم كما يرجع معظمها إلى معتقدات اجتماعية ظلوا مؤمنين بها[١].

١-النيروز

وهو من أهم الأعياد الفارسية التي احتفل بها أهل مرو احتفالًا خاصًّا، ومن مظاهر هذا الاحتفال بمرو أن المجوس كانوا يوقدون النار بالمعابد، وتضاء الأنوار في أنحاء المدينة ويتهادون فيه الهدايا الكثيرة ومن بينها الملابس والسكر[٢] كما كان من عادة العوام أن يرفعوا النار في ليلته ويرشون الماء بصبيحته[٣] وقد احتفل أهل مرو بالنيروز بجانب الأعياد الإسلامية، وكان الاحتفال به يمثل مكانة مهمة، ولم يقتصر على الفرس وحدهم بل أصبح عيدًا شعبيًّا واحتفل به رسميًّا[٤] وشاركهم السلاطين في الاحتفال بالعيد، وكانوا يتقبلون الهدايا فيه من وزرائهم وأمرائهم[٥]. كما كان الأطفال يفرحون في هذا اليوم ويلعبون ويشترون الحلوى المصنوعة خصيصًا بمناسبة النيروز وتكون على هيئة حيوانات وكانوا يلعبون باللعب الخشبية كالتروس والسيوف وكانت الأسواق تزين في هذا اليوم وتباع بها الحلوى والأطعمة[٦].

---

(١) البيروني: الآثار الباقية ٢٩٩.

(٢) البيروني: الآثار الباقية ٢١٦.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ٢/ ٤٤٦، النويري: نهاية الأرب ١/ ١٨٦.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢٨٢.

(٥) طه ندا: فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ١١٤.

(٦) فؤاد عبد المعطي الصياد: النيروز وأثره في الأدب الفارسي ٥٦.

٢-المهرجان

من الأعياد الفارسية المهمة ويوافق أول أيام الشتاء في السنة الفارسية وظل هذا العيد إلى جانب النيروز من أكبر أعياد الفرس في مرو في العصر السلجوقي؛ فكان أهل مرو يحتفلون به ويتهادون كما كانوا يغيرون الآثاث ويشترون الملابس الجديدة؛ تعبيرًا عن فرحتهم بالعيد، كما كانوا يفرحون ويلعبون فيه[١]. ومن مظاهر الاحتفال بهذا العيد قرع الطبول ونفخ الأبواق وتعليق الزينات وأكل الرمان، والدجاج المشوي والخص، والبيض المسلوق[٢].

٣-عيد السرق

وهو من الأعياد الفارسية التي احتفل بها أهل مرو وهو ليلة الحادي عشر من شهر بهمن ويسمى هذا اليوم (أبان روز)[٣] ومن مظاهر الاحتفال بهذا العيد إيقاد النيران حيث كان الفرس يجمعون كثيرًا من الحطب حتى يصير كالجبل ارتفاعًا ويجمعون كثيرًا من الطيور والحيوانات ثم يشعلون النار فيها حتى يشاهد ضوؤها على بعد عشرة فراسخ ثم يبللون الطيور والحيوانات بالنفط ويطلقونها وقد علقت النار بها ويقوم الأهالي بالابتهاج حولها.

٤-عيد الكوسج

وهو من أعياد الفرس وهو يوافق أول يوم من شهر أذرما الفارسي وهو الشهر التاسع من السنة الشمسية الإيرانية (٣٠ يومًا من ٢٢ نوفمبر إلى ٢١ ديسمبر) ويعتقد أهل مرو أن الله يقدر ويكتب في هذا اليوم حظوظ الناس من

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٢/ ٤٤٨- ٤٥٠، آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢٤٨.

(٢) النويري: نهاية الأرب ١/ ٤٢.

(٣) محمد أسعد طلس: الحياة الاجتماعية في القرنين الثالث والرابع الهجريين ٨٨ مجلة المجمع العلمي العراقي- ١٩٥٢م.

سعادة أو شقاء وكان هذا اليوم فرصة للهو والطرب وسرور الناس في مرو فكانوا يتبادلون الزيارات[١].

هكذا ظل آل المدينة يحتفلون بهذه المواسم والأعياد بخروجهم إلى المتنزهات والبساتين ولبس الملابس الجديدة، وإيقاد النار والشموع والغناء والرقص وتبادل الهدايا والتحف[٢].

ج-أعياد أهل الذمة

كما كان لأهل الذمة من اليهود والنصارى أعيادهم الكثيرة التي يحتفلون بها وقد شاركهم المسلمون فرحتهم، وقدموا لهم التهنئة بهذه الأعياد[٣]. وكان النصارى يحتفلون بعيد الميلاد ويسمونه (عيد البشارة)[٤] كما احتفل النصارى بعيد الشمع، وأول إدخال المسيح إلى الهيكل وعيد الخمسة وأربعين شهيدًا واحتفلوا أيضًا بعيد الفصح وهو من أهم أعيادهم وهو يوم صيامهم الأكبر ويستمر هذا العيد سبعة أيام[٥].

أما أعياد اليهود التي كانوا يحتفلون بها فمنها عيد المظال، وعيد عرابا، وعيد الجمع، وعيد الصوم العظيم ويسمونه (صوماريا) ويستمر خمسًا وعشرين ساعة[٦] وعيد رأس هيشا وهو عيد عنف وحرية[٧].

---

(١) البيهقي: تاريخ البيهقي ٤٧١.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢٤٧.

(٣) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٤/ ٦٢٧.

(٤) ترتون: أهل الذمة في الإسلام ١٢١ ترجمة حسن حبشي.

(٥) نريمان عبد الكريم: معاملة أهل الذمة في الدولة الإسلامية ١٦٤ الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٦م.

(٦) الثعالبي: ثمار القلوب ٥٠٩.

(٧) نريمان: المرجع السابق ذكره ١٦٠.

وهكذا احتفل أهل الذمة بأعيادهم في حرية تامة في ظل الحكم السلجوقي كما شاركهم المسلمون احتفالهم.

ثم ننتقل بالحديث عن مجالس الطرب والغناء والشراب حيث حرص سلاطين السلاجقة على عقد هذه المجالس وخاصة الغناء والشراب، وتأنقوا في تجميلها حتى صارت مضرب المثل في الروعة والجمال. وقد انتشر الغناء في مرو خلال العصر السلجوقي لكثرة الجواري المدربات على الغناء مما جعل سلاطين السلاجقة وكبار رجال الدولة يولعون بالشراب وسماع المغنيات[١].

وصناعة الغناء هي تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع للأصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع كل صوت منها توقيعًا عند قطعه، فيكون نغمة ثم تؤلف هذه النغم بعضها مع بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها بسبب هذا التناسب وما يحدث عنه من تآلف بين هذه الأصوات[٢] وتعددت الآلات الوترية[٣] التي تعزف بالقوس والربابة والناي والصفارة والزمارة والبوق والدفوف والقانون والطبل والطنبور والأرغانون أو الأرغن والدولاب وهو الأرغن الكبير بخلاف الأرغن الصغير[٤].

وعلى العموم راج سوق الغناء في مرو رواجًا كبيرًا؛ نتيجة لتشجيع سلاطين السلاجقة له[٥] ومما يؤكد ذلك ولع السلطان سنجر بالغناء فكان شغوفًا به شغفًا كبيرًا حتى إنه كان يختار كبار المغنيين، والعازفين لمجالسه

---

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٨٤.

(٢) د/ عصام عبد الرءوف: تاريخ الفكر الإسلامي ١٧٠.

(٣) ابن الجوزي: تلبيس إبليس ٢٤١.

(٤) الراوندي: راحة الصدور ٤٤٤.

(٥) ابن الجوزي: المرجع السابق ذكره ٢٤١.

الغنائية؛ ومن ثم أصبحت مرو في عهده مجمع الأنس ومحافل السرور[١] ولا شك أن الغناء صار ضرورة من ضرورات الحياة في مرو عند سلاطين السلاجقة وكبار رجال الدولة، ولا يعيشون إلا به وذلك لما له من تأثير في إنعاش نفوسهم[٢] وكان للمغنيين ترتيب خاص في الجلوس في المجالس الغنائية تبعًا لمقدرتهم الغنائية وإجادتهم له فقد شملت الطبقة الأولى كبار المغنيين والطبقة الثانية ضمت من هم أقل مستوى من الطبقة الأولى، أما الطبقة الثالثة فقد ضمت أصحاب المعازف والطنابير[٣].

ولم تقتصر المجالس الغنائية على المطربين بل حفلت بكثير من الندماء وكان لكل نديم رتبة ومقام، إذ خصصت أماكن لجلوس بعضهم، وأماكن لوقوف البعض الآخر، وكان هؤلاء الندماء يشاركون السلطان لهوه ومرحه فلا تتم هذه المجالس إلا بهم[٤]. ومن الشروط التي كان يجب أن تتوفر في النديم أن يكون أديبًا ملمًا بعلوم اللغة وفنون الموسيقى والغناء بجانب الشمائل الخلقية الأخرى، وأن يكون على قدر كبير من الثقافة والهيبة[٥].

وقد حرص سلاطين السلاجقة على اتخاذ الندماء؛ ليتحدثوا إليهم دون حرج أو تحفظ[٦] وكان ندماء السلطان من غير أصحاب المناصب السياسية حتى لا يتطاولون على الناس وينالهم الأذى منهم لما لهم من مكانة عظيمة لدى

---

(١) الراوندي: المصدر السابق ذكره ٤٤٤- ٤٤٥.

(٢) فايد العمروسي: الجواري والمغنيات ٢١- ٢٤. دار المعارف القاهرة ١٩٦١.

(٣) بدر عبد الرحمن محمد: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة ٢٣٠- ٢٣١.

(٤) الراوندي: راحة الصدور ٤٤٤.

(٥) الأصفهاني: الأغاني ٢/ ٣٩٠.

(٦) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٦٢.

السلطان[١] وكانوا يتقاضون رواتب شهرية يخصصها لهم السلطان نظير ما يقومون به تجاهه[٢] وكان من أشهر ندماء السلطان سنجر الأمير علي الجتري الذي استطاع بسبب ظُرفه ومنادمته للسلطان أن ينهي الخصومة بين السلطان وجوهر الخادم[٣] ولا شك أن هذه المجالس كانت تعقد للتسلية والترفيه والاستمتاع بكل ضروب اللهو والشهوات وإلى جانب مجالس الغناء والشراب كانت هناك المجالس الاجتماعية التي تضم العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء للمناظرة فيما بينهم أو للمناقشة في أمور الدين والدنيا، ولم تخلُ هذه المجالس من النوادر والقصص الجميلة والحكم والفكاهات[٤] وقد أخذت هذه المجالس الأدبية مظهر اجتماعي حيث كان عامة الناس تلتف حولها للمشاهدة والاستمتاع وكان لهذه المنتديات الأدبية فضل كبير على الأدب ومباراة في تهذيبه وتجديده[٥] هكذا أصبح الشعراء والأدباء أداة من أدوات الزينة وطرفة جميلة تحلى بها الدور والقصور[٦].

أما مجالس الوعظ والقصص: فقد انتشرت مجالس الوعظ والقصص في مرو خلال العصر السلجوقي وتعددت موضوعاتها وأهدافها فكان الواعظ يقوم مقام المدرس ويحضر حلقته جميع أفراد المجتمع دون تمييز فيشرح لهم المسائل الشرعية ويجيب عن الأسئلة التي توجه إليه وقامت مجالس الوعظ على

---

(١) نظام الملك: سياست نامه ١٢٧.

(٢) نظام الملك: سياست نامه ١٢٧.

(٣) خواندمير: دستور الوزراء ٢٨٤.

(٤) نظام الملك: سياست نامه ١٢٧، الراوندي: راحة الصدور ٥٦٤، محمد محمود إدريس: تاريخ العراق والمشرق ٢٤٧.

(٥) أحمد أمين: فجر الإسلام ١٨٩.

(٦) أحمد أمين: ظهر الإسلام ١/ ١٥٣.

شرح وتفسير القرآن والسُّنَّة[١] كما شارك الوعاظ في مرو في الخلاف القائم بين الفِرق والمذاهب الدينية؛ فقام على رأس كل مذهب عدد من الوعاظ ينشرون تعاليمه ومبادئه وسط مريديه من الناس[٢] وكثرت عدد المجالس الخاصة بأهل السُّنَّة وشارك سلاطين السلاجقة في عقد هذه المجالس التي تبحث في المسائل المذهبية وكان يحضرها جميع السكان على اختلاف مستواهم الثقافي[٣].

ومن أشهر وعَّاظ مرو في ذلك العصر أردشير بن منصور أبو الحسن العبادي الواعظ الأستاذ كان أصله من مرو وكان يخاطب بالأمير قطب الدين قدم بغداد وجلس في النظَّامية، وحضر أبو حامد الغزالي مجلس وعظه وكان يحضر مجلسه من الرجال والنساء نحو ثلاثين ألفًا[٤]. كذلك كان علي بن زيد البيهقي أصله من قصبة السابزوار من ناحية بيهق انتقل إلى مرو بعد وفاة والده سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م وكان يعقد مجلس وعظه في المدرسة والجامع ثم انصرف عن مرو سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م[٥].

وكانت معظم مجالس الوعظ تنتهي بالثورة والفتنة التي تعم المدينة، وقد زادت خطورة هذه المجالس لتفاقم حدة العصبية المذهبية، ومن ثم فقد ساهم الوعاظ في إشعال الفتن المذهبية[٦]، وقد حث بعض العلماء كالغزالي على منع النساء من حضور مجالس الوعظ خشية أن يؤدي ذلك إلى الفتنة والانشغال بهن عما يقال بهذه المجالس؛ فلا تحقق الفائدة المرجوة منها، كما حثوا الوعاظ بالالتزام

---

(١) بدر عبد الرحمن محمد: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة ٣٣- ٣٥.

(٢) عبد الجليل الرازي النقض ٥٩٨.

(٣) عبد الجليل الرازي المرجع السابق ذكره ٥٩٨.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٥/ ١٨٤.

(٥) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٣/ ٢٢١- ٢٢٢.

(٦) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ١٧٢-١٧٣.

بتعاليم الدين والزهد في الملابس وعدم التكلف حتى يكونوا قدوة[١].

أما مجالس القصاص فقد قامت على رواية القصص الدينية وإرشاد الناس وحثهم على اتباع الطريق القويم؛ بذكر آيات الله وأخبار السلف الصالح بهدف التذكرة والعظة والاقتداء بهم، كما قام بعض القصاص بتفسير بعض آيات القرآن[٢]، وقد شجع سلاطين السلاجقة وكبار رجال الدولة على هذه المجالس وبصفة خاصة المجالس السنية[٣].

التسلية ووسائلها

تعددت وسائل التسلية في مرو خلال العصر السلجوقي، فكانت هواية الصيد من أهم أنواع التسلية والرياضة لسلاطين السلاجقة[٤]، فقد شُغف سلاطين السلاجقة بالصيد وهيئوا له كل ما يحتاجونه في رحلات صيدهم، وأهمها: إعداد الحيوانات والطيور الخاصة بالصيد كالكلاب والصقور المعروفة بسرعة الصيد واقتناص الفرائس[٥]، فكان السلاطين يخرجون إلى الضواحي والصحاري القريبة من المدينة للقيام بهواية الصيد، وكانوا يقومون برحلات منتظمة[٦].

وكان السلطان ملكشاه شغوفا بالصيد، فقد بلغ ما اصطاده في رحلة واحدة مع مماليكه عشرة آلاف رأس، فأمر أن يُتصدق بما يساويها؛ وأصبح منذ

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ٤٧٨-٤٧٩.
(٢) ابن أبي أصبيعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٣٨.
(٣) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ٢٢٣-٢٢٤.
(٤) د/ سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ١/ ٩٣.
(٥) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٩٩.
(٦) الراوندي: راحة الصدور ٣٥٩.

ذلك الوقت كلما صاد شيئًا تصدق بعدده دنانير[١]، كما ولع السلطان سنجر بالصيد ولعًا شديدًا جعله يستشير منجمه الخاص لتحديد موعد الصيد[٢].

ومن الألعاب التي انتشرت في مرو في ذلك الوقت لعبة الشطرنج، وهي من وسائل التسلية المحببة إلى العامة والخاصة، وكان سلاطين السلاجقة يجيدونها وانتشرت في مجالسهم[٣]، كما كان بعض الناس يحتفظون بالشطرنج في منازلهم لتسلية أهل البيت والضيوف، فعلى سبيل المثال كان فخر الدين مباركشاه بن الحسن المروزي المتوفى ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م له دار ضيافة فيها الكتب والشطرنج لتسلية الخاصة والعامة[٤].

وانتشر في ذلك العصر اللعب بالنرد[٥]، وهي لعبة فارسية الأصل، من الألعاب المسلية وتسمى (الكعاب) وكان الناس يقامرون في لعبها رغم تحريم الإسلام، وتنوعت وسائل التسلية في مرو وضمت الألعاب الرياضية كالرمي والفروسية[٦]، واهتم بها سلاطين السلاجقة؛ لأنها كانت من الرياضات المحببة لدى عامة الشعب وخاصتهم، وهم بذلك يشجعون رياضة أوصى الإسلام بها، كما عرفوا اللعب بالصولجة وهي ضرب الكرة على ظهر الخيل بالعصا، والكرة المستعملة في حجم البرتقالة يتقاذفها اللاعبون من فوق ظهور الخيل[٧].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٦٤.
(٢) نظامي السمرقندي: جهار مقاله ٧٠.
(٣) نظام الملك: سياست نامه ١٣٥.
(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٢٢.
(٥) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية ١١٢.
(٦) ابن الجوزي: المنتظم ١٦/ ٢٨٤، الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٢٧، الرواندي: راحة الصدور ٥٩٢، د/ عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٨٤.
(٧) د/ عصام عبد الرءوف: تاريخ الفكر الإسلامي ١٦٩.

وفي النهاية نستطيع أن نقول: إن سلاطين السلاجقة قضوا أوقات فراغهم في الاستمتاع بالصيد والألعاب المختلفة، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على ما بلغه سلاطين السلاجقة وكبار رجال الدولة من ترف وبذخ في حياتهم اليومية بالمدينة.

الطعام

تفنن أهل مرو في صناعة الأطعمة ذات الطعم اللذيذ والطهي الجيد والألوان المتعددة[١]، ومما يؤكد ذلك ما قاله المقدسي أنه: (ليس في الدنيا مثل خبز مرو ولا نظير لهم في أقاليم العجم مثل هريستهم)[٢]، واختلفت الأطعمة في مرو وتنوعت لاختلاف العناصر السكانية فكان لكلٍ منها أطعمتها التي جاءت بها من مواطنها الأصلية إلى مرو، كما كان للاحتكاك التجاري أثره في تنوع الأطعمة في مرو.

كذلك تأنق سلاطين السلاجقة في تناول أطعمتهم وأسرفوا في إعدادها وإقامة الولائم وحفلت موائدهم بشتى أنواع الأطعمة ومختلف المشروبات، فكان السلطان ألب أرسلان يحرص على إعداد الخوان على أكمل وجه، فكان يذبح في مطبخه خمسة عشر ألف رأس لإعداد موائد الطعام وتقديمها لكل من يأتي إلى خوانه[٣]، وكان نظام الملك يرى أنه من الضروري إعداد الخوان والإنفاق عليه بكثرة؛ لأنه يعكس قدر وعظمة السلطان وما يتمتع به من سيادة[٤]، كما كان السلطان سنجر يطهي أربعين ألف رأس من الغنم سنويًّا،

---

(١) الأصطخري: المسالك والممالك ٢٦٢، د/ عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب ٣/ ٣٢٧.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣٢٦.

(٣) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٤٨-٤٩.

(٤) نظام الملك: سياست نامه ١٦٩.

فكان أفراد هذه الطبقة يسرفون في الإنفاق على طعامهم ويحرصون على تزيين موائدهم بالورود والرياحين.

وبالنسبة لطعام أهل مرو من السكان الأصليين فكان معظمه من أصول فارسية، وكان يتكون من الأرز والبيض المحلى بالسكر[١]، وكانوا يعتبرون أوسط الطعام لديهم هو الخبز بالزيت والخل[٢]، أما اللحم فيرونه أرفع الطعام[٣].

وكان من طعامهم العصيدة[٤] (هي عبارة عن دقيق يلت بالماء المغلي) والهريسة[٥] والحسية[٦] والمليل[٧] والأرزة[٨] والبهضة[٩] والبوراني[١٠] والسويق[١١] والمشوشة[١٢] والثريد[١٣] وأكل خبز الشعير والجبن والأرينين[١٤] والطين[١٥] ويطلق عليه طين الأكل، وكان يقدم في نهاية الطعام؛

---

(١) ابن قتيبة: عيون الأخبار ٣/ ٢٩٩.

(٢) وكيع: أخبار القضاة ٢٩٣، القاهرة ١٣٦٩م.

(٣) الجاحظ: البخلاء ١٨.

(٤) الجاحظ: البخلاء ١٨٢.

(٥) الجاحظ: المصدر السابق ذكره ١٨٢.

(٦) الجاحظ: المصدر السابق ذكره ١٨٢.

(٧) الجاحظ: الحيوان ١/ ٢٤٥.

(٨) الجاحظ: البخلاء ١٨٢.

(٩) الجاحظ: البخلاء ١٨٢.

(١٠) التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة ٢/ ٧٦.

(١١) ابن حوقل: صورة الأرض ٢١٣.

(١٢) الجاحظ: التاج ٢١.

(١٣) الجاحظ: البخلاء ٩٥.

(١٤) الجاحظ: المصدر السابق ذكره ٩٥.

(١٥) ابن حوقل: صورة الأرض ٢١٣.

وهو نوع من جذور النبات التي تساعد على الهضم[١].

وكان للعرب أطعمة خاصة بهم، وكانت قاصرة على التمر والحبوب واللحوم ومنتجات الألبان من سمن وزبد وجبن، ومن طعامهم الثريد (فت الخبز في مرق اللحم)[٢]، والخبز والهريسة، ومن أصناف الحلوى التي اشتهرت بها مرو الفالوذج[٣] (حلوى تصنع من الدقيق والماء والعسل) ، والفانيد[٤] (حلوى من اللوز والفستق) ، واللوزينج[٥] (حلوى من اللوز)، والخشكنامج[٦] (طعام مصنوع من الزبد والجوز والسكر والفتسق)، والخشكار (يصنع من دقيق الشعير والسكر)، والخبيص[٧] (حلوى من التمر والسمن)، ونواله[٨] (قطعة مدورة من الخميرة المصنوعة من الدقيق والقمح)، والصبرزد[٩] (سكر أبيض صلب)[١٠]،كما زخرت موائدهم بشتى أنواع الفواكه التي كانت تشتهر مرو بإنتاجها.

الأزياء والملابس

تعتبر الملابس والأزياء من أهم مظاهر الترف، فهي تعكس مستوى معيشة من يرتديها وكذلك الطبقة التي ينتمي إليها، واشتهرت مرو بإنتاج أنواع

---

(١) الثعالبي: لطائف المعارف ١٣٩.

(٢) الجاحظ: البخلاء ٩٥.

(٣) الجاحظ: المصدر السابق ٩٥.

(٤) الجاحظ: رسائل الجاحظ ١/ ٢٦٦.

(٥) الجاحظ: السابق ذكره ١/ ٢٦٦.

(٦) الجاحظ: البخلاء ١٣٠.

(٧) الجاحظ: رسائل الجاحظ ١/ ٢٦٦.

(٨) الثعالبي: يتيمة الدهر ٤/ ١٠٦.

(٩) الثعالبي: المصدر السابق ذكره ١٠٦.

(١٠) الثعالبي: ثمار القلوب ٣٢٠.

مختلفة من المنسوجات القطنية والحريرية والصوفية التي ذاع صيتها وعظمت شهرتها في العهد السلجوقي.

واختلفت الملابس في مور باختلاف طبقاتهم وصناعتهم وأحوالهم، فكان لكل طبقة لباس يتميزون به عن غيرهم، حتى إن الرجل تعرف صنعته من لباسه[١]؛ فملابس السلاطين السلاجقة تختلف عما يرتديه العلماء، وملابسهم تختلف عما يرتديه العامة[٢]، فكان لسلاطين السلاجقة أزياؤهم الخاصة بهم، التي تتميز بالفخامة، فقد ارتدوا أغلى الملابس الموشاة بالجواهر[٣]، فمثلًا كان السلطان ألب أرسلان يلبس قلنسوة عالية لا يقل طولها من أعلاها إلى طرف شاربه عن ذراعين[٤]، بينما كان السلطان سنجر لا يتكلف في ملبسه، فكان يلبس ثوبًا زندنجيًّا أو عتابيًّا من الحرير غير المنقوش وعليه صديري رقيق[٥].

وكان الجامدار هو المسئول عن ملابس السلطان من حيث ترتيبها وإعدادها وتجهيز ما يرتديه السلطان يوميًّا أو التي يرتديها في المناسبات[٦]، وكانت ملابس السلاطين تتكون من القلانس والعمائم، كما لبسوا الطيالس والأقبية والسراويل والجوارب[٧]، وكذلك الدراعة والجبة السوداء، وكانت ملابسهم من الحرير المزركش بألوان زاهية، ووضعوا على رءوسهم التيجان المرصعة بالجواهر[٨] حتى يظهر في أبهى صورة.

---

(١) الجهشياري: الوزراء والكتاب ٢، أحمد أمين: ضحى الإسلام ١/ ١٨٧.
(٢) صلاح حسن العبيدي: الملابس العربية ٦١.
(٣) زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية ٢٤٨.
(٤) الراوندي: راحة الصدور ١٨٦.
(٥) الراوندي: المصدر السابق ذكره ٢٦٠.
(٦) الراوندي: المصدر السابق ذكره ٢٠٧.
(٧) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ٣٨٨.
(٨) الراوندي: المصدر السابق ذكره ٢١٧.

وبالنسبة لملابس القضاة فقد اتخذوا القلانس العظام وكذلك الطيلسان[١] كما هو الحال بالنسبة للفقهاء[٢]، وأكد المقدسي ذلك بقوله: (فإنهم يتطيلسون) أي: يلبسون الطيلسان[٣] فوق العمامة.

وكان للشرطة زي خاص بهم يميزهم عن غيرهم، حيث كان القواد يلبسون الأقبية الفارسية القصيرة، أما الجند فيلبسون سروايل ذات شرائط وتحيط أوساطهم[٤] أحزمة.

كما كان للشعراء زي خاص بهم فكانوا يرتدون الموشى والمقطعات والأردية السوداء[٥] أما الكُتَّاب فكانوا يلبسون الدراعات[٦].

ومثلما اختلفت الملابس باختلاف الطبقات فقد اختلفت أيضًا العمائم (وهي غطاء الرأس يتميز به اللباس العربي، ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: العمائم هي تيجان العرب)[٧]، فكانت عمامة العلماء والقضاة تتميز بكبر حجمها، وكان للتجار والبقالين عمائم أيضًا، وهكذا اختلفت العمائم باختلاف المكانة الاجتماعية.

أما ملابس العامة فكانت من القطن الغليظ فقد ارتدوا المدرعة المصنوعة من الصوف والسراويل البيضاء المزيلة ولبسوا الخف والنعال كما لبسوا الأزر

---

(١) الأصفهاني: الأغاني ٢/ ٢٩.
(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب ٢٠.
(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣٢٣.
(٤) الثعالبي: يتمية الدهر ٣/ ٣٤٦.
(٥) أحمد أمين: ضحى الإسلام ١/ ١٢١.
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣١٤.
(٧) الطبري: مكارم الأخلاق ١٣٧.

والفوط الخاصة بالخدم[١].

كذلك كان للمتصوفة لباس (خاص) بهم، فكانوا يرتدون العباءات والأردية الزرقاء كما كانوا يرتدون المئزر[٢]، وغالبًا كانت ملابسهم من الصوف الخشن[٣]، أما ملابس النساء فكانت تغلب عليها الحشمة فكن يلبسن الخمار[٤] وهو غطاء للرأس، وكن يخرجن ملتحفات بملاءة فضفاضة تغطي كل جسدهن حتى لا يظهر منهن شيء[٥].

خلاصة المطاف: أن ملابس المسلمين في مرو في العهد السلجوقي قد تحكمت فيها ثلاثة تيارات؛ **أولها**: عربي، **وثانيها**: فراسي، **وثالثها**: وارد من أواسط آسيا الموطن الأصلي للسلاجقة[٦].

كما كان لأهل الذمة لباس (خاص) بهم؛ فقد لبست اليهود البراطل الطويلة[٧]، ولبس النصارى القلانس الطويلة بعد أن كانوا يلبسون البرانس[٨]، فكذا لعبت الملابس دورًا هامًّا وكانت مظهرًا من مظاهر الحضارة في مرو في العهد السلجوقي.

---

(١) رونالد ولبر: إيران ماضيها وحاضرها ٢٢٠.

(٢) القزويني: آثار البلاد ٣٦١.

(٣) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ١٠٩.

(٤) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١/ ٧٤.

(٥) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ٣٨٩.

(٦) A Survey of Persian Art from prehistork time To present p.22 38

(٧) ترتون: أهل الذمة في الإسلام ٢٠٥.

(٨) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٨٤.

المؤسسات الاجتماعية

١ - الربط

ملئت الربط في كل أجزاء مرو ولم تقتصر هذه المنشآت على العبادة، بل كانت ذات أغراض تعليمية أيضًا، ومنها على سبيل المثال رباط عبد الله بن المبارك[١]، ورباط كنزه مزار[٢]، ورباط قبر الحسين رضي الله عنه[٣]، وفي العصر السلجوقي أصبح لهذه المنشآت الصوفية طراز معماري خاص يشتمل على خلوت والجامع والمطبخ والحمام ومكان لضيافة الواردين وقد تعددت منشآت الصوفية، وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالورع والتقوى وترجى بركتهم، ولكل رباط شيخ يسمى قطب أو شيخ الشيوخ يباشر الصوفية ويأتي بعده المريدون والإخوان وغيرهم، كما وجد أيضًا الخدم والقراء والجند[٤].

ومن ربط السلاجقة رباط شرف[٥] الذي أسسه الشيخ أبي بكر الكرامي[٦] في عهد السلطان أبي شجاع محمد بن ملكشاه سنة ٥٠٨هـ/ ١١١٤م، والمبنى الرئيسي للرباط مربع الشكل يتقدمه مجموعة غرف منسقة يشبه في شكله

---

(١) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي مولاهم أبو عبد الرحمن المروزي أحد الأئمة الأعلام، روى عن حميد الطويل وحسين المعلم وسليمان التيمي وخلق، وعنه معمر والسفيانان وفضل بن عياض وجعفر بن سليمان الضبعي ويحيى القطان والوليد بن مسلم وخلق، مات ١٨١هـ.
انظر المزيد في: تاريخ بغداد ١٠/ ١٥٢، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٧٤، حلية الأولياء ٨/ ١٦٢، خلاصة تذهيب الكمال ١٧٩.

(٢) ياقوت الحموي: المشترك وضعًا والمفترق صقعًا ١٩٩-٢٠٠.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية ٧٩.

(٤) د/ عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية ١٨٦.

(٥) د/ عبد المنعم ماجد، المرجع السابق ذكره ١٨٧.

(٦) أوقطاي أصلان، فنون الترك وعمائرهم ٢٢٣، بيروت ١٩٦٧م.

الخارجي الحصن، ومن الداخل يشبه قصرًا بالغ العظمة، كما يشتمل على مسجد له قبة وفناء تدور حوله البوائك، وقد خُرب هذا الرباط في ثورة الغاز لكن خاتون زوجة السلطان سنجر قامت بترميمه هو ورباط ماهي المجاور له[١].

وكذلك الرباط الذي يقع على نهر الزريق وقد سكنه الشيخ أبو الرجاء المومل بن مسرور الشاسي الخمركي المتوفى ٥٨٦هـ/ ١١٩١م[٢]، ومن أشهر هذه الربط أيضًا رباط أبو المعالي عبد الله بن أحمد بن حمدويه المروزي الذي بناه على نفقته الخاصة باسم أصحاب الحديث وطلابه، ومات أبو المعالي سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م[٣]، وقد كشفت هذه المنشآت الصوفية عن عظمة العمارة السلجوقية في مجال الزخرفة وعن التوازن والتناسق في التخطيط.

٢- البيمارستانات

وهي من أهم المنشآت الاجتماعية التي أسست للعلاج والتعليم[٤] معًا وكانت البيمارستانات في مرو تسير وفقًا لنظام وترتيب معين، حيث قسمت قسمان منفصلان: قسم للذكور وقسم للإناث[٥] وكل قسم يتكون من عدة قاعات لمختلف الأمراض، فقسم للعمليات وقسم للكحالة وآخر للجراحة وهكذا[٦]، وكانت القاعات فسيحة حسنة البناء وكان الماء فيها جاريًا

---

(١) محمد محمدي: الأدب الفارسي ٢٢٣.

(٢) السمعاني: الأنساب ٢/ ٤٥٢.

(٣) ابن الأثير، الكامل ٩/ ٣٣٤، ابن الجوزي: المنتظم ١٨/ ٤٠.

(٤) شوكت الشطي، موجز تاريخ الطب عند العرب ٩، دمشق ١٩٥٩م.

(٥) شوكت الشطي، المرجع السابق ذكره ١٠، د/ عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية ١٠٩.

(٦) عبد الله عبد الرازق، المستشفيات الإسلامية ٧٥، الأردن ١٩٨٧م.

وللبيمارستان صيدلية تسمى (شرابخانة) كما ألحق بالبيمارستان حمام عام، وكان للبيمارستان أيضًا الفراشون من الرجال والنساء للخدمة[١] وقد تعددت البيمارستانات في مرو فمنها الثابت والمحمول[٢].

كذلك كانت البيمارستانات من أهم الأماكن التي يدرس فيها[٣] الطب فكان طلبة الطب يتلقون علومهم على أساتذتهم في البيمارستان وكانت تهيأ لهم الإيوانات الخاصة المعدة والمجهزة بالآلات والكتب أحسن تجهيز، فيقعدون بين يدي معلمهم بعد أن يتفقدوا المرضى وينتهوا من علاجهم[٤]، كما ضم البيمارستان مكتبة كبيرة زخرت بالعديد من المؤلفات الطبية التي تساعد الطلبة في تشخيص الأمراض[٥].

٣- الحمامات

تحث تعاليم الإسلام على النظافة التي هي من سمات المؤمن، فيقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وانتشرت الحمامات في مرو وقراها وذلك لعدم إمكانية العامة إنشاء حمامات خاصة في منازلهم ورغبة القادرين في استثمار أموالهم بإنشاء الحمامات، لما تدره من أرباح وفيرة[٦] مما أدى إلى إنشاء العديد من الحمامات وخاصة في دندانقان[٧] وقد أكد

---

(١) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات ١٩-٢٠.

(٢) أحمد عيسى، المرجع السابق ذكره ١٠-١١.

(٣) ول ديورانت، قصة الحضارة ٢/ ١٩٠، ترجمة محمد بدران.

(٤) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام ٣٨، عبد الله الجراري: تقدم العرب في العلوم والصناعات ٧٤.

(٥) بروان، الطب العربي ٤٧، بغداد ١٩٦٤م.

(٦) محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية ٢٤٦، مجلة عالم المعرفة الكويت العدد ٢٨ أغسطس ١٩٨٨م.

(٧) المقدسي، أحسن التقاسيم ٣١٢، لسترانج، بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٢.

ابن خلدون أن الحمامات تكون في المجتمعات التي قطعت شوطًا كبيرًا في العمران ووجودها نوع من الترف والنعيم[١]، وقد خصصت حمامات للرجال وأخرى للنساء أو حددت أيام خاصة بالنساء[٢].

ويتألف الحمام من مدخل ثلاث أو أربع حجرات أساسية مغطاة بقباب وفي الجهة المقابلة حجرات الوقود، ويدخل إلى الحمام باب منخفض يؤدي إلى ممر ضيق يلي حجرة تسمى البيت البارد، وفيها يخلع المستحمون ملابسهم، أما في الشتاء فكان المستحم يخلع ملابسه في الحجرة الوسطى، الدافئة لقربها من القدر الساخن وكان يلاحظ في بناء الحمامات أن تصمم بحيث تتيح للمستحم أن ينتقل تدريجيًا من الجو الحار إلى الجو البارد حتى لا يصاب بأذى[٣]، كما انخفضت الحمامات عن مستوى سطح الأرض عشر أمتار، وكانت حوائطها تغطى بالقرميد الملون والرخام والمرمر، وتزين بالصور للترفيه عن المستحمين وإدخال السرور والراحة على نفوسهم[٤] والعمل الطبيعي للحمام هو التسخين بهوائه والترطيب بمائه[٥].

ومن الجدير بالذكر أن حمامات مرو لم تخل من حلاق يحلق للمترددين على الحمام وأخيرًا خضعت حمامات مرو لإشراف المحتسب فكان يشرف على نظافتها[٦].

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ٢٣٨، دار صادر، بيروت، ١٩٨٦م.

(٢) منظمة العواصم والمدن الإسلامية: أسس التصميم المعماري ٤٨٠.

(٣) حسن الباشا، الآثار الإسلامية ١٦٥.

(٤) أبو صالح الألفي، الفن الإسلامي ١٥.

(٥) الشيرازي: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ٨٦.

(٦) ابن الأخوة، معالم القربة في طلب أحكام الحسبة ٥٤.

المرأة في العصر السلجوقي

تمتعت المرأة في مرو خلال العصر السلجوقي بقسط وافر من الحرية والنفوذ فقد ظهر دور المرأة على مسرح الأحداث السياسية بصورة بارزة وذلك لكثرة المواقف السياسية التي شاركت فيها وكان لها اليد الطولى، والكلمة النافذة وقد تلقبت نساء الطبقة الحاكمة خلال العصر السلجوقي باسم (خاتون)، وتعني السيدة التركية(١).

ويعد من أهم المواقف السياسية التي شاركت فيها المرأة على الإطلاق دورها في تحديد مصير الدولة السلجوقية، فكان الباعث على خروج سلجوق من موطنه الأصلي في وسط آسيا أن امرأة ملك الترك بيغو كانت تخوفه من الأمير سلجوق وتحرضه على قتله فدفعه خوفه من القتل على الرحيل إلى ديار الإسلام(٢).

واستمرت المشاركة النسائية في الشئون السياسية فكانت تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه تتمتع بشخصية قوية هيأت لها الظهور على الساحة السياسية في وقت ازدهار الدولة السلجوقية، وقد أخذ نشاط تركان خاتون السياسي في الظهور منذ عام ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م حين ولدت ابنًا ذكرًا من السلطان ملكشاه ورغبت في تعيينة وليًّا للعهد رغم أنه أصغر الأبناء سنًّا، فاعترض الوزير نظام الملك على رغبتها حفاظًا على تماسك الأسرة السلجوقية ومنعًا للمنازعات والحروب بين أفرادها للظفر بعرش السلطنة(٣).

---

(١) شيرين عبد النعيم حسنين، نساء شهيرات في السياسة والأدب ٤٩، الأنجلو القاهرة، ١٩٨٩م.

(٢) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٢٣-٢٤.

Bernard Lewis Islam From The prophet Mohammed To Copture of Constanlrouple p. 69.

(٣) عبد الله رازي: تاريخ كامل إيران ٢٠٤.

غير أن تركان خاتون ظلت تـوغر صـدر زوجهـا الـسلطان ملكـشاه عـلى وزيره نظام الملك وأخذت تتحين الفرصة لعزله[١]، وقد واتتهـا الفرصـة سـنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م حين شكا شـحنه مروقـودن وهـو مـن خـواص الـسلطان المقربين من عثمان جمال الملك ابن نظام الملك حـاكم مـرو الـذي اسـتغل نفـوذ جده وقبض عليه وأودعه الـسجن زمنًـا ثـم أطلـق سراحـه فقـصد الـسلطان شاكيًا[٢] واستغلت تركان خاتون شكواه في إثارة السلطان وتحريضه على عـزل نظام الملك من الوزارة والقضاء على نفوذ أبنائه وأحفاده، وشاء القدر أن يقتـل نظام الملك على يد أحد فدائي الإسماعيلية[٣]، وربما كان لتركان خـاتون يـدًا في ذلك.

كما هيمنت أم السلطان سنجر على شئون الحكم وكان لها تـأثيرًا كبـيرًا عـلى السلطان سنجر[٤] ولها ديوان خاص لرعاية شئونها[٥]، كما كان لتركان خـاتون زوجة السلطان سنجر بصمتها على التاريخ السياسي فقد اشتركت مع زوجهـا في حربه للقرخطائيين فوقعت أسيرة لديهم سنة كاملة إلى أن افتديت بخمسمائة ألف دينار[٦].

وقد خدمت المرأة السلجوقية أهداف دولتها السياسية بإقامة علاقات الـود والتقارب مع الخلافة العباسية وذلـك عـن طريـق المـصاهرات الـسياسية مـع الخلفاء ومحاولة التأثير علـيهم عـن طريـق زوجـاتهم الـسلجوقيات بـما يحقـق

---

(١) نظام الملك: سياست نامه ٢٢٢.
(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٣٣٥-٣٣٦.
(٣) ابن إسنفديار: تاريخ طبرستان ٣١٦.
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ١٨٤.
(٥) خواندمير: دستور الوزراء ٢٧٦.
(٦) فتحي أبو سيف: المصاهرات السياسية ٥٢٠.

أهدافهم[١] فقد تزوجت السيدة خديجة بنت جغرى بك ويطلق عليها (أرسلان خاتون) من الخليفة القائم بأمر الله، ولم تكن مجرد زوجة للخليفة، وإنما كانت أشبه بسفيرة لدولتها، وكان لها إقطاعياتها الخاصة[٢].

واستمرت المصاهرات السياسية طول العصر السلجوقي، ففي عهد السلطان ألب أرسلان تزوج الخليفة المقتدي من ابنته وتدعى (خاتون السفرية)[٣]، ولكن ظاهرة المصاهرات السياسية بدأت تختفي في عهد السلطان سنجر نظرًا لانشغال السلاجقة بمشاكلهم الداخلية من ناحية وصحوة الخلافة العباسية في عهد المقتفي بأمر الله من ناحية أخرى[٤].

وجدير بالذكر أن ظاهرة المصاهرات السياسية لم تقتصر على الخلفاء العباسيين فقط، بل امتدت داخل البيت السلجوقي نفسه كأحد مظاهر الترابط الأسري، فعندما توفي جغري بك أقدم أخيه طغرلبك على الزواج من إحدى زوجاته وهي أم سليمان[٥] وذلك للحفاظ على وحدة السلاجقة كما حدثت المصاهرات السياسية في أعقاب الحروب الداخلية بين حكام السلاجقة للتعبير عن الوئام الذي حل محل الحرب والعداء، ففي الحرب التي دارت بين سنجر وابن أخيه محمود بن محمد بن ملكشاه ورغم انتصار سنجر إلَّا أنه عمل على توحيد كلمة السلاجقة، فصالح ابن أخيه محمود وزوَّجه ابنته وتدعى (مهملك خاتون)[٦].

---

(١) على إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام ٥٠٢.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ١٦٩.
(٣) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٤٥.
(٤) فتحي أبو سيف: المرجع السابق ذكره ٩٥.
(٥) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٢/ ١٨٠.
(٦) عبد الله رازي: تاريخ كامل إيران ٢٠٥.

وكانت ظاهرة تعدد الزوجات من الأمور المألوفة في مرو خلال العصر السلجوقي مما أدى إلى كثرة، الأبناء من أمهات مختلفة وانعكس ذلك بطبيعة الحال على صلات الأبناء بعضهم ببعض وعلى توجيه الأحداث في الدولة السلجوقية[١].

ومن المؤكد أن الدور الهام الذي لعبته المرأة في مرو خلال العصر السلجوقي يرجع إلى الاهتمام بتعليمها فلم يخل المجتمع في مرو من السيدات المتعلمات اللاتي ساهمن في تعليم الأبناء شتى أنواع العلوم والآداب، فقد شاركت المرأة في الحياة العلمية في مرو ونبغت في العلوم المختلفة.

ومن النساء الشهيرات في علم الفقه خديجة بنت محمد بن عبد الله الواعظ الشاهجانية المتوفاة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م، وكانت مشهورة بالورع والزهد[٢]، كما كانت كريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم أم الكرام المروزية عالمة صالحة روت الصحيح عن الكشميهني، ولم تتزوج قط، وقيل: إنها بلغت المائة، ماتت سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م، وكذلك حرة بنت محمد بن منصور السمعاني، كانت امرأة صالحة كثيرة الدرس للقرآن، مداومة على أعمال الخير[٣].

كما نبغ بعضهن في الشعر مثل الشاعرة مهمستي[٤]، التي ساهمت بنصيب كبير في النشاط الأدبي في مرو خلال عصر السلطان سنجر، وقد عاشت في بلاطه ونالت الحظوة ودخلت زمرة المشاهير في الشعر في عصره[٥]، وكانت لها

---

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٨٤.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٦/ ١٠٧، الذهبي: العبر ٢/ ٣١١.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٣٣.

(٤) السمعاني: الأنساب ٣/ ٣٠١.

(٥) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢٥٧.

الإجادة في نظم الرباعيات[١]، فقد نظمت شعرًا بالصراحة في التعبير عن عواطفها حيث كانت صراحتها لا تتفق مع طبيعة المرأة التي ترى الحياء أجمل صفاتها.

ثم نختم هذا الفصل بالحقيقة التاريخية: إن المرأة شاركت في المجتمع في مدينة مرو كأم وربَّة منزل تهيئ للرجل كافة أسباب الراحة، هكذا قامت المرأة بدور بارز في الحياة السياسية وساهمت في تشكيل الدولة السلجوقية كما ساهمت فى الحياة الثقافية والاجتماعية فى المدينة.

(١) علي رازي: تاريخ إيران ٣٧١.

الفهارس التاريخية

١- أسماء الخلفاء العباسيين المعاصرين للسلاجقة

- أبو جعفر عبد الله القائم بالله: ٤٢٢هـ-٤٦٧هـ/ ١٠٣١م-١٠٧٥م.
- أبو العباس أحمد المقتدي بأمر الله: ٤٦٧هـ-٤٨٧هـ/ ١٠٧٥م-١٠٩٤م.
- أبو العباس أحمد المستظهر بالله: ٤٨٧هـ-٥١٢هـ/ ١١١٨م-١١٣٥م.
- أبو منصور فضل المسترشد بالله: ٥١٢هـ-٥٢٩هـ/ ١١٣٥م-١١٣٦م.
- أبو جعفر منصور الراشد بالله: ٥٢٩هـ-٥٣٠هـ/ ١١٣٦م.
- أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله: ٥٣٠هـ-٥٥٥هـ/ ١١٣٦م-١١٦٠م.

سلاجقة خراسان

- ركن الدين أبو طالب طغرلبك: ٤٣٢هـ-٤٥٥هـ/ ١٠٤٠م-١٠٦٣م.
- عضد الدين أبو شجاع ألب أرسلان: ٤٥٥هـ-٤٦٥هـ/ ١٠٦٣م-١٠٧٢م.
- ناصر الدين محمود: ٤٨٥هـ-٤٨٧هـ/ ١٠٩٢م-١٠٩٤م.
- ركن الدين أبو المظفر بركيا روق: ٤٨٧هـ-٤٩٨هـ/ ١٠٩٤م-١١٠٤م.
- غياث الدين أبو شجاع محمد: ٤٩٨هـ-٥١١هـ/ ١١٠٥م-١١١٧م.
- معز الدين أبو الحارث سنجر: ٥١١هـ-٥٢٢هـ/ ١١١٧م-١١٥٧م.